

أدب الإمام الحسين (عليه السلام)

قضاياها الفنية والمعنوية

رسالة قدمها

موسى خابط عبود

**إلى مجلس كلية التربية في جامعة بابل، وهي
جزء من متطلبات نيل درجة ماجستير في آداب
اللغة العربية.**

بإشراف

أ.م.د. قيس حمزة الخفاجي

2008م

1429هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا

إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾

صدق الله العلي العظيم
الشورى/من 23

الإهداء

إلى الهادي بغير أجر (ص)

وإلى آله الطيبين (ع)

مودّةً في قرباهم.

المقدمة

الفصل الأول

قضية النوع الأدبي

الفصل الثاني

قضية الموضوع

الفصل الثالث

قضية التشكيل الجمالي

الخاتمة

المصادر والمراجع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذه الرسالة الموسومة بـ(أدب الإمام الحسين عليه السلام)- قضاياه الفنية والمعنوية) التي قدمها الطالب (موسى خابط عبود) قد جرى بإشرافي في كلية التربية - جامعة بابل، وهي جزء من متطلبات درجة ماجستير في آداب اللغة العربية.

الإمضاء:
أ. م. د. قيس حمزة الخفاجي
(المشرف)
التاريخ : / / 2008

بناءً على التوصيات المتوافرة، أرشح هذه الرسالة للمناقشة.

الإمضاء:
أ. م. د. عامر عمران الخفاجي
(رئيس قسم اللغة العربية)
التاريخ : / / 2008

شكر وعرفان

يرفل القلب بالوفاء والضمير بالامتنان لكل من جاد بفضله على الباحث، بكثير أو قليل، فإن كان من تمام الفضل شكر أهله، فلا يسعني إلا أن أزجي – وطرفي غضيف- بشكري الخالص وامتناني العظيم، إلى:

- أ.م.د. لؤي عبد الهاني السويدي عميد كلية التربية ، وأ.م.د. عامر عمران الخفاجي رئيس قسم اللغة العربية، وأ. د.علي ناصر غالب، لرعايتهم لي رعاية أبوية كريمة.
- أساتذتي في قسم اللغة العربية بكلية التربية/ جامعة بابل في مرحلتي البكالوريوس، والماجستير عرفانا بجميل صنعهم، وأخص منهم:
 - أ.د.عباس محمد رضا لسخائه العلمي وجهوده الكبيرة في إنجاز البحث.
 - أ.م.د.عدنان العوادي لما أتحننا به من وافر علمه.
 - أ.د.هناء جواد عبد السادة لما أبدته من تعاون وعطاء.
 - أ.م.د.محسن حسين الخفاجي لما أعانني به وقدمه لإنجاز البحث.
 - أ.م.د.صباح عطوي لكرمه معي وتفقهه لمسيرتي العلمية.
- أخوتي وأصدقائي التدريسيين:ميثم قيس، وسامر فاضل، وإدريس طارق، وكاظم العزاوي، وحسن غانم، ومحمد إسماعيل، ومحمد نوري، ونزار عبد اللطيف، وحسن عبيد، وأحمد كاظم عماش، والطابعي محمد حمزة.
- زميلاتي في مرحلة الماجستير، وزميلي في مرحلة الماجستير المرحوم فاضل عباس تغمدته الله برحمته الواسعة.
- العاملين في مكتبة قسم اللغة العربية، ومكتبة كلية التربية، ومكتبة كلية الآداب في جامعة بابل، ومكتبة الروضة الحيدرية، ومكتبة الحكيم، ومكتبة أمير المؤمنين(ع)، والمكتبة الأدبية المختصة في النجف الأشرف لما بذلوه من تعاون أثمر برقد البحث بكثير من المصادر والمراجع.
- أخوتي وأسرتي لصبرهم عليّ وبخاصة القلب الحنون أمي الحبيبة، وزوجتي الغالية أم مسلم. جزى الله تعالى الجميع خيرا.

الباحث

بسم الله الرحمن الرحيم

قرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء لجنة المناقشة بأننا قد اطلعنا على الرسالة الموسومة بـ (أدب الإمام الحسين عليه السلام) - قضاياها الفنية والمعنوية التي قدمها الطالب (موسى خابط عبود)، وقد ناقشنا الطالب في محتوياتها، وفي ما له علاقة بها، ونرى أنها جديرة بالقبول لنيل درجة ماجستير في آداب اللغة العربية بتقدير).

الإمضاء :

أ.م.د. صباح نوري المرزوك
(عضواً)

التاريخ : / /

الإمضاء :

أ.م.د. علي محمد حسين الخالدي
(عضواً)

التاريخ : / /

الإمضاء :

أ.د. عباس محمد رضا البياتي
(رئيساً)

التاريخ : / /

الإمضاء :

أ.م.د. قيس حمزة الخفاجي
(عضواً ومشرفاً)

التاريخ : / /

صادق مجلس كلية التربية في جامعة بابل على قرار لجنة المناقشة.

الإمضاء :

أ.م.د. لؤي عبد الهاني السويدي
(عميد الكلية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبدالله، وآل بيته الأطهار وصحابته الأخيار، وبعد.

فقد عُرف الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب(ع)، بوصفه رمزا دينيا وقائدا ثوريا، ولم يُعرف بالمستوى نفسه – أو حتى أقل منه- بوصفه أدبيا.

وكنيت كلما قرأت نصا جديدا في هذا الأدب ازدادت إعجابا به، ورغبة في الكتابة عنه، ولاسيما أنني وجدت أن إعجابي ورغبتني يستندان إلى مستوى أدبي رفيع تحلى به هذا الأدب، وقد كبر عزمي على طرق هذا الموضوع بعد أن وجدت في أستاذي المشرف رغبة كبيرة في أن يقوم طلبة الدراسات العليا بدراسة أدب الأئمة(ع) للكشف عن ذلك الأدب وإبرازه أولا، وعن الجوانب المهمشة والمسكوت عنها في ذلك الأدب ثانيا حينما يتم التطرق إليه على عجالة ومن دون توقف فاعل... وازداد شغفي أكثر حينما وجدت- بعد فحص وتفتيش- أن المكتبة العربية تكاد تخلو من دراسة أدبية متخصصة في أدب الإمام الحسين(ع)- على حد علمي- مع أن الأدب الحسيني ينتمي إلى أهم عصور التاريخ العربي الإسلامي، وهو منهل ثر من مناهل العربية، ومنبع أصيل لمعارفها وفنونها، وهو من السعة والتنوع ما يجعل الباب مفتوحا أمام دراسات أدبية متنوعة من حيث الموضوع، ومن حيث المنهج. ولم نجد دراسة أدبية سبقت دراستنا سوى دراسة واحدة انحصرت في الجانب البلاغي في نثر الإمام الحسين(ع) للباحث ميثم قيس مطلق، في كلية التربية/ جامعة القادسية.

وبعد أن تم الاتفاق على دراسة الأدب الحسيني تحت عنوان(أدب الإمام الحسين(ع)- قضاياها الفنية والمعنوية) مع أستاذي المشرف، وبعد أن أقره مجلس قسم اللغة العربية في كلية التربية/جامعة بابل، شرعت أجمع مادته من بطون الكتب الدينية والتاريخية وما يرتبط بهما، والمادة النقدية من مصادرهما ومراجعتها، فواجهتني صعوبة العثور على تحليلات أدبية في صميم المادة المبحوث عنها، وكان المصدر أو المرجع الواحد يستنفد وقتا طويلا في قراءته، ولا أخرج منه إلا بالنزر اليسير من المادة، إن خرجت منه بشيء. وزادت الصعوبة حينما اصطدمت بتردي الوضع الأمني الذي عسر الانتقال بين المحافظات في أثناء جمع المادة، مما جعل الحصول على عدد من المصادر أو المراجع المرادة أمرا غاية في التعقيد.

ولم يثنني هذا التعقيد ولا تلك الصعوبات عن متابعة السير والسرى بحثا عن مادة هذه الدراسة، فاجتمعت لدي مادة تطلب الإمام بجوانبها ودراساتها، السير على وفق منهج وصفي تحليلي، فوزعتها على ثلاثة فصول، كانت حصة الفصل الأول منها هي قضية(النوع الأدبي) عند الإمام الحسين(ع)، التي شغلت- بعد مدخل- أربعة مباحث؛ أولها عن الخطبة، واشتمل على(الخطبة في اللغة والاصطلاح، والمؤهلات الخطابية للإمام الحسين(ع)، والخطبة وأنواعها، وعدد الخطب وأطوالها، والبنية الإسلامية للخطبة، والمخاطبين في خطبه، وتوظيفه لأنواع آخر في خطبه). وثانيها عن الدعاء، وتضمن(الدعاء في اللغة والاصطلاح، والدعاء في القرآن الكريم وفي عُرف أهل البيت(ع)، وأهمية الدعاء وآدابه، وصلته(ع) بالدعاء، وعدد أدعيته

وأطوالها، وأنواع الدعاء، والغاية من دعائه، وبنية الدعاء، وظروف أدعيته، واستجابة الدعاء، والمناجاة). وثالثها عن الرسالة، وتحدثت فيه عن (الرسالة في اللغة والاصطلاح، وأثره (ع) في ازدهار الكتابة، والمؤهلات الكتابية له، وعدد رسائله وأطوالها، وموضوعات رسائله، والبنية الإسلامية للرسالة، وأنواع المرسل إليهم في رسائله، وحاملي رسائله، وتوظيفه لأنواع آخر في رسائله). ورابعها عن الحديث الفني، واحتوى على (الحديث الفني في اللغة والاصطلاح، وأنماط الحديث الفني عنده (ع)، وعدد الأحاديث الفنية وأطوالها، وأنواع الحديث الفني، وأقسام المحدثين في الحديث الفني له، والصورة وبناء الحديث الفني). وختمت كل مبحث بخاتمة. وكان الترتيب على وفق نسبة الشيوع في الأدب الحسيني، من الأكثر إلى الأقل.

وكانت حصة الفصل الثاني قضية (الموضوع)، شغل الموضوع السياسي منه - بعد مدخل للفصل - المبحث الأول، سلطت الضوء فيه على (بيان أحقيته (ع) بالخلافة، والصراع السياسي مع السلطة الأموية، والدعوة إلى الجهاد، وواقعة الطف). وشغل الموضوع الديني المبحث الثاني، انصب الحديث فيه على (توحيد الله (تعالى) وصفاته، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة). وتوجه المبحث الثالث لدراسة الموضوع الاجتماعي، تحدثت فيه عن (قضاء حوائج الناس، واغترابه (ع)). وكانت هناك خاتمة تختتم كل مبحث من تلك المباحث.

وعلى ذلك بقيت قضية التشكيل الجمالي مادة للفصل الثالث الذي انقسم على وفق طبيعة تلك المادة على مدخل ومبحثين؛ أولهما انصب على قضية (التعبير)، تحدثت فيه عن (اللغة والأسلوب) ودرست تحت هذا العنوان (الاستفهام، والنداء، والأمر، والنهي، والحذف، والتقديم والتأخير)، وعن (الاقتباس والتضمين والتناص، والتكرار الدلالي، والطباق والمقابلة السياقية). وثانيهما انصب على قضية (الشاعرية) التي تطلبت مادتها أن تقسم على مدخل ومبحثين، شغلت مادة الإيقاع المحور الأول، ودرست تحت هذا العنوان - بعد مدخل - (السجع، والجناس، والتقسيم، والتكرار). وشغلت مادة الصورة الفنية المحور الثاني، ودرست فيه (الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، والصورة الكنائية، والصورة الافتراضية). وكانت لكل مبحث من تلك المباحث خاتمة مكثفة.

وختم البحث بفصوله الثلاثة بخاتمة أبرزت أهم النتائج التي تم التوصل إليها، وكان من أهمها المزاوجة والممازجة بين الجانبين الإمتاعي والإقناعي، والاهتمام بالسياق وبالتوصيل اهتماما خاصا.

وقد كان التمثيل لكل فكرة أو ملاحظة فنية بشاهد أو أكثر هو الديدن الذي اتبعته في هذا البحث، من دون أن أحل النص تحليلا جبريا يلبسه ما ليس فيه، أو يسلبه ما هو منه وفيه. وكانت لي وقفات عند أهم مفاصل البحث، كثفت من خلالها بيان أثر فروع قضايا البحث المختلفة.

وابتغيت من وراء تلك المداخل التي تفتتح الفصول والمباحث، إضاءة مادة البحث، والكشف عن علاقة الإمام (ع) بتلك الأنواع الأدبية، وموضوعاتها، وسماتها الفنية، والمساعدة في تقديم صورة وافية وتفصيلات شاملة وبيانات لصيقة بالأدب الحسيني ومعانيه.

ومن الملاحظات الحاضرة في ذهن أن قضية الكم والنوع استغرقت-على قلة المساحة التي شغلتها في متن البحث- وقتا طويلا وجهدا مضنيا؛ إذ اقتضت تلك القضية العودة في كل مناسبة إلى أكثر من مئة نص من نصوص الإمام الحسين(ع) المدروسة، قارب عدد منها مئة سطر، فيما جاوز بعضها مئتي سطر. ويأتي هذا الاهتمام لما لقضية الكم والنوع من قدرة على بعث إشارات حيوية فكرية وأدبية، ومحددات جليلة تغني البحث إلى جانب أنها شكّلت علامات مضيئة ترشد البحث، وتسعى إلى تقويمه من الشطط والانحراف في المسير والنتائج.

وربما يتساءل أحدهم عن عدم اشتغال الدراسة على الشعر الذي نقله عدد من المراجع المتأخرة زمنيا، منسوباً إلى الإمام الحسين(ع)، وأقول جواباً على ذلك إن الشك الحاصل في صحة انتساب تلك الأشعار إلى الإمام(ع)، وعدم ورود ذلك الشعر في المصادر الأصول التي استقيت منها مواد الأنواع الأخر، كانا وراء عدم تخصيص مساحة من الدراسة له بعد أن تم الاطلاع من كثب على أساليبه وطرائق تشكيله، وعلى رؤاه المختلفة عن تلك التي لمسناها في الأنواع الأدبية الأخر، والتي عضدت ذلك الشك - كما سنرى- خلال البحث.

وعلى ذلك فإن هدف البحث هو بيان خصائص الأدب الحسيني ودراسة قضاياها الفنية والمعنوية في محاولة لإبراز أدبية أدب الإمام الحسين(ع) من خلال تحديد أنواعه الأدبية وسماته اللفظية والتركييبية والإيقاعية والبيانبة، وتناول موضوعاته لمعرفة طبيعة ما يتميز به من خصوصية في التعامل مع أمور السياسة والدين والاجتماع.

وقبل ختام هذه المقدمة لا بد من وقفة وفاء بحق الأستاذ المساعد الدكتور قيس حمزة الخفاجي، الذي تفضل مشكورا بالإشراف على هذه الرسالة، فأقول: إنني مهما أطلت الكلام وكلت المديح، فلا أظن أنني أوفيه من حقه عشر العشير، ولكن أرجو أن يكون جزاؤه على الله سبحانه وتعالى، وعلى أهل بيت نبيه المصطفى(ص) لما أبداه من تشجيع للإقدام نحو هذا الاتجاه الأدبي المهمش سابقا في الدراسات الأكاديمية، ومن توجيهه في اتجاه مفردات البحث، ومن ملاحظات نقدية تربط الرؤى الحديثة بالحقول الأدبية القديمة.

وأدعو الله أن يتقبل هذا العمل، وأن يجعله مفتاحا جديدا لدراسة نتاج أهل البيت(ع) في المستقبل القريب، وأن يصفح عن القصور الذي قد يكون شاب بعض جوانب هذا الموضوع المتعدد الأطراف، وأن يجعل المتلقين لهذا الجهد يقبلون العذر فيما يبدو لهم من ذلك...إنه سميع مجيب.

الباحث

المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ- ح	المقدمة.
70-1	الفصل الأول: قضية النوع الأدبي.
4-2	مدخل.
23-5	المبحث الأول: الخطبة.
6-5	أولاً- الخطبة في اللغة والاصطلاح.
9-6	ثانياً- المؤهلات الخطابية للإمام الحسين (ع).
14-9	ثالثاً- الخطبة وأنواعها عند الإمام الحسين (ع).
17-14	رابعاً- عدد الخطب عند الإمام الحسين (ع) وأطوالها.
19-17	خامساً- البنية الإسلامية للخطبة عند الإمام الحسين (ع).
21-19	سادساً- المخاطبون في خطب الإمام الحسين (ع).
22-21	سابعاً- توظيف الإمام الحسين (ع) لأنواع آخر في خطبه.
23	خاتمة.
42-24	المبحث الثاني: الدعاء.
24	أولاً= الدعاء في اللغة والاصطلاح.
26-24	ثانياً= الدعاء في القرآن الكريم وفي عُرف أهل البيت (ع).
27-26	ثالثاً= أهمية الدعاء وآدابه.
28-27	رابعاً= صلة الإمام الحسين (ع) بالدعاء.
30-28	خامساً= عدد أدعية الإمام الحسين (ع) وأطوالها.
31-30	سادساً= أنواع الدعاء عند الإمام الحسين (ع).
34-31	سابعاً= الغاية من دعاء الإمام الحسين (ع).
37-34	ثامناً= بنية الدعاء عند الإمام الحسين (ع).
37039	تاسعاً= ظروف أدعية الإمام الحسين (ع).
41-39	عاشراً= استجابة الدعاء.
42-41	حادي عشر: المناجاة عند الإمام الحسين (ع).
42	خاتمة.
62-43	المبحث الثالث: الرسالة.
44-43	أولاً/الرسالة في اللغة والاصطلاح.
46-44	ثانياً/أثر الإمام الحسين (ع) في ازدهار الكتابة.
46	ثالثاً/المؤهلات الكتابية للإمام الحسين (ع).
49-46	رابعاً/عدد رسائل الإمام الحسين (ع) وأطوالها.

53-49	خامسا/موضوعات رسائل الإمام الحسين(ع).
58-53	سادسا/البنية الإسلامية للرسالة عند الإمام الحسين(ع).
59-58	سابعا/ أنواع المرسل إليهم في رسائل الإمام الحسين(ع).
61-59	ثامنا/ حاملو رسائل الإمام الحسين(ع).
61	تاسعا/ توظيف الإمام الحسين(ع) لأنواع آخر في رسائله.
62-61	خاتمة.
70-63	المبحث الرابع: الحديث الفني.
64-63	أولا _ الحديث الفني في اللغة والاصطلاح.
65-64	ثانيا _ أنماط الحديث الفني عند الإمام الحسين(ع).
66-65	ثالثا _ عدد الأحاديث الفنية عند الإمام الحسين(ع) وأطوالها.
67-66	رابعا _ أنواع الحديث الفني عند الإمام الحسين(ع).
68-67	خامسا _ أقسام المحدثين في الحديث الفني للإمام الحسين(ع).
69-68	سادسا= الصورة وبناء الحديث الفني عند الإمام الحسين(ع).
70-69	خاتمة.
160-71	الفصل الثاني: قضية الموضوع.
72	مدخل.
112-73	المبحث الأول: الموضوع السياسي.
78-73	أولا: بيان أحقية الإمام الحسين(ع) بالخلافة.
89-78	ثانيا: الصراع السياسي مع السلطة الأموية.
98-89	ثالثا: الدعوة إلى الجهاد.
112-98	رابعا: واقعة الطف.
112	خاتمة.
139-113	المبحث الثاني: الموضوع الديني.
123-114	أولا). توحيد الله(تعالى) وصفاته.
129-123	ثانيا). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
139-129	ثالثا). الزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة.
139	خاتمة.
160-140	المبحث الثالث: الموضوع الاجتماعي.
149-141	أولا:- قضاء حوائج الناس.
160-149	ثانيا:- اغتراب الإمام الحسين(ع).
160	خاتمة.
237-161	الفصل الثالث: قضية التشكيل الجمالي.
163-162	مدخل.

195-164	المبحث الأول: قضية التعبير.
164	مدخل.
173-164	أ. اللغة والأسلوب.
168-166	(1) - الاستفهام.
169-168	(2) - النداء.
170-169	(3) - الأمر.
171-170	(4) - النهي.
172-171	(5) - الحذف.
173-172	(6) - التقديم والتأخير.
183-173	ب. الاقتباس والتضمن والتناص.
188-183	ت. التكرار الدلالي.
195-188	ث. الطباق والمقابلة السياقية.
195	خاتمة.
242-196	المبحث الثاني: قضية الشاعرية.
197-196	مدخل.
216-198	أولاً/ = الإيقاع.
199-198	مدخل.
204-199	أ. السجع.
209-204	ب. الجناس.
211-209	ج. التقسيم.
215-211	د. التكرار.
216	خاتمة.
237-217	ثانياً/ = الصورة الفنية.
217	مدخل.
224-218	الصورة التشبيهية.
231-224	الصورة الاستعارية.
235-231	الصورة الكنائية.
236-235	الصورة الافتراضية.
237-236	خاتمة.
242-238	الخاتمة.
280-243	المصادر والمراجع
A-B	ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية.

مدخل

يعرّف الجنس الأدبي بأنه "أحد القوالب التي تُصب فيها الآثار الأدبية"⁽¹⁾، وهذه الآثار هي تلك الفنون والأنواع الأدبية التي استحدثها الأدباء، وصوروا ما جادت به قرائحهم من جمال المعاني ومحاسن الألفاظ، كالخطبة والرسالة والمقالة، وما يمكن أن تبدعه عواطف الأدباء ومستلزمات التطور⁽²⁾. وهذا المعنى لا يبتعد عن التصور اللغوي الذي يرى أن الجنس أعم من النوع⁽³⁾. فالجنس عدد من الأنواع المزودة بضرب من إرادة وقصد⁽⁴⁾. وما "يحدد الفنون والأنواع السائدة في مرحلة ما من مراحل التطور الاجتماعي، هو الحاجات العملية والروحية والخبرات التكنيكية والمثل العليا الجمالية والفكرية والعلاقات الاجتماعية في هذه المرحلة"⁽⁵⁾. والنوع الأدبي (مؤسسة) كما أن الجامعة أو الدولة مؤسسة⁽⁶⁾، ونظرية الأنواع مبدأ تنظيمي، فهي لا تصنف الأدب وتاريخه بحسب الزمان والمكان، وإنما بحسب بنية أنواع أدبية متخصصة أو تنظيمها⁽⁷⁾. ومعلوم أن القصد أصل في فكرة النوع⁽⁸⁾، ولذلك فإن كل نوع أدبي "حالة خاصة بطريقة ما، ولو لم يكن كذلك لما استطعنا أن نميزه"⁽⁹⁾. وبناء على ما تقدم أصبح التصور الشامل لقضية⁽¹⁰⁾ الأنواع الأدبية هو أنها زمر من الأعمال الأدبية تقوم نظرياً على كل من شكلها الخارجي (وزن معين أو بنية) وشكلها الداخلي أيضاً (الاتجاه، والجرس، والهدف وبشكل أكثر فجاجة: الموضوع والجمهور)⁽¹¹⁾. ولا شك في أن الفرق كبير في ما بين هذه الأنواع الأدبية من حيث الموقف والبواعث النفسية، وما يترتب على ذلك من تخيير للمعاني، ومن طرائق للصوغ⁽¹²⁾. ويبدو أن درجة التمييز وقوته بين منشئ النص والمتلقي مختلفة في الأنواع الأدبية، ولا سيما الحديث منها، فالأنواع فيما يتعلق بالقراء، أنساق من الأعراف والتوقعات، فبمعرفة ما إذا كنا نقرأ هذا النوع أو ذاك، نحتاط لأشياء مختلفة ونقوم

(1) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس: 141.

(2) ينظر: دراسات في النقد الأدبي، رشيد العبيدي: 31 / 2، والأنواع الأدبية، شفيق البقاعي: 255.

(3) ينظر: مختار الصحاح، الرازي: مادة (ج ن س).

(4) ينظر: القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكر و جان ماري سشايفر، تر: منذر عياشي: 6.

(5) مقدمة في نظرية الأدب، عبد المنعم تليمة: 123.

(6) ينظر: نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، تر: محيي الدين صبحي: 295.

(7) ينظر: م. ن: 296.

(8) ينظر: م. ن: 296.

(9) مقالة في النقد، غراهام هو، تر: محيي الدين صبحي: 136.

(1) من تعريفات القضية أنها "مسألة تتركز في ذهن الفنان والأديب ويلتزم بالسعي لتحقيقها بجهاذه المتواصل من خلال الآثار التي ينتجها". المعجم الأدبي، جبر عبد النور: 214.

(2) ينظر: نظرية الأدب: 303، والفن والأدب، د. ميشال عاصي: 81.

(3) ينظر: النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال: 175.

بافتراضات عما سيكون له مغزاه، فحينما نقرأ خطبة للإمام الحسين (ع)⁽¹⁾، نبحث عن مشعرات بطريقة لا نفعلها عند قراءتنا لأحد الأدعية لديه⁽²⁾، ولا سيما أن (القصدية) التي هي أساس النوع كانت متوافرة في أدب الإمام الحسين (ع)، فأشكال النصوص ومضامينها وأساليبها، اختلفت تبعاً لاختلاف النوع الأدبي، كاختلاف الخطب عن الرسائل، والرسائل عن الدعاء، والدعاء عن الأحاديث الفنية،... وبحسب الأشكال والموضوعات أو بحسب البنية والدلالة.

ومهما تعددت الأنواع الأدبية، يبقى الملمح البارز في تلك الأنواع جميعها، اعتمادها اللغة الأدبية في بناء نصوصها، تلك اللغة التي تختلف عن اللغة المألوفة باهتمامها على قوى بثها المؤلف عن دراية وعمد، مبنية على أسس ذوقية جمالية وأخرى نفسية؛ وهذه القوى لا تستعمل في الكلام العادي إلا عفواً⁽³⁾.

وفي العصر الحديث صار عدد من النقاد ينظرون إلى النص الأدبي على أنه خطاب "تغلّبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام"⁽⁴⁾، وإلى الوظيفة الشعرية على أنها لا تقتصر على الشعر وحده بل تتجاوزه إلى الأنواع الأدبية بكلياتها أو أجزائها⁽⁵⁾، وقد دفعني ذلك إلى العناية ببحث الأنواع الأدبية عند الإمام الحسين (ع) ودراستها، على غرار ما فعله النقاد، وإن كان بدوافع أخرى، حينما بحثوا فيها ودرسوها وبينوا ما مرت به من أحداث وأطوار⁽⁶⁾.

ولا شك في أن البحث في قضية الأنواع الأدبية التي يشتمل عليها أدب الإمام الحسين (ع)، يكشف عن حضورها المميز والجوهري، ولا سيما في الواقع الإسلامي أدبياً ودينياً.

(4) هو الحسين بن علي بن أبي طالب (ع)، وأمه فاطمة بنت خاتم النبيين محمد (ص)، ويكنى بأبي عبدالله، ولد سنة أربع من الهجرة، وقتل في كربلاء سنة إحدى وستين. ينظر: عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي الحسيني المعروف بابن عنبه: 7.

(5) ينظر عن مثل ذلك في قراءة القصة البوليسية، والقصيدة الغنائية والتراجيديا، مثلاً: النظرية الأدبية، جوناثان كالر، تر: رشاد عبد القادر: 89.

(1) ينظر: قواعد النقد الأدبي، لاسل أبركرومبي، تر: محمد عوض محمد: 37.

(2) الأسلوبية والأسلوب، د. عبد السلام المسدي: 88.

(3) ينظر: قضايا الشعرية، رومان جاكسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون: 27-28، وشعرية النثر في صدر الإسلام، د. عباس محمد رضا: 98، 109.

(4) ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف: 15.

المبحث الأول

الخطبة

أولاً- الخطبة في اللغة والاصطلاح: الخطبة مصدر الخطيب، وخطبَ الخطيبُ على المنبر، واختطب يخطب خطابة، والخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجّع⁽¹⁾. والخطابة: "فن التعبير عن الأشياء بحيث إنّ السامعين يُصغون إلى ما يقوله المتكلم في موقف رسمي مختلف عن المجالس المألوفة في الحياة اليومية، وهي تشد عادة الرابط بين أذهان السامعين وقلوبهم من جهة، والأفكار التي تتناهى إليهم من جهة أخرى"⁽²⁾، ولما كانت الخطابة هي فن الإقناع والاستمالة من حيث إنّ الخطيب يخاطب العقل والعاطفة؛ لذلك لا يطلق تعبير (الخطيب الماهر) إلا على من يستطيع أن يتحدث بهذين العنصرين معاً⁽³⁾.

وللخطابة متطلبات جلاها الجاحظ (ت 255هـ) في قوله: "رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيير الألفاظ"⁽⁴⁾.

ومعلوم أنّ "الخطابة صنو الشعر، وأحد فرعين أساسيين من فروع الأدب العربي القديم، وكانا فرسي رهان، يتعاوران السبق، ويتبادلان النفوذ"⁽⁵⁾؛ ولذا توافرت الخطابة على أنجع الوسائل لتحقيق غايات رجال الدين والسياسة والثوار، فالتاريخ يشهد أن الخطابة سارت منذ أقدم العصور في ركاب الثورات والنهضات، وأنها كانت سلاحاً ماضياً في الدعوات، والأحداث الكبار⁽⁶⁾.

وقد تعددت الوظائف المهمة للخطابة، "وحسبك منها أنها الوسيلة التي اتخذها الأنبياء (عليهم السلام) لتبليغ الرسالة، وكيفيك منها أنها الذريعة الكبرى التي تمكنوا بها من قلوب الخاصة والعامة"⁽⁷⁾.

من هنا، نجد أن الوظيفة الإفهامية للخطب تنصدر وظائفها الأخرى في التشديد عليها وإبرازها، فهذه "الوظيفة تعد المميز الأساس للخطب بشتى أشكالها وأصنافها، فهي الوظيفة المهيمنة على باقي الوظائف التي تشكل هيكلية خطبة ما. إذ إن الخطبة تستهدف التأثير في الآخر، أي في المرسل إليه، وما دامت تستهدف ذلك فإنها تستدعي الوظيفة المرتبطة بالمخاطب"⁽⁸⁾، وبالمحصلة فإن الخطبة أطوع الأنواع

(1) ينظر: لسان العرب، ابن منظور: مادة (خ ط ب)، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي: مادة (خ ط ب).

(2) المعجم الأدبي، جبور عبد النور: 103.

(3) ينظر: التوجيه الأدبي، طه حسين وآخرون: 25، ومقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر: 143.

(4) البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون: 44/1.

(5) الخطابة في صدر الإسلام، محمود طاهر درويش: المقدمة.

(6) ينظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين، صلاح الدين الهادي: 165.

(7) ذكرى الحسين، حبيب آل إبراهيم: 124/8، نقلاً عن: خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة، لبيب بيضون: 58/1.

(8) وظائف اللغة عند رومان جاكسون، أعبو أبو إسماعيل: 104.

الأدبية في التوصيل، ولا سيما أن مهمة الباحث الإسلامي هي توصيل المعرفة للآخرين⁽¹⁾.

ثانيا- المؤهلات الخطابية له (ع): تحلى الإمام (ع) بسمات الخطابة الفطرية؛ زيادة على أنه كان جميل الوجه يشبه وجه جده المصطفى (ص)⁽²⁾. فقد "أوتي ملكة الخطاب من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء"⁽³⁾، وانماز بالفصاحة والبلاغة؛ حتى وُصف بالقول: "كانت الفصاحة لدُّنه خاضعة والبلاغة لأمره سامعة طائعة"⁽⁴⁾. ولا غرو، فقد ورث الإمام الحسين (ع) عن أبيه علي بن أبي طالب (ع) فصاحة اللسان والبراعة الخطابية⁽⁵⁾. وتميز (ع) بجهارة صوته، قال الطبري (ت310هـ): "ثم نادى بأعلى صوته دعاء يُسمع جلَّ الناس"⁽⁶⁾، وجهارة الصوت من أخطر أدوات الخطيب، إذ "كانوا يمدحون الجهير الصوت ويذمون الضئيل الصوت"⁽⁷⁾، وقيل إنه "مما يزيد في حسن الخطابة وجلالة موقفها جهارة الصوت، فإنه من أحد أوصاف الخطباء"⁽⁸⁾. وربما كانت جهارة الصوت سببا في نصر بعد انكسار⁽⁹⁾. وعلى ذلك فإن الخطيب لا يؤثر في المستمعين إذا فقد هذه الصفة، وإن الموعوظ قد يقنع بصوت الواعظ قبل أن يقنع بمنطق كلامه⁽¹⁰⁾.

وقد كان الحسين (ع) رابط الجأش ثابت الجنان، حتى إن خطاباته زادت رقيا عند اصطكاك الأسنة في ساحة الوغى واستشهاد جل أهل بيته وأصحابه. جاء عن بعض أهل السير وأرباب المقاتل: "فو الله ما رأيت مكسورا قط قد قُتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا ولا أجراً مقدما منه"⁽¹¹⁾. ورباطة الجأش تمثل اجتماع آلة البلاغة عند الخطيب المفوه المصقع⁽¹²⁾.

(1) ينظر: الإسلام والأدب، د.محمود البستاني: 29.

(2) ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تح: محمد باقر المحمودي: 30.

(3) الحسين أبو الشهداء، عباس محمود العقاد: 55.

(4) مطالب السؤول، كمال الدين بن طلعة الشافعي، تح: ماجد أحمد عطية: 65/1.

(5) ينظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص: 275.

(6) تاريخ الطبري، الطبري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: 424/5، وينظر: الإرشاد، المفيد: 339، ومقتل الحسين، المقرم: 236.

(7) البيان والتبيين: 120/1.

(8) البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي: 211.

(9) ينظر: البيان والتبيين: 123/1، والكامل في اللغة والأدب، المبرد، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم: 208.

(10) علم النفس الديني، رشاد علي عبد العزيز: 264.

(11) تاريخ الطبري: 452/5، وينظر: مقتل الحسين، المقرم: 288. و(مكسورا) في بعض المصادر (مكثورا) كما في: الملهوف على قتلى الطفوف، ابن طاووس: 170، على سبيل المثال.

(12) ينظر: عيون الأخبار، ابن قتيبة، شرحه وضبطه وعلق عليه ورتب فهارسه: ديوسف الطويل: 189/2، وكتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تح: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: 21، وزهر الآداب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم الدكتور زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد: 145/1.

والمتتبع لمناسبات خطبه(ع) يجد أن الارتجال هو الطابع العام في خطبه؛ لأنه كان حاضر البديهة، تمده قريحة ثرية ولغة طيعة؛ لذلك فإن ارتجاليته لم تحل دون التعمق بالمعنى، والغوص في فنون الكلام. ومن المعروف أن إعداد الخطبة سلفاً ليس من شأن الخطابة؛ لأن الارتجال أصل الخطابة⁽¹⁾.

وفي الوقت الذي تكاملت لدى الحسين(ع) السمات الفطرية للخطابة، أتقن- كذلك- أدوات صنعة الخطابة المكتسبة، ومنها حسن هيأته وجمال هندامه⁽²⁾. فقد خطب(ع) في(إزار) و(رداء) و(نعلين)، وخطب راجلاً وراكباً، متكئاً على قائم سيفه⁽³⁾؛ والاتكاء على قائم السيف دليل على التأهب للخطابة، وربما التهيؤ للإطناب والإطالة⁽⁴⁾.

ولهيأة الخطيب عند الخطابة- زيادة على أنها سنة نبوية والإمام أحق باتّباعها- الأثر الفاعل في نفوس المخاطبين؛ فيجذب انتباه القاصي والداني؛ ويهابه المخالف والمؤلف، فإن المنظر الحسن للخطيب "خليق بأن يجعل الأنظار تتعلق به، وبأن يملأ قلوب الناس هيبة وتوقيراً له"⁽⁵⁾.

وقد خطب الإمام(ع) على منبر أو من دونه اضطراراً، أو على مكان مرتفع؛ فقد اختار عندما وصل إلى كربلاء، أعلى مكان ليكون مقراً له ولأصحابه⁽⁶⁾. وذلك كله وسائل مساعدة لتوصيل خطبه.

ومن المناسب الإشارة إلى أن الإمام(ع) جهد في توصيل الموعظة وإبلاغ الحجة إلى أعدائه من خلال إغناء خطاباته بوحدات تواصلية لغوية وتدعيمها بأخرى تواصلية غير لغوية⁽⁷⁾، لأجل أن تتضافر كلتا الوجدتين لتعمل في سياق اجتماعي كبير؛ إذ اعتم بعمامة جدّه(ص) واسمها(السحاب)، وتقلد سيفه واسمه(البّثار)، ولبس درعه، واعتلى جواده⁽⁸⁾، ثم خاطب أعداءه وهو على تلك الهيئة، فسألهم عن أشياء رسول الله(ص) التي عليه، فأجابوه بالتصديق⁽⁹⁾.

وقد فعل(ع) كل ذلك لمعرفته أن "الإنسان خلق حسياً أكثر منه عقلياً، يتفاعل مع حسه أكثر مما يتفاعل مع عقله"⁽¹⁰⁾، وأن "الخطيب لا يؤثر في المجتمع عن طريق الأفكار فحسب، وإنما يؤثر أيضاً في حاستي السمع والبصر"⁽¹¹⁾. وبهذا زواج بين

- (1) ينظر: مقدمة في النقد الأدبي: 144.
- (2) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: 153- 154، وليلة عاشوراء في الحديث والأدب، عبد الله الحسن: 27- 28.
- (3) ينظر: تاريخ الطبري: 40/5، ومقتل الحسين، الخوارزمي، تح: محمد السماوي: 330/1، والإمام الحسين كما رأيته، ناصر الكرمي: 463.
- (4) ينظر: البيان والتبيين: 62/3، 117.
- (5) الخطابة العربية في عصرها الذهبي: 249، وينظر: المنطق، محمد رضا المظفر: 360.
- (6) ينظر: الإمام الحسين كما رأيته: 463.
- (7) للتوسع في معرفة الوحدات التواصلية اللغوية وغير اللغوية وأثرها في التوصيل، ينظر: مدخل إلى علم النص، زتسيسلاف واورزتيك: 38- 39، واللغة في عملية الاتصال الجماهيري، هادي نعمان الهيتي: 8.
- (8) ينظر: وسيلة الدارين في أنصار الحسين، إبراهيم الزنجاني: 45، وموسوعة كربلاء، ليبي بيضون: 524/1.
- (9) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: 147. ويبدو أن حاجيات الرسول(ص) كانت مشهورة بين الناس، ينظر: حياة الحيوان الكبرى، الدميري: 54/1.
- (10) أهل البيت تنوع أدوار ووحدة الهدف، السيد محمد باقر الصدر: 46.
- (11) الخطابة العربية في عصرها الذهبي: 253، وينظر: عبد القادر الكيلاني أديباً(رسالة ماجستير)، إيمان كمال مصطفى المهداوي: 92.

القناة الصوتية والقناة البصرية لتعميق دلالة خطبه وتوصيلها، فـ"الممارسة التواصلية منبثقة في سياق العالم المعيش المحدد بواسطة التقاليد الثقافية والتنظيمات المشروعة والأفراد الذين خضعوا للتنشئة الاجتماعية"⁽¹⁾. وكل ذلك يعد محاولة لشحن مخيلتهم وعقولهم؛ كي تتمثل لهم هيئة جدّه المصطفى (ص)، بشخصه (ع)، علمهم يتوبوا أو يرجعوا. وليس ذلك فقط، فقد تأثرت خطبه بجرأته، وبشمولية أفكاره. إن ذلك كله قد توافر في خطب الإمام (ع)؛ حتى صار عدد من الخطباء يمتاحون من كلمات خطبه، ولا سيما عندما يمرون بمحنة أو بمخاض عسير يرددونها بالمعنى ذاته مرة، وأخرى باللفظ ذاته⁽²⁾.

ثالثا- الخطبة وأنواعها عنده (ع): تبوأ خطب الإمام (ع) المساحة الأوسع في نتاجه الأدبي، إذ مارس الخطابة في مراحل مبكرة من حياته، وتجلّى ذلك في الحقبة الرسمية لخلافة أبيه علي بن أبي طالب (ع)، التي شهدت عددا من خطبه؛ من ذلك خطبته التي حثّ الناس من خلالها على السير مع أبيه أمير المؤمنين لحرب معاوية في معركة صفين، إذ قال: "يا أهل الكوفة، أنتم الأحبة الكرماء، والشّعار دون الدثار، جدّوا في إطفاء ما وتر بينكم، وتسهيل ما توعر عليكم، ألا إنّ الحرب شرها وريع، وطعمها فظيع، فمن أخذ لها أهبتها، واستعد لها عدتها، ولم يألم كلومها، قبل حلولها، فذاك صاحبها، ومن عاجلها قبل أوان فرصتها، واستبصار سعيه فيها، فذاك قمن أن لا ينفع قومه، وأن يهلك نفسه، نسأل الله بقوته أن يدعمكم بالفيئة"⁽³⁾.

ثم تابع (ع) خطبه في زمن حكم معاوية بن أبي سفيان، فقد أثر عنه عدة خطب في تلك الحقبة، نبّه المسلمين من خلالها على انعطاف الإسلام عن نهجه الأول بعدما أقصي أهل البيت (ع) عن حقوقهم الشرعية في الحكم. ومنها خطبته التي ناشد فيها جمهورا عظيما- ضم عددا من أصحاب رسول الله (ص) والتابعين في مكة- جاء فيها: "أتعلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: ((أنا سيد ولد آدم، وأخي علي سيد العرب، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وإبناي الحسن والحسين سيّد شباب أهل الجنة))؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أمره بغسله وأخبره أن جبرئيل يعينه عليه؟ قالوا: اللهم نعم"⁽⁴⁾.

ولعل النص المتقدم يكشف إحدى مهارات الإمام الحسين (ع) التوصيلية مع الجمهور، إذ إن فحص الاستجابة المبكرة والمتكررة في المتلقين وضمان إيجابيتها من خلال طرح الأسئلة عليهم وتلقي إجاباتهم- ولا سيما في التوصيل طويل الأمد- هو ما سعى إليه، فقد جعل للاتصال القائم اتجاهين متعاكسين يعملان على وفق قاعدة

(1) المطابقة والاختلاف، د. عبد الله إبراهيم: 674.

(2) ينظر: البيان والتبيين: 141/2، ولفتة الكبد إلى نصيحة الولد، ابن الجوزي: 43.

(3) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم: 186/3، وينظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت: 325/1. وقمن: أي جدير، والفيء: الغنيمة. ينظر: كتاب العين، الخليل أحمد الفراهيدي، تح: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي: مادة (ق م ن)، ومادة (ف ي ع).

(4) كتاب سليم بن قيس الهلالي، سليم بن قيس الهلالي (ت 76هـ)، تح: محمد باقر الأنصاري: 792/2، وينظر: الاحتجاج، الطبرسي: 189/2.

الفعل ورد الفعل، فالمستقبل يقوم بدور المتلقي للخطاب أولاً، وبمجرد أن تصله التغذية الراجعة يتحول إلى مرسل؛ وهذه العملية مهمة لإشعار المرسل أن خطابه قد أدى غرضه لدى المستقبل. ومهما يكن فقد حقق (ع) استجابة واسعة من جمهور حاشد، ولا غرو فـ"إن العمل الفني حين يمس جوهر الإنسان يشرك أكبر عدد من الناس في الاستجابة للأثر الفني"⁽¹⁾.

وحين أدرك (ع) مطلع حكم يزيد بن معاوية، ازدهر نتاجه الخطابي كمّاً ونوعاً، ويتبين ذلك من خلال خطبه (ع) التي ألقاها قبيل واقعة الطف، ولما وقعت معركة الطف، حيل فيها بينه وبين لسانه الثر. ومن خطبه في هذه الواقعة، ما ورد عنه، وهو يحاكم جيش يزيد: "أما بعد، فانسبونني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا؛ هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألسنت ابن بنت نبيكم (صلى الله عليه وسلم) وابن وصيه وابن عمه، وأول المصدقين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه! أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي! أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي!"⁽²⁾.

وقد انمازت خطبه (ع) باهتمامها على موضوعات مختلفة، وتنوع موضوعات الخطب يؤدي إلى تعدد أنواعها⁽³⁾؛ ولذلك كانت خطبه على ثلاثة أنواع: الخطابة السياسية، والخطابة الدينية، والخطابة الاجتماعية.

والفصل بين هذه الأنواع الخطابية أمر عسير، ولا يحصل إلا في القليل منها؛ لوفرة نقاط التلاقي بين أنواعها، وتصدرت تلك النقاط، طاعة الله (سبحانه) في استرجاع حق الخلافة إلى صاحبه الشرعي المتمثل بشخصه (ع)، وقد صرح (ع) بذلك مراراً، فقد نقل أبو مخنف (ت 158 هـ) قوله في إحدى خطبه: "أما بعد، أيها الناس! فإنكم إن تتقوا، وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدّعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان"⁽⁴⁾.

ومن أجل الممايزة بين أنواع خطبه (ع) اعتمدنا غايات الخطب، ومساحة كل نوع في الخطبة الواحدة أساسين لتصنيف الخطب، فظهرت لنا الأنواع الآتية:

أ) **الخطبة السياسية:** إن موقع الإمامة الذي شغله (ع) تطلب أكثر من نوع لخطبه التي ألقاها في موضوعات متعددة؛ فتصدرت الخطب السياسية مجمل نتاجه الخطابي؛ لأن نهاية العصر الراشدي وبداية العصر الأموي كانتا أكثر العصور الإسلامية اضطراباً⁽⁵⁾.

(1) النصوص الأدبية، جامعة قطر: 23.

(2) تاريخ الطبري: 424/5-425، وينظر: منتهى الآمال، عباس القمي: 484/1-485.

(3) ينظر: في الأدب وفنونه، علي بو ملحم: 136.

(4) وقعة الطف، أبو مخنف، تح: محمد هادي اليوسفي الغروي: 170، وينظر: تاريخ الطبري: 402/5، والإرشاد: 327، وجمهرة خطب العرب: 46/2، ومقتل أبي عبد الله الحسين (ع)، زهير علي الحكيم: 343-344.

(5) ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان: 200/1، وتاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف: 140، الفن ومذاهبه في النثر العربي: 63، وتاريخ الأدب العربي- العصر الأموي، د. قصي الحسين: 12.

وهذه الحقبة الزمنية هي الأهم في حياة الإمام(ع) والأهم في تاريخ الإسلام السياسي أيضا(1).

وفي الجانب السياسي كان الحسين(ع) يطلب الفرصة السانحة لاستنهاض المسلمين وإيقاظهم، وتحذيرهم من إمارة يزيد بن معاوية؛ فقد رويت خطبته(ع) في منى قبيل وفاة معاوية بن أبي سفيان؛ إذ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد، فإن هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيئنا ما رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإني أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقت فصدقوني، وإن كذبت فكذبوني. أسألكم بحق الله عليكم وبحق رسول الله وحق قرابتي من نبيكم، لما سيرتم مقامي هذا ووصفتكم مقالتي ودعوتكم أجمعين في أنصاركم من قبائلكم من آمنتم من الناس ووثقتكم به، فادعوهم إلى ما تعلمون من حقا فإني أخوف أن يدرس هذا الأمر ويذهب الحق ويغلب ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾"(2).

وعلق الطبرسي(ت580هـ) على هذه الخطبة قائلا: "فما ترك الحسين(ع) شيئا أنزل الله فيهم من القرآن إلا قاله وفسره ولا شيئا قاله الرسول(ص) في أبيه وأمه وأهل بيته إلا رواه"(3).

والملاحظ في هذه الخطبة أنها قد سارت على وفق سياق اجتماعي ثقافي، إذ حرص(ع) على انتقاء الزمان والمكان وانتخاب المشاركين ونوع النص، لمواجهة تغيير الأحداث وبث دعواه بغية توصيلها إلى المتلقين(4).

ب) الخطبة الدينية: جاءت الخطب الدينية بعد الخطب السياسية من حيث مساحتها في خطب الإمام(ع) فهي تمثل إحدى أدوات الإمامة في إصلاح المجتمع، وللخطابة "الحظ الأوفر من أمر الدين؛ لأن الخطبة شطر الصلاة التي هي عماد الدين في الأعياد والجمعات والجماعات، وتشتمل على ذكر المواعظ التي يجب أن يتعهد بها الإمام رعيته لئلا تدرس من قلوبهم آثار ما أنزل الله عز وجل من ذلك في كتابه، إلى غير ذلك من منافع الخطب"(5).

ومن خلال الخطب الدينية، دعا الإمام(ع) الناس إلى التقوى والورع وصيانة الدين من الأفكار المنحرفة عن تعاليم السماء، من ذلك ما جاء في إحدى خطبه، إذ قال: "أيها الناس اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم، يظاهون قول الذين كفروا من أهل الكتاب، بل هو الله ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير"(6)، ثم قال: "استخلص

(1) حياة الإمام الحسين(ع)، باقر شريف القرشي: 14/1.

(2) كتاب سليم بن قيس: 789/2، وروي في(788/2) أنه قبل موت معاوية بسنة حج الحسين(ع)، فجمع بني هاشم ومواليهم، ومن الأنصار ممن يعرفه الحسين وأهل بيته(ع)، ثم أرسل رسلا تدعو من حج ذلك العام من أصحاب رسول الله(ص) المعروفين بالصالح والنسك أن يجتمعوا عنده، فاجتمع إليه بمنى أكثر من سبع مئة رجل، عامتهم من التابعين، ونحوها مائتي رجل من أصحاب النبي(ص)، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين(ع)، مصطفى محسن آل اعتماد: 50-56، والنص القرآني في: الصف/من8.

(3) الاحتجاج: 189/2.

(4) للاطلاع على أثر الزمان والمكان وانتقاء المتلقين والنص، في التوصيل، ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل: 236، وعلم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي إبراهيم الفقي: 109/1، والنظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي: 12.

(5) كتاب الصناعتين: 136.

(6) تحف العقول، ابن شعبة الحراني، قدم له وعلق عليه: حسن الأعلمي: 173-174.

الوحدانية والجبروت، وأمضى المشيئة والإرادة والقدرة والعلم بما هو كائن، لا منازع له في أمره ولا كفو له يعادله ولا ضد له ينازعه، ولا سمي له يشابهه، ولا مثل له يشاكله، لا تتداوله الأمور، ولا تجري عليه الأحوال، ولا تنزل عليه الأحداث، ولا يقدر الواصفون كُنه عظمته، ولا يخطر على القلوب مبلغ جبروته؛ لأنه ليس له في الأشياء عدل، ولا تدركه العلماء بألبابها، ولا أهل التفكير بتفكيرهم إلا بالتحقيق إيقانا بالغيب⁽¹⁾.

ج) الخطبة الاجتماعية: كان الحيز الأصغر في خطب الإمام(ع) من نصيب الخطب الاجتماعية⁽²⁾، ويبدو أن تضمن النوعين الأولين من الخطب(السياسية والدينية) لكثير من موضوعات الخطبة الاجتماعية حال دون كثرتها.

ورد عنه(ع) في إحدى خطبه الاجتماعية مؤبنا أخاه الحسن(ع)، معددا مناقبه وسجايه: "رحمك الله أبا محمد! إن كنت لتباصر الحق مظانه، وتوثر الله عند تداحض الباطل في مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معازم الدنيا بعين لها حاقرة، وتقبض عليها يدا ظاهرة الأطراف نقية الأسرة، وتردع بادرة غرب أعدائك بأيسر المؤونة عليك ولا غرو وأنت ابن سلاله النبوة ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة نعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الأسى عنه"⁽³⁾.

رابعاً- عدد الخطب عنده(ع) وأطوالها: من خلال متابعة الجانب الإحصائي للخطب نجد أن عدد خطب الإمام(ع) بلغ إحدى وثلاثين خطبة تقريبا⁽⁴⁾. كان عدد الخطب القصيرة منها اثنتي عشرة خطبة، وعدد الخطب المتوسطة ثمانى خطب وعدد الخطب الطويلة إحدى عشرة خطبة.

وقد افترضنا مقياس طول لهذه الأنواع يتناسب- أو يكاد- مع واقع الخطب؛ فالخطب القصيرة يتراوح عدد الأسطر فيها من سطرين إلى سبعة أسطر. ومن خطبه(ع) القصيرة خطبته حين أمره أبوه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) بذلك، غداة توليه أمر الخلافة رسمياً، لكي لا يجهله أحد من قريش بعد ذلك اليوم؛ وهذه إشارة صريحة لمنزلة الحسين(ع)، إذ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه(ص) صلاة موجزة، ثم قال: "معاشر الناس! سمعت جدّي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يقول: ((إن علياً هو مدينة هدى فمن دخلها نجا، ومن تخلف عنها هلك))"⁽⁵⁾.

(1) تحف العقول: 174.

(2) وتسمى أيضاً بالخطب الحقلية، ينظر: الفن ومذاهبه في النثر الأدبي: 67.

(3) عيون الأخبار: 338/2- 339، وينظر: جمهرة خطب العرب: 139/2. و(تقيض) في الأصل: (تقيض).

(4) إن المؤلفات أو المراجع الحديثة التي جهدت في جمع نصوص الإمام الحسين(ع) الميثوقة بين طيات المصادر الأصول، اختلفت في عدد هذه النصوص؛ لتباين الغاية من تأليفها، وأهم هذه المراجع: أ. جمهرة خطب العرب. ب. لمعة من بلاغة الحسين. ت. خطب الإمام الحسين على طريق الشهادة. ث. أدب الحسين وحماسه، أحمد صابر الهمداني. ج. ليلة عاشوراء في الحديث والأدب. ح. بلاغة الإمام الحسين بن علي(ع)، حسين أبو سعيد الموسوي. خ. موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع)، معهد تحقيقات باقر العلوم(ع).

(5) التوحيد، الشيخ الصدوق، صححه وعلق عليه المحقق: هاشم الحسيني: 300.

وانحصر عدد الأسطر في الخطب متوسطة الطول بين ثمانية أسطر وخمسة عشر سطرا. ومن خطبه (ع) متوسطة الطول تلك الخطبة التي خطبها بحضور معاوية بن أبي سفيان، إذ صعد الحسين (ع) المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص)، فسمع رجلا يقول من هذا الذي يخطب؟ فقال (ع): "نحن حزب الله الغالبون، وعثرة رسول الله (ص) الأقربون، وأهل بيته الطيبون، وأحد الثقلين اللذين جعلنا رسول الله (ص) ثاني كتاب الله تبارك وتعالى الذي فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمعول علينا في تفسيره لا يبطئنا تأويله بل نتبع حقائقه فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عز وجل: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وقال: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾، وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنه لكم عدو مبين فتكونوا كأولياته الذين قال لهم: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ ﴾ فتلقون للسيوف ضربا وللمراح وردا وللعمد حطما وللسهام غرضا: ثم لا يقبل من نفس ﴿ إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَلْتُ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾" (1).

وكان عدد أسطر الخطب الطويلة ينحصر بين ستة عشر سطرا إلى ثمانية وخمسين سطرا. ومن خطبه (ع) الطويلة خطبته التي وجهها إلى معاوية وأصحابه في المدينة، بعدما فرغ معاوية من خطبته التي دعا فيها إلىبيعة ابنه يزيد، فحمد الله وصلى على الرسول (ص) ثم قال: "أما بعد يا معاوية، فلن يؤدي القائل، وإن أظن في صفة الرسول (ص) من جميع جزءا، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله (ص) من إيجاز الصفة والتكبر عن استبلاغ النعت، وهيئات هيهات يا معاوية: فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظّه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرته عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوبا، أو تنعت غائبا، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص وقد دلّ يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقراره الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابه، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصرا، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فو الله ما برحت تقدر باطلا في جور، وحققا في ظلم حتى ملأت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل محفوظ، في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت بنا بعد هذا الأمر، منعنا عن آباءنا تراثا، ولقد - لعمر الله - أورثنا الرسول (عليه الصلاة والسلام) ولادة وجئت لنا بها، أما حججتم بها القائم عند موت الرسول، فأذعن

(1) الاحتجاج: 191/2، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين (ع) 14-15، والنصوص القرآنية في: النساء/ من 59، ومن 83، والأنفال/ من 48، والأنعام/ من 158 على التوالي.

للحجة بذلك، ورده الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار[...]"⁽¹⁾.

ومن يطلع على مناسبات خطب الإمام(ع) يلمس بوضوح أنه لم يطل التماسا للطول، ولا حبا في إظهار القدرة على الكثير، ولكن المعاني إذا كثرت، والوجوه إذا تعددت، زاد اللفظ وإن طبع الخطيب على الإيجاز، بمعنى أن السياق هو الذي يحدد نسبة الاقتصاد اللغوي للنص، فلذا تفاوتت خطبه بأطوالها. وهذه النتيجة التي تم التوصل إليها تكشف عن عدم صحة إطلاق القول بأن الإطالة إنما تليق بالأئمة والرؤساء ومن يقتدي بهم ويأخذ عنهم⁽²⁾. وهذا الطول الذي تمثل في الأغلب في خطبه السياسية "اقتضاه استيعاب الخطوط الكثيرة التي كانت ترمي إليها"⁽³⁾، وأما ما لم يكن منها طويلا فإنه غالبا ما كان يدور حول وجه واحد أو موضوع واحد.

خامسا- البنية الإسلامية للخطبة عند الإمام الحسين(ع): إن الإمام(ع)، في خطبه التي شهدتها بلدان كثيرة، أشهرها: المدينة، ومكة، والكوفة، وكربلاء التي شهدت آخرها وأشهرها، راعى البناء الفني الإسلامي للخطب، من حيث إن البناء هو علائق معينة، وهو "فن التماسك والترابط"⁽⁴⁾، ولذا افتتح خطبه بالحمد والتمجيد. جاء في إحدى خطبه، مخاطبا أنصاره: "أثني على الله تبارك وتعالى أحسن الثناء، وأحمده على السراء والضراء، اللهم إني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، ولم تجعلنا من المشركين"⁽⁵⁾. وذلك الافتتاح مما يزين الخطب عند مستمعيها، ويعظم الفائدة فيها ويعمق التواصل ويمتد بين الباث والمتقبل، لذلك كانوا يُسمون كل خطبة لا يذكر فيها التحميد بـ(البترء)⁽⁶⁾.

والمقدمة أو الافتتاحية أحد أسباب نجاح الخطبة فهي "تفتح السبيل لما يتلو"⁽⁷⁾، والغرض منها تنبيه المخاطبين على الخطبة وترغيبهم في الاستماع⁽⁸⁾، والمهم أن يكون الافتتاح مرتبطا مع الخطبة ببراعة الاستهلال، فإن "براعة الاستهلال من أخص أسباب النجاح في الخطبة"⁽⁹⁾، ولا يتم النجاح إلا بشد عناية المتلقي للخطبة، فـ"من شأن الاستهلال الجيد أن يبقي وظيفة المتلقي قائمة إلى أقصاها"⁽¹⁰⁾. جاء في إحدى خطبه(ع) بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس معذرة إليكم أقدمها إلى

(1) الإمامة والسياسة، ابن قتيبة، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور: 150/1-151، وينظر: جمهرة خطب العرب: 255/2، والخطابة في صدر الإسلام: 111/2.

(2) ينظر: البرهان في وجوه البيان: 204.

(3) الأدب في ظل التشيع، عبد الله نعمة: 118.

(4) شعرية النثر في صدر الإسلام: 108.

(5) تاريخ الطبري: 418/5، وينظر: مقتل أبي عبد الله الحسين: 403/1.

(6) ينظر: البيان والتبيين: 6/2، وعيون الأخبار: 251/2، والبرهان في وجوه البيان: 194.

(7) الخطابة، أرسطو: 130.

(8) ينظر: المنطق: 383/3، والخطابة في صدر الإسلام: 22/1، والنقد الأدبي الحديث: 139.

(9) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح: كامل محمد محمد عويضة: 64/1.

(10) استقبال النص عند العرب، محمد رضا مبارك: 69-70.

الله ولي من حضر من المسلمين، إني لم آتكم، حتى أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رسلكم أن أقدم إلينا، فإنه ليس علينا إمام" (1)، ثم تدرج إلى الغرض الذي أعدت من أجله الخطبة؛ وهو إقامة الوجه وتفنيد حجج الخصم (2)، مفصحا عن أفكاره بدقة وتتابع: "فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه وأثق به من عهودكم ومواثيقكم، أدخل معكم مصركم، وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين ولقودمي عليكم باغضين، انصرفت عنكم إلى المكان الذي منه جنت إليكم" (3).

ثم ينتهي الإمام (ع) - غالبا - بخاتمة تمثل خلاصة الموضوع، وكثيرا ما تنتهي بدعاء أو بآية قرآنية. جاء في خاتمة إحدى خطبه (ع): "ومن نفس كربة مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة ومن أحسن أحسن الله إليه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾" (4). وقد خلا عدد من خطبه (ع)، من الخاتمة، أو أنها ذوبت في صلب النص، بمعنى أن النص صار يُنبئ عنها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن عددا من خطبه (ع) وردت منقولة دون ذكر التحميد والتمجيد، ولعل أبرز أسباب هذا التسامح في ذكر الاستهلال بالحمد عند النقل، كونها من بديهيات الخطب، وربما لا يدخل هذا الأمر في ضمن رأي من يقول: إن "أجزاء الخطبة المعروفة ليست ملزمة للخطيب، فقد يرى أن الموقف لا يحتاج إلى بعض الأجزاء فيستغني عنها" (5)، من حيث إن التحميد جزء رئيس لا يستغنى عنه، كما ذكرنا قبل قليل.

سادسا- المخاطبون في خطبه (ع): لا ريب في أن المخاطبين هم أحد أركان الخطابة الثلاثة الرئيسية (الخطبة، والخطيب، والمخاطبين السامعين).

ومن المعروف أن الخطبة توجه إلى مجموعة من المتلقين، إذ "يعتمد الخطيب على المواجهة وإثارة العواطف، وتعد الخطبة من أهم وسائل الاتصال الجمعي" (6). ولذلك تصنف الخطب أحيانا بحسب من يوجه إليهم الخطاب (7)، ولاسيما أن النص الأدبي - من وجهة نظر نقدية حديثة - "يستمد وجوده من لقائه بالمتقبل [...]" وبهذا المعنى لا يكون هناك أدب إلا من خلال المتقبل (8)، ولا يعطي النص قيمته الكاملة إلا بوصله إلى جمهور (9).

وقد تعددت أنواع المخاطبين الذين خطبهم الإمام (ع)، ولكنهم في الغالب كانوا على ثلاثة أنواع:

- (1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 330/1، وينظر: خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 152/2.
- (2) ينظر: النقد الأدبي الحديث: 140.
- (3) مقتل الحسين، الخوارزمي: 330/1، وينظر: خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 152/2.
- (4) كشف الغمة، الإريلي: 222/2، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 7-8. والنص القرآني في: آل عمران/ من 134.
- (5) التوجيه الأدبي: 37.
- (6) علم النفس الديني: 363.
- (7) ينظر: النقد الأدبي الحديث: 101.
- (8) مفهوم الأدبية في التراث النقدي، توفيق الزبيدي: 10.
- (9) ينظر: النقد الأدبي الحديث قضاياها ومناهجها، د. صالح هويدي: 126.

(أ) عامة الناس، وهذا الوسط من المخاطبين يتوافر على أنماط مختلفة؛ فمنهم من هو موال للإمام (ع)، ومنهم من هو معاد له، ومنهم من هو غير مكترث. قال (ع) في إحدى خطب هذا النوع: "يا أيها الناس نافسوا في المكارم، وسارعوا في المغام، ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوه، واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذمًا فمهما يكن لأحد عند أحد صنعة له رأى أنه لا يقوم بشكرها فإله له بمكافأته فإنه أجزل عطاء وأعظم أجرا" (1).

وهذا النوع توافر كثيرا في الخطب الاجتماعية والدينية، وعدد هذا النوع من الخطب أكثر من عددها في النوعين التاليين، وألقي أغلبها في أجواء أقل اضطرابا، وكان جل موضوعاته الحث على المعروف واجتناب المنكر، وتضمن أغلبها اقتباسات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة.

(ب) أعداء الحسين (ع)، وتمثلوا بالحكام الأمويين وأتباعهم، الذين أضمرُوا العداوة له، ولأهل بيته (ع) من قبل. قال في إحدى خطب هذا النوع- بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد (ص) وعلى الملائكة والرسول: "تبا لكم أيها الجماعة وترحنا حين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موفقين، سللتم علينا سيفا لنا في إيمانكم، وحششتهم علينا نارا اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألبا لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم" (2).

وانمازت خطب هذا النوع بكثرة عددها، وبميلها إلى الطول؛ لاستيفاء خطوط متعددة في الخطبة، وتضمينها حججا بليغة وشواهد مختلفة؛ لتقنيد آراء الخصم، وزيادة على توبيخهم لخذلان الحق.

(ج) أهله (ع) وخاصته، إذ قام فيهم خطيبا، وقال- بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "فإني لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيرا" (3).

وانمازت خطب هذا النوع بقلة عددها وميلها إلى القصر والإيجاز؛ وهذا المائز يتفق وهذا النوع من المخاطبين؛ لأن الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وأصحاب الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره وبمجمله عن تفسيره (4). وامتازت أيضا بتوافرها على العنصر العاطفي الذي حققه الإمام في هذا الوسط من المستمعين، فضلا عن عناصر عقائدية أخرى؛ فكان نتيجة ذلك أن أجابوه بالوفاء والنصيحة والتضحية.

(1) كشف الغمة: 2/222، وينظر: لواعج الأشجان، محسن الأمين، تح: حسن الأمين: 17، وأدب الحسين وحماسته: 60. و(لم تعجلوه) في الأصل: (ولا تعجلوا).

(2) مقتل الحسين، المرقم: 243، وينظر: المجالس السنية، محسن الأمين: 1/110، وخطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 2/204، وأعلام الهداية، المجمع العلمي لأهل البيت: 5/194-195، ويوم الحسين، د.فاضل المالكي: 41، ومع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة، عزت الله المولاني ومحمد جعفر الطوسي: 4/256. و(موفقين): مسرعين، كتاب العين: مادة (و ج ف)، و(ألبا): الإلب، بالفتح والكسر: القوم يجتمعون على عداوة إنسان، لسان العرب: مادة (أ ل ب).

(3) تاريخ الطبري: 5/418-419، وينظر: الإرشاد: 335-336، ومقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني: 112-113، والكامل في التاريخ، ابن الأثير: 3/25، وسيرة الأئمة الإثني عشر، هاشم معروف الحسيني: 72/2.

(4) ينظر: البيان والتبيين: 1/105، والبرهان في وجوه البيان: 195.

وقد ساق الإمام(ع) خطبه هذه بأسلوب رصين توافر على إثارة العنصر العاطفي وقوة التوصيل التي وسمت نصوصه ولاسيما يوم الطف؛ لكونها ولدت من رحم الأحداث التي مرت به، فقد شكلت ثورته(ع): "في أحد أبعادها معنى التبليغ وأداء الرسالة والتعريف بالإسلام"⁽¹⁾، ولكنه - مع ذلك - لم يلق الاستجابة إلا من النزر القليل منهم؛ "لأن الكلمة لا يمكن أن تؤثر في النفس الميتة، والقلب الخائر، والضمير المخدر"⁽²⁾، ويتجلى مصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا قَوْم لَقَدْ أُنْبِئْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾⁽³⁾. ثم إن استجابة أفراد هذا النوع يعني زهدهم في الدنيا أو اعتمادهم الحق في الأقل، والحال أنهم متشبثون في الدنيا، يلحسون موائد أسيادهم⁽⁴⁾.

سابعاً- توظيفه(ع) لأنواع آخر في خطبه: كانت خطبه(ع) على اختلاف أطوالها وأنواعها يغلب عليها أسلوب الإبلاغ الفني المتضمن حججا بليغة وبراهين قاطعة، واستدعى مثل هذا الأمر أحيانا توظيف نصوص من أنواع آخر مثل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر، فقد جاء - مثلا - في إحدى خطبه توظيف لنصين قرآنيين: "يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت على أحد أو بقي عليها أحد، لكانت الأنبياء أحق بالبقاء، وأولى بالرضا، وأرضى بالقضاء، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء، فجديدها بال، ونعيمها مضمحل، وسرورها مكفهر، منزل تلعة، ودار قلعة، فَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"⁽⁵⁾، وجاء في خطبته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: "اعتبروا أيها الناس، بما وعظ الله به أوليائه من سوء ثنائه على الأخبار إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾"⁽⁶⁾.

ولأثر ذلك التوظيف سموا كل خطبة لا توشح بالقرآن بـ(الشوهاء)⁽⁷⁾. وكذلك وشح(ع) خطبه بعدد من أحاديث المصطفى(ص). جاء في إحداها خاطبا الأعداء محتجا عليهم: "أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم: أن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال لي ولأخي: ((هذان سيذا شباب أهل الجنة))"⁽⁸⁾. والملاحظ أن الإمام(ع) لم يستشهد بالشعر في عضد معاني خطبه إلا في خطب نادرة كتلك التي احتج بها على أهل الكوفة: "ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو وخذلة الناصر"⁽⁹⁾، ثم تمثل فقال[من بحر الوافر]:

(1) الملحة الحسينية، مرتضى المطهري: 142/1.

(2) ثورة الحسين وظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، محمد مهدي شمس الدين، تح: سامي الغديري: 132.

(3) الأعراف/ من 79.

(5) ينظر: البيان والتبيين: 172/1.

(5) زهر الأداب: 100/1، وينظر: ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب(ع) من تاريخ مدينة دمشق: 215، وجمهرة خطب العرب: 51/2، وموسوعة كلمات الإمام الحسين(ع): 506. والنصان القرآنيان في: البقرة/ من 197، وآل عمران/ من 200 على التوالي.

(6) تحف العقول: 169، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع): 235. والنص القرآني في: المائدة/ من 63.

(7) ينظر: البيان والتبيين: 6/2، وعبون الأخبار: 251/2، والبرهان في وجوه البيان: 195.

(8) وقعة الطف: 207، وينظر: أنساب الأشراف، البلاذري، تح: محمد باقر المحمودي: 188/3.

(5) الملهوف على قتلى الطفوف: 156-157، وينظر: الاحتجاج: 192/2، ومقتل الحسين، المقرم: 244.

فإن نُهزم فهزامون قدما وإن نُغلب فغير مغلبينا
وما إن طُبنا جبن ولكن مناينا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رفع عن أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلکم سروات قومي كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا
فقل للشامتين بنا : أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا⁽¹⁾.

خاتمة: لا شك في أن اعتماد أسلوب التعليل، وبيان الحكمة من الأوامر والنواهي يكونان أدعى للاستجابة وأبلغ في إثارة التفكير المنطقي لدى المتلقي، ومثلما توافرت خطبه على عنصر قوة محاجة العقول ومقارعتها، توافرت كذلك على إثارة العنصر العاطفي، وهذان العنصران الرئيسان في الخطب استندا إلى أدوات فنية، مثل: (الإيقاعات المتنوعة)، و(الفواصل المقفاة)، و(التجانس)، زيادة على اعتماد وسائل الصورة الفنية من استعارة وتشبيه... فنحس بكل ذلك من خلال كلماته(ع) التي تغدو منفذا فنيا لتقرير المناخ النفسي للصورة المقصودة.

وأعتقد أن أهم أسرار خلود النصوص الخطابية للإمام الحسين(ع) هو صدق العاطفة وحرارتها، وقوة العقيدة ومتانتها، واليقين بعدالة القضية ومشروعيتها، إذ "إن وطأة الإحساس بالمشكلة أو القضية التي يتناولها الداعية، ومعايشتها تفجر الانفعالات التي تجعل من التعبير عنها أمرا ملحا لا يتحمل السكوت أو المهادنة أو الهدوء أو التأجيل"⁽²⁾، فالداعية مصدر طاقة فكرية وعاطفية بما لديه من خبرات واسعة وقوة الحس، وجيشان العاطفة، وسرعة البديهة وبراعة التصوير، إذ يتمتع الخطيب بثقة عالية في النفس، وتتمثل في إيمانه بالمبادئ التي يدعو إليها، فيحسن إبانة الكلام وشرح معانيه من دون أن يعجز أو يتعثر⁽³⁾.

ومهما طال الحديث عن خطبه(ع) – بأنواعها وفنونها وخصائصها- يبقى الأمر الأهم أن الإمام(ع) استطاع – متمرسا- أن يحقق الجانب الفني الجمالي لخطبه زيادة على الجانب الغائي التكليفي لها، وذلك كله جاء منسجما ومناخ عصره المتغير، الذي تطلب صياغات خطابية مختلفة.

(1) الملهوف على قتلى الطفوف: 157، وينظر: الاحتجاج: 192/2، ومقتل الحسين، المقدم: 244، مع اختلاف هذه المصادر في عدد الأبيات التي أوردتها. وهذه الأبيات لأبي عمرو فروة بن مُسيك المرادي، أسلم على عهد رسول الله(ص)، وقد استعمله الرسول(ص) على مراد ومذبح، وروى عنه أحاديث كثيرة. ينظر: الإصابة، ابن حجر: 200/3. و(طبنا): العلة والسبب الخفي، كتاب العين: مادة(ط ب ب).

(1) علم النفس الديني: 346.

(2) ينظر: م.ن: 363- 365.

المبحث الثاني

الدعاء

أولاً=الدعاء في اللغة والاصطلاح: الدعاء واحد الأدعية، والدعاء: الرغبة إلى الله عز وجل، دعاه دعاء ودعوى، والدعاء يأتي بمعنى العبادة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾⁽¹⁾، كما يأتي الدعاء بمعنى الاستغاثة، نحو قولك للرجل: إذا لقيت العدو فادع المسلمين، ومعناه استغث بالمسلمين، والدعاء في اللغة يشتمل على معاني عديدة يُحددها قصد الداعي ومنزلة المدعو⁽²⁾.

وعُرف الدعاء اصطلاحاً بتعريفات كثيرة؛ منها: أنه "الصدى الحقيقي لمشاعر الحاجة والعجز التي تغمر الإنسان"⁽³⁾، وهو "حديث الإنسان إلى ربه، وعلاقة المخلوق بالخالق"⁽⁴⁾، وهو "خطاب الله تعالى والتضرع له وتمجيده"⁽⁵⁾. وأياً كان، فالدعاء: نوع أدبي رفيع، أنشئ بلغة راقية، صُوّر من خلالها مدى الحب والأنس بين العاشق والمعشوق، وبين العابد والمعبود؛ عرفانا بفضلته (تعالى)، ورغبة في خيره، متضمناً أنواع المعارف الدينية والإنسانية والروحية.

ثانياً= الدعاء في القرآن الكريم وفي عُرف أهل البيت(ع): لأهمية الدعاء ومنزلته الرفيعة عند الله سبحانه، فقد شغل مساحات بيّنة في كتابه العزيز، إذ قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾⁽⁶⁾. ولأهميته أيضاً جعل الله تعالى فاتحة كتابه دعاء وخاتمة دعاء⁽⁷⁾، وسورة "الفاتحة" بآياتها السبع وقفة من دعاء محض وابتهاال خالص إلى الله سبحانه⁽⁸⁾. ومضى القرآن الكريم في أهمية الدعاء إلى أعماق من ذلك، بأن جعل منزلة المسلم مقرونة بدعائه: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾⁽⁹⁾، أي إنه تعالى لا يكثرث بكم لولا عبادتكم ودعائكم، فالدعاء عبادة⁽¹⁰⁾.

من هنا، جاء اهتمام أهل البيت(ع) بالدعاء، فلم يؤثر عن أحد من أئمة المسلمين وخيارهم من الأدعية كما أثر عنهم(ع)⁽¹¹⁾، إذ "تميز تراث أهل البيت بظاهرة الدعاء

(1) الأعراف/من 194.

(2) ينظر: لسان العرب: مادة (د ع ا)، والقاموس المحيط: مادة (د ع و).

(3) الدعاء، عبد الحسين الحسيني: 16.

(4) شرح دعاء كميل، حسن أنصاريان، تر: كمال السيد: 5.

(5) ابن الجوزي أديباً (رسالة ماجستير)، أفراح قدوري صالح القيسي: 38.

(6) البقرة/186.

(7) ينظر: الدعاء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي (رسالة ماجستير)، غالب راشد حمد: 11.

(1) الدعاء في القرآن الكريم، محمود بن شريف: 8.

(9) الفرقان/77.

(3) ينظر: الكشف، الزمخشري، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيا: 753/19-754.

(11) ينظر: حياة الإمام الحسين(ع): 165/1.

تميزا فريدا في جانبي الكم والكيف⁽¹⁾، وتعد تلك الأدعية من أروع الثروات الفكرية والأدبية في الإسلام⁽²⁾.

ومن أمارات ذلك الاهتمام، وفرة أحاديثهم في فضل الدعاء وأهميته، إذ ورد عن المصطفى(ص) قوله: ((الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والأرض))⁽³⁾، حتى إنه(ص) جعل الدعاء موجّها للعبادة وسببا مؤثرا في كثير من المسببات⁽⁴⁾، حين قال: ((الدعاء مَخ العبادَة))⁽⁵⁾.

وهكذا تأصل الدعاء عند أهل البيت(ص) إذ جاء عن الإمام علي(ع): "أحب الأعمال إلى الله عز وجل في الأرض الدعاء"⁽⁶⁾، وقد وُصف أمير المؤمنين(ع) بأنه كان "رجلا دعاء"⁽⁷⁾.

وتعمق أهل البيت(ع) كثيرا في الدعاء، وحرصوا على هذه الناحية الروحية، وأكثروا من الأدعية إلى حد بعيد، حتى إنهم جعلوا لكل يوم دعاء خاصا به، ولكل ساعة دعاء خاصا بها⁽⁸⁾. واحتوت هذه الأدعية على كثير من حقول المعرفة الإنسانية والثقافات المختلفة، زيادة على الفوائد الوضعية والأخروية⁽⁹⁾.

ثالثا= أهمية الدعاء وآدابه: إن أهمية الدعاء تعود إلى أسباب كثيرة؛ أبرزها تعدد علاقته المشتركة واتصالاته بالنتاج الأدبي، وعلوم اللغة، ومنها أيضا اتصاله بالفقه والشرائع العبادية والعلوم الروحانية، فضلا عن اتصاله بالجانب التربوي والنفسي⁽¹⁰⁾.

ومما تحسن الإشارة إليه أن هذا النوع الأدبي(الدعاء)، لم يُوف حقه من حيث الاهتمام، كبقية الأنواع الأدبية الأخرى، ولم يأخذ استحقاقه ومكانته في السلم الأدبي، مع أنه جدير - كما أرى - بذلك الاستحقاق وتلك المكانة. وقد انماز هذا النوع الأدبي بآداب معينة، هي بمثابة مقدمات أو مؤهلات أساس، ينبغي للداعي الالتفات إليها⁽¹¹⁾.

(1) أعلام الهداية، المجمع العلمي لأهل البيت(ع): 231/5.

(2) ينظر: حياة الإمام الحسين(ع): 165/1 - 166.

(3) أصول الكافي، الكليني: 461/2.

(4) ينظر: في ظلال الدعاء، منير القطيفي: 135.

(5) وسائل الشيعة، الحر العاملي: 27/7، وينظر: بحار الأنوار، المجلسي: 300/93، وفيه تنمة للحديث الشريف: ((ولا يهلك مع الدعاء أحد)).

(6) أصول الكافي: 460/2.

(7) م.ن: 461/2.

(8) ينظر: مفاتيح الجنان(ملحق الباقيات الصالحات)، الشيخ القمي، تر: محمد رضا النجفي: 48، والأدب في ظل التشيع: 130.

(9) ينظر: ما وراء الفقه، السيد محمد محمد صادق الصدر: 238/10.

(10) ينظر: دعاء الإمام علي(ع) - دراسة لغوية أسلوبية(رسالة ماجستير)، محمد إسماعيل عبد الله: المقدمة(و).

(11) ليس هناك تشريع محدد يلزم الداعي للأخذ بهذه الآداب جميعا إذا لم تتأت له الظروف المناسبة، إلا أن التوجه والإقبال يمثلان روح الدعاء، ينظر: مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة، الشيخ بهاء الدين العاملي، تح: مهدي الخراساني: 256، وفي رحاب الدعاء، الشيخ محمد حسين فضل الله: 422.

ولمزيد من التفصيل ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تح: أحمد جار: 239/2، ومعاني الأخبار، الشيخ الصدوق، تح: علي أكبر غفاري: 489، وشرح نهج البلاغة: 156/6 - 157، وفلاح السائل، العلامة ابن

- مُحَرَّرٌ. التوجه الحقيقي والإقبال الأكيد نحو الله تعالى.
 صَنَعٌ. الصلاة ركعتين قبل الدعاء.
 رُبْعٌ أَوَّلٌ. أن يكون الداعي حاضر القلب عند الدعاء.
 رُبْعٌ ثَانٍ. أن يدعو الله في السَّراءِ والضَّراءِ.
 جَمْعُ الْخَلْقِ. الإيمان بعظمة الله سبحانه وعِظَمُ مُلْكِهِ وسعة خزائنه.
 جَمْعُ الْخَلْقِ. المبالغة والإلحاح في الدعاء.
 رَجَبٌ. التضرع والانكسار والابتهال.
 شُعْبَانٌ. الإقرار بالذنب.
 رَمَضَانٌ. الاستشفاع بالصالحين.
 مَسْأَلٌ مُحَرَّرٌ. تعميم الدعاء.
 مُحَرَّرٌ مُحَرَّرٌ. اغتنام الأوقات المناسبة والأماكن المقدسة.
 صَنَعٌ مُحَرَّرٌ. حُسن الظن بالإجابة.
 رُبْعٌ أَوَّلٌ مُحَرَّرٌ. تمجيد الله ومدحه بالعظمة.
 رُبْعٌ ثَانٍ مُحَرَّرٌ. الصلاة على محمد وآل محمد.
 جَمْعُ الْخَلْقِ مُحَرَّرٌ. أن لا يستصغر شيئاً في الدعاء.
 جَمْعُ الْخَلْقِ مُحَرَّرٌ. أن لا يكون ظالماً في دعائه.

رابعاً= صلة الإمام الحسين(ع) بالدعاء: بدأت رحلة الإمام(ع) مع الدعاء مذ كان طفلاً صغيراً، حين شرع جدّه المصطفى(ص) يرفده بأنواع العلوم والمعارف، كان في مقدّماتها الدعاء، إذ خصّه بدعاء هو الأول الذي استقر في عقله ووجدانه، جاء فيه: ((اللهم إني أسألك بكلماتك ومعاهد عرشك وسكان سمواتك وأنبيائك ورسلك أن تستجيب لي فقد رهقني من أمري عسراً فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل لي من أمري يسراً))⁽¹⁾.

ثم واكب(ع) هذا الاستلهم الروحي في حياة أبيه(ع) فكان سمّاعاً شغوفاً بأدعية أبيه، ولم يكتفِ بالاستماع بل كان يكتب بعض أدعية أبيه، ويعطيها لذوي الحوائج وأصحاب المعضلات⁽²⁾، حتى صار أبوه(ع) يعتمد عليه في عدد من الأدعية الجماعية التي تنفع المسلمين⁽³⁾.

ولا شك في أن الاهتمام بالنصوص الدينية الدعائية وكتابتها وما تعود به من نفع وإصلاح على المجتمع هو واحد من مهام الأدب الرفيع، ولا سيما أن ما عند الله لا يدرك إلا بالدعاء⁽⁴⁾، ولذا فإن النتاج الأدبي للأديب هو "بمثابة رسالة أو خطاب يوجهه إلى الناس من حوله، وإلى الناس من بعده، بل وإلى الناس البعيدين عنه مكاناً

طاووس: 36-38، والتصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، د.زكي مبارك: 40/2-45، وربيع الأنعام في أدعية خير الأنعام، عبد الحسين الطالعي: المقدمة.

(1) عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق: 63/1.

(2) ينظر: الدعاء: حقيقته- آدابه- آثاره، مركز الرسالة: 94.

(3) ينظر: مهج الدعوات، العلامة ابن طاووس، قدم له وعلّق عليه الشيخ حسن الأعلمي: 193-194.

(4) من هذه الأدعية، أدعية الاستسقاء، ينظر: بحار الأنوار: 187/44، والصحيفة الحسينية، محمد علي الهمداني: 61.

وزماناً⁽¹⁾، وهذا الأمر يتطلب قيمة إبداعية للنص، وقدرًا رفيعًا متجددًا من التوصيل للمتلقى والتأثير فيه مع تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة، إذ لا بد أن نجد بجانب كل إشارة جمالية يفرزها الأدب إشارة إيصالية توصل المعنى⁽²⁾.

ولم ينقطع الإمام(ع) عن الدعاء في بقية حياته حتى آخر لحظات عمره الشريف إذ كان يتمم بذكر الله ويسبحه في مناجاة له في أرض المعركة أرض كربلاء مع ما به من كثرة الجراح وشدة النزف⁽³⁾، إذ "إن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه في يوم عاشوراء لا تقل عما ذكر عنه من المعاجز"⁽⁴⁾، فالدعاء عند الإمام(ع) هو النوع الأدبي الأول الذي أتقنه في أول حياته، وودع به الدنيا عند مماته. ولذا فلا غرو أن يمثل الدعاء ركنا مهما ونوعا فنيا مميزا في أدبه، وأن يشغل مساحة واسعة في أدبه تلي مساحة الخطابة.

خامسا= عدد أدعيته(ع) وأطوالها: لعل من الشواهد على اهتمامه(ع) بهذا النوع الأدبي كثرة أدعيته وتنوعها؛ فقد بلغ عدد أدعيته المشهورة التي يُطمأن إلى صحتها لتواتر ورودها في المصادر الأصول التي اعتمدها هذا المبحث، ثلاثين دعاء. كان عدد الأدعية القصيرة منها خمسة عشر دعاء، وعدد الأدعية المتوسطة تسعة أدعية، وعدد الأدعية الطويلة ستة أدعية.

ولم أدرج دعاء(عرفة) مع أدعية الطول الأخير؛ حفاظا على معدلات متوازنة مقبولة في الطول، إذ اتسم هذا الدعاء الجليل بطول متميز ليس بين أدعيته(ع) فحسب، بل كان متميزا بطوله بين أدعية أهل البيت(ع) عموما، إذ بلغ عدد الأسطر فيه مئتين وستة وثمانين سطرا، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف أطوال بقية أدعيته مجتمعة تقريبا.

وهذا التفاوت الكبير في حجم نصوص أدعيته(ع)، يقره السياق الذي يولد في كنفه النص، فالسياق هو المرجع الذي يحتاج منه المتلقى حين يروم الكشف عن السمات الإبداعية في النص وميزاته⁽⁵⁾، زيادة عن أنه يشكل "قاعدة لكل اتصال"⁽⁶⁾. وكان مقياس الطول المفترض للأدعية القصيرة يتراوح بين سطر إلى سطرين. ومن الأدعية القصيرة دعاؤه(ع): "اللهم إني تَرى ولا تُرى! وأنت بالمنظر الأعلى، وإن إليك الرجعى، وإن لك الآخرة والأولى، اللهم إنا نعوذ بك من أن نذل ونخزى"⁽⁷⁾.

وانحصر عدد الأسطر المفترضة في الأدعية المتوسطة بين ثلاثة أسطر إلى خمسة أسطر. ومن الأدعية متوسطة الطول دعاؤه(ع): "بسم الله الرحمن الرحيم، يا دائم يا ديموم، يا حيّ يا قيوم، يا كاشف الغم، يا فارج الهم، يا باعث الرُّسل، يا

(1) سيكولوجية الإبداع والفن والأدب، يوسف ميخائيل أسعد: 80.

(2) ينظر: علم الإشارة أو السيميولوجيا، بيير جيرو: 175.

(3) ينظر: إقبال الأعمال، العلامة ابن طاووس: 205، ويوم الحسين(عليه السلام)، د.فاضل المالكي: 227.

(4) أدعية الإمام الحسين، محمد علي علي دخیل: 26.

(5) ينظر: الخطيئة والتكفير، د. عبدالله الغدامي: 7، والنص حساسية ما بعد الحداثة، باقر جاسم محمد: 15.

(6) علم الإشارة أو السيميولوجيا: 30.

(7) مسند الإمام أحمد بن حنبل: 201/1، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع): 935.

صادق الوعد! اللهم إن كان لي عندك رضوان وودّ فاغفر لي، ومن اتّبعتني من إخواني وشيعتي، وطيب ما في صُلبي، برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين⁽¹⁾.

وتراوح عدد الأسطر للأدعية الطويلة بين ستة أسطر إلى سبعة عشر سطرا، كان منها دعاؤه (ع) عند الاحتجاب عمن أراد الإساءة إليه: "يا من شأنه الكفاية وسُرّادقه الدعاية، يا من هو الغاية والنهاية، يا صارف السوء والسّواية والضّر، اصرف عني أدية العالمين من الجنّ والإنس أجمعين، بالأشباح النورانية، وبالأسماء السريانية، وبالأقلام اليونانية، وبالكلمات العبرانية، وبما نزل في الألواح من يقين الإيضاح، اجعلني اللهم في حركك، وفي حركك، وفي عيذك، وفي سترك، وفي كنفك من كلّ شيطان مارد، وعدو راصد، ولئيم مُعانِد، وضدّ كنود، ومن كلّ حاسد، ببسم الله استشفيت، وببسم الله استكفيت، وعلى الله توكلت، وبه استعنت وإليه استعديت على كلّ ظالم ظلم، وغاشم غشم، وطارق طرق، وزاجر زجر، فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين"⁽²⁾.

سادسا= أنواع الدعاء عنده (ع): لقد تميزت "عبادة الدعاء عن أيّ عبادة أخرى في تنويع الأفكار والأوضاع"⁽³⁾، وإذا ما دققنا النظر في أدعيته (ع)، واعتمدنا الغاية من إنشاء النص الدعائي، بوصفها معيارا لتحديد أنواع أدعيته، تمكنا من تقسيم أدعيته، على: الدعاء الديني، والدعاء السياسي، والدعاء الاجتماعي، مع بقاء الجانب الديني مشتركا في مساحات مختلفة مع بقية الأدعية، فضلا عن تداخل المعاني السياسية والاجتماعية في عدد كبير من أدعيته.

أ.الدعاء الديني: نعني به الدعاء الذي يكون عباديا خالصا، وهذا النوع من الأدعية شغل المساحة الأوسع في أدعيته (ع)، ورد عنه: "اللهم إني أسألك توفير أهل الهدى وأعمال أهل التقوى ومناصرة أهل التوبة وعزم أهل الصبر وحذر أهل الخشية وطلب أهل العلم وزينة أهل الورع وخوف أهل الجزع حتى أخافك اللهم مخافة تحجزني عن معاصيك وحتى أعمل بطاعتك عملا استحق به كرامتك وحتى أناصحك في التوبة خوفا لك وحتى أخلص لك في النصيحة حبا لك وحتى أتوكل عليك في الأمور حسن ظن بك سبحان خالق النور سبحان الله العظيم وبحمده"⁽⁴⁾.

ب.الدعاء السياسي: وهو مجموعة أدعية أغلبها رافق الإمام (ع) في نهضته الثورية في ساحة المعركة (الطف)، إذ كان يبتغي منها بث الصبر والعزيمة في القتال له ولأصحابه، ليجعل من الدعاء سلاحا معنويا، كما بيّن ذلك الرسول (ص) بقوله: ((الدعاء سلاح المؤمن))⁽⁵⁾، وكذلك كان يبتغي (ع) من الدعاء أحيانا تحذير الأعداء وإضعاف معنوياتهم من خلال الدعاء عليهم بين الحين والآخر، ولاسيما أن

(1) مهج الدعوات: 23، وينظر: الصحيفة الحسينية: 132.

(2) مهج الدعوات: 356، وينظر: بحار الأنوار: 374/94، وأدعية الإمام الحسين: 111.

(3) في رحاب الدعاء: 422.

(4) مهج الدعوات: 198، وينظر: أدعية الإمام الحسين: 57.

(5) أصول الكافي: 461/2.

الإقناع والإعلام من أهداف الباحث الرئيسية⁽¹⁾؛ ولذا اعتمد(ع) الدعاء في المعركة سلاحاً.

وقد شغل هذا النوع من الأدعية مساحة معتدلة في أدعيته(ع). ومنها دعاؤه في صبيحة يوم عاشوراء، إذ رفع يديه(ع)، إلى السماء وقال: "اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن سواك ففرجته وكشفته فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة"⁽²⁾.

ج. الدعاء الاجتماعي: وهو مجموعة أدعية دعا بها الإمام(ع) لقضاء حاجة معينة له أو للمسلمين والمجتمع، في سياق خاص. وقد شغل هذا النوع من الأدعية مساحة قليلة. ومنها دعاؤه في الاستسقاء، بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي وآله، قال: "اللهم معطي الخيرات، ومنزل البركات، أرسل السماء علينا مدراراً، واسقنا غيثاً مفراراً، واسعا، غدقا، مجللاً سحاً، مسفوحاً، ثجاجاً تنفس به الضعف من عبادك، وتحيي به الميت من بلادك آمين رب العالمين"⁽³⁾.

سابعاً= الغاية من دعائه(ع): المتلقي الأول في الدعاء هو الله(سبحانه)، خلافاً لبقية الأنواع الأدبية- كما رأينا وسنرى لاحقاً- ولذلك نستطيع أن ننفذ إلى التنوع في الدعاء كذلك من خلال زاويتين؛ الأولى هي الدعاء بالثواب، والأخرى هي الدعاء بالعقاب.

1/ الدعاء بالثواب: تبوأ الدعاء بالثواب المساحة الأوسع في أدعيته(ع). وكانت هذه الأدعية لعامة الناس ولاسيما الموالين منهم لأهل البيت(ع). وقد ظهر هذا النوع بصيغتين في نتاجه الدعائي، تمثل فيهما الإمام(ع) النهج القرآني في الدعاء، وهما: أ) الدعاء الفردي: وقد ورد كثير من أدعية الإمام(ع)، بهذه الصيغة. ومن ذلك دعاؤه: "بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك إياك أسأل العافية من كل سوء في الدنيا والآخرة. اللهم إنك تكفيني من كل أحد، ولا يكفيني منك أحد فاكفني من كل أحد ما أخاف وأحذر"⁽⁴⁾.

ولا شك في أن اعتماد الإمام اللفظ الدال على المفرد(اللهم إني أسلمت- اللهم إنك تكفيني)، إنما هو لون من ألوان الوسائل التربوية التي أنتهجها القرآن الكريم، في نماذج متعددة، على لسان الأنبياء والصالحين⁽⁵⁾، من ذلك ما جاء في كتابه

(1) ينظر: الأسس العلمية لنظريات الإعلام، أحمد زكي بدوي: 54.

(2) تاريخ الطبري: 423/5، وينظر: مقتل الحسين، محمد كاشف الغطاء، تح: هادي الهلالي: 3.

(3) عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب: 44، وينظر: بحار الأنوار: 187/44، وبلاغه الإمام الحسين بن علي(ع): 259/1.

(4) مهج الدعوات: 198-199، وينظر: بحار الأنوار: 313/83.

(5) ينظر: الدعاء عند أهل البيت(ع)، الشيخ محمد مهدي الأصفى: 137.

العزیز: ﴿وَقُلْ رَبِّ اَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَّاَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَّاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ (1).

ب) الدعاء الجماعي: وقد ورد عدد من أدعيته بهذه الطريقة. ومن ذلك دعاؤه في الاستسقاء: "اللهم أسقنا سقيا واسعة، وادعة عامة نافعة غير ضارة تعمُّ بها حاضرننا وبادينا وتزيد بها في رزقنا وشكرنا. اللهم أنزل علينا في أرضنا سكنها وأنبت فيها زينتها ومرعاها" (2).

والملاحظ أن الإمام (ع) في هذا النوع من الدعاء، اعتمد اللفظ الجماعي (اللهم أسقنا سقيا واسعة) تمثل فيه أشهر أساليب القرآن الكريم، نحو قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (3). وأكثر أدعية أهل البيت (ع) من هذا النوع (4).

ج) الدعاء بالعقاب: كانت مساحة هذه الزاوية من الدعاء قليلة، على الرغم من كثرة نصوصها، فأغلب هذه الأدعية كانت من نتاج واقعة الطف، إذ انمازت بقصرها لظروف القتال التي تتطلب الإيجاز؛ ولذلك كان أغلبها متعلقا بأعدائه، و"هذه النماذج من الأدعية القصار يمكن اعتبارها نمطا أدبيا يحمل انطباعات الإمام الحسين (ع) وبصماته إن من حيث أسلوب التعبير أم من حيث منهجية الأفكار التي رسمتها الثورة الحسينية السياسية والاجتماعية" (5).

وهذا النوع كذلك اعتمد صيغتين في نتاجه الأدبي؛ هما:

أ) الدعاء الفردي: وأمثلة هذا النوع كثيرة. ومنها دعاؤه (ع) على أحد أعدائه؛ وهو (محمد بن الأشعث)، في أثناء معركة الطف، عندما تنكر لعلاقة الإمام (ع) بجده المختار (ص): "اللهم إنَّ محمد بن الأشعث، يقول: إنه ليس بيني وبين رسولك قرابة، اللهم! فأرني فيه هذا اليوم ذلا عاجلا" (6).

ويبدو أنه (ع) عندما خص عددا من أعدائه وقصدهم بالاسم؛ فذلك لأنَّ هؤلاء كانوا الأكثر عدوانية، وله في نهج القرآن الكريم ما هذاه إلى هذا السبيل، فعندما بالغ أبو لهب في إيذاء الرسول (ص)، لعنه الله (سبحانه) باسمه صراحة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (7).

ب) الدعاء الجماعي: تكاد الأدعية الجماعية في هذه الزاوية- (الدعاء بالعقاب)- تتشاطر بالتمائل مع الأدعية الفردية، مساحة النصوص وعددها، وقد ورد أغلبها في واقعة كربلاء. ومن ذلك دعاؤه (ع) على الأعداء قبيل استشهاده: "اللهم أمسك عنهم قطر السماء، وامنعهم بركات الأرض، اللهم فإن متعتهم إلى حين، ففرقهم فرقا،

(1) الإسراء/80.

(2) عيون الأخبار: 303/2.

(3) الفاتحة/6-7.

(4) ينظر: الدعاء عند أهل البيت (ع): 137.

(5) الرسالية في الثورة الحسينية، د. حسين حسن: 275.

(6) مقتل الحسين، الخوارزمي: 352/1، وينظر: مقتل الحسين، المقدم: 24.

(7) المسد/1.

واجعلهم طرائق قديدا، ولا ترضي عنهم الولاية أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا فقتلونا!"⁽¹⁾.

والملاحظ أنه (ع) يتوجه إلى الدعاء بهذه الصيغة كلما أصابته مصيبة من مصائب المعركة، وبعد أن يفقد الخطاب أثره في المخاطبين⁽²⁾، ولم يُفد النصح فيهم، إذ استوجبوا العذاب، وصنعه (ع)- في هذا السياق- صنع الأنبياء السابقين عندما ينسوا من إصلاح أممهم، فقد جاء عن نوح (ع) في الكتاب العزيز: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾⁽³⁾.

ثامنا= بنية الدعاء عنده (ع): إن تعدد أنواع الأدعية، واختلاف أفكارها وتباين المنهج الذي تنتظم من خلاله هذه الأفكار وكثافتها وطريقة حضورها داخل النص، كل ذلك جعل من الصعب أن نرسم بنية موحدة لأدعية الإمام (ع)، تشكل صورة وافية لهذا النوع، من حيث إن "فعل القراءة مغروس في بنية النص"⁽⁴⁾، وبنية النص وبنية فعل التلقي يمثلان استكمالا لعملية التواصل⁽⁵⁾.

ويبدو أن هذه الظاهرة لا تقتصر على أدعية الإمام الحسين (ع) "فإن لكل واحد من نصوص الأدعية المعروفة المأثورة عن أهل البيت (ع) أفكارا محددة، ومنهجية معينة لتنظيم هذه الأفكار، وطريقة الدخول والخروج من الدعاء"⁽⁶⁾، ومهما يكن فـ"الكل واحد من الأدعية المعروفة هيكل وتصميم خاص به"⁽⁷⁾.

بيد أننا لو حققنا النظر في أدعية الإمام (ع) استطعنا أن نرسم خطاه في منهجيته العامة لبناء النص الدعائي، ويؤازر هذا التحقيق تفقي آثار أهل البيت (ع) وأحاديثهم في صياغة الدعاء؛ فقد ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله في رسم منهج الدعاء: "إياكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربه شيئا من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عز وجل والمدح له والصلاة على النبي (ص) ثم يسأل الله حوائجه"⁽⁸⁾، والثناء هو الحمد سواء كان جزاء على نعمة أو ابتداء ولم يقل الشكر، فالشكر إنما يكون للجزاء فقط⁽⁹⁾. وهذا المنهج قد توفر عليه دعاؤه (ع) في عدد من نصوصه. ومن ذلك ما جاء في أحد أدعيته: "اللهم من آوى إلى مأوى فأنت مأواي ومن لجأ إلى ملجأ فأنت ملجأ، اللهم صل على محمد وآل محمد واسمع ندائي وأجب دعائي واجعل مأبى عندك ومثواي وأحرسني في بلواي من افتتان الامتحان ولمة الشيطان بعظمتك التي لا يشوبها ولع نفس بتفنين ولا وارد طيف بتظنين ولا يلم بها فرح

(1) وقعة الطف: 254، وينظر: أنساب الأشراف: 201/3، والوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين (ع)، عبد الكريم الحسيني القزويني: 175.

(2) ينظر: الإمام الحسين كما رأيت: 470.

(3) نوح/من: 26.

(4) الخطاب والقارئ، د.حامد أبو أحمد: 122.

(5) ينظر: مناهج النقد المعاصر، د.صلاح فضل: 147.

(6) الدعاء عند أهل البيت (ع): 113.

(7) م.ن: 113.

(8) أصول الكافي: 475/2- 476.

(9) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أحمد بن جزي الغرناطي، اعتنى بتنقيحه وضبط كلماته وخرج آياته وأحاديثه وعرف بأعلامه د.عبد الله الخالدي: 31/1 (المقدمة).

حتى تقلبني إليك بإرادتك غير ظنين ولا مظنون ولا مُراب ولا مراتب إنك أرحم الراحمين" (1).

ونلاحظ من خلال النص أن الإمام (ع) ابتدأ بحمد الله من خلال نعته لله تعالى بأنه خير مأوى وملجأ، إذ قال: (اللهم من أوى إلى مأوى فأنت مأوى...) ثم أردف الحمد بالصلاة على محمد وآل محمد قبل الشروع في صلب الدعاء، ولا يخفى ما لهذه الصلاة من فضل وأجر كبيرين، وسبب من أسباب استجابة الدعاء (2)، ولما كان هذا الدعاء في صدر حاجة فردية فإن فقرة (اللهم صلّ على محمد وآل محمد) وظفت فنيا بحيث شكلت نقلة فنية من (الذات) إلى (الموضوع) من جانب، وأداة وصل وتلاحم بين الموضوعات من جانب آخر (3).

والملاحظ أن هذا المدخل من التحميد وما تبعه من معاني الثناء، يجيء بصيغ متعددة وبألفاظ متنوعة، إلا أنها تصب جميعاً في معاني الشكر لله (تعالى). وقد ورد عن أهل البيت (ع) تشديد صارم على الافتتاح بالتحميد. ومن ذلك ما جاء عن الإمام علي (ع): "إِنَّ الثَّناء عَلَى اللَّهِ وَالصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِهِ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ، وَأَنْ أَحَدَكُمْ لِيَأْتِيَ الرَّجُلَ يَطْلُبُ الْحَاجَةَ، فَيَحِبُّ أَنْ يَقُولَ لَهُ خَيْرًا قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَ حَاجَتَهُ" (4)، لذلك تبوأ الافتتاح مساحة واسعة في أغلب أدعيته (ع) المتوسطة والطويلة.

وربما أعقب (ع) الافتتاح بالاعتراف بالذنوب في بعض أدعيته التي يكون معه في أثناء قراءتها آخرون، كما في دعاء عرفة "ثم أنا يا إلهي المعترف بذنوبي فاغفر لي" (5).

ثم ينتقل الإمام (ع) إلى مرحلة أخرى في الدعاء؛ هي مرحلة السؤال وطلب المنافع الدينية والدنيوية، ثقة منه في سعة رحمة مولاه: (واجعل مأبى عندك...) ولا مظنون ولا مُراب ولا مراتب). وغالباً ما يمثل هذا الجزء المساحة الكبرى في أدعيته، وأحياناً يمثل هذا الجزء من الدعاء، الدعاء بأكمله لا تسبقه إلا عبارة اللهم (6). واتسم هذا المقطع من أدعيته (ع) باكتنازه معاني متعددة وأفكاراً شاملة تنفع المسلمين وتقربهم من رضا الخالق وطاعته.

ثم ينتقل الإمام إلى المرحلة الأخيرة من الدعاء؛ فيختتم دعاءه بالحمد أيضاً (إنك أرحم الراحمين)؛ لأن الحمد في الدعاء يفتح به للمسوغات التي ذكرناها ويختتم به كذلك؛ تمثلاً لما حكاه القرآن الكريم عن أهل الجنة: ﴿وَأَخْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (7).

والدعاء توفيق منه تبارك وتعالى، ولولا توفيقه لم يكن الدعاء ولم يكتمل، وقد ورد هذا المعنى في الصحيفة السجادية: "فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك

(1) مهج الدعوات: 69. و(التقنين): التخليط، لسان العرب: مادة (ف ن ن)، و(التظنين): من الإمساك والبخل، ينظر: م: مادة (ظ ن ن).

(2) ينظر: أصول الكافي: 482/2.

(3) ينظر: الإسلام والفن: 174.

(4) أصول الكافي: 477/2.

(2) إقبال الأعمال: 629.

(6) ينظر: وقعة الطف: 254 على سبيل المثال، ومقتل الحسين، الخوارزمي: 10/2.

(7) يونس/من 10.

يفتقر إلى شكر، فكلمنا قلت لك الحمد، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد⁽¹⁾، فكلمنا وفقت للدعاء فهي نعمة تحتاج إلى شكر⁽²⁾. والمطلع على أدعية الإمام الحسين(ع) يجد أن أغلب أدعيته قد ختمت بالحمد أو الشكر.

تاسعا= ظروف أدعيته(ع): إذا ما استعرضنا ظروف أدعية الإمام(ع) فسنجدها متعددة، ولاسيما زمان الأدعية ومكانها، إذ حفلت أدعيته بأوقات الدعاء المميزة والأماكن المقدسة، وفي الوقت الذي يشير زمان الأدعية ومكانها إلى دلالة عبادية، كذلك يشير إلى دلالة فنية توصيلية من حيث "إن الزمان والمكان يمثلان العامل الأساس في تحديد سياق الآثار الأدبية"⁽³⁾، وغالبا ما يفترض أحدهما وجود الآخر⁽⁴⁾، إن لم نجدهما متلازمين.

فمن الليالي العظيمة ليلة عرفة التي تميزت بفضل عظيم على عموم المسلمين، ولاسيما حجاج بيت الله الحرام، وما يؤدونه من مناسك عبادية، وابتهاالات روحية، تعلقا بكرم الله وأملا في عفوهِ. والدعاء أهم مظهر للمناسك والابتهاالات، فقد أثر عن الرسول الكريم(ص) والإمام علي(ع) إحياءهما لهذه الليلة بالصلاة والاستغفار، فسار الحسين(ع) على النهج ذاته في هذه الليلة العظيمة⁽⁵⁾؛ فأثر عنه دعاؤه المشهور بدعاء عرفة: "الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع، فطر أجناس البدائع"⁽⁶⁾.

وكذلك أثر عنه أدعيته عند أوقات صلاته في قنوته، وعند الصباح والمساء، وعند انقطاع الغيث. وشهد يوم كربلاء عددا كبيرا من أدعيته. وذكر تلك الأوقات جميعها وذكر فضلها كانا مما اشتملت عليه أحاديث أهل البيت(ع). ومن ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين علي(ع): "اغتموا الدعاء عند أربع: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفيين للشهادة"⁽⁷⁾.

ولا شك في أن ساعات القتال ومصرع الشهداء هي من أفضل الساعات وأشرفها⁽⁸⁾.

وقد تعددت أماكن الدعاء عند الإمام(ع)؛ منها دعاؤه في الكعبة الشريفة، إذ كان يمسك الركن اليماني، ويقول: "إلهي أنعمتني فلم تجدني شاكرا، وأبليتني فلم تجدي صابرا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم"⁽⁹⁾، ومنها دعاؤه(ع) في سجوده في مسجد النبي(ص) إذ

(1) الصحيفة السجادية الكاملة للإمام علي بن الحسين(ع)، تقديم وتحقيق: سلمان جاسم: 77.

(2) ينظر: في ظلال الافتتاح: 6/11.

(3) نظرية البنائية في النقد الأدبي: 426.

(4) ينظر: اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك: 182.

(5) ينظر: إقبال الأعمال: 609، وما بعدها.

(6) إقبال الأعمال: 625، وينظر: الصحيفة الحسينية: 86.

(7) أصول الكافي: 475/2.

(8) ينظر: الدعاء عند أهل البيت(ع): 86.

(9) إحقاق الحق وإزهاق الباطل، نور الله الحسيني المرعشي التستري: 595/11، وينظر: حياة الإمام الحسين(ع): 134/1.

كان يُعَفِّرُ خذه بالتراب، ويقول: "سيدي ومولاي! أَلِمَقَامِ الحديد خُلِقَتْ أَعْضَائِي؟ أَمْ لِشَرِّبِ الحميم خُلِقَتْ أَمْعَائِي؟ إلهي لئن طالبتني بذنوبي لأُطالِبَنَّكَ بكرمك، ولنن حبستني مع الخاطئين لأُخبرنهم بحبي لك! سيدي إنَّ طاعتي لا تنفعك، ومعصيتي لا تضرك، فهب لي ما لا ينفك، واغفر لي ما لا يضرُّك، فأنت أرحم الراحمين" (1).

إن مسك الإمام (ع) للركن اليماني عند دعائه الأول، وتغفير خذه بالتراب في دعائه الآخر - فضلا عن دلالاته العبادية - يشير إلى أن اللغة وحدها لم تعد كافية في توصيل ما يريد، فيلجأ إلى الحركة للتعبير عما في داخل ذاته (2).

وقد شهدت الكوفة عددا من أدعيته (ع)، وكذلك شهدت كربلاء عددا كبيرا منها، زيادة على جبل عرفة (3)، وجل المسلمين يعرفون قدسية هذه الأماكن، وما لها من إشعاع روحي ودافع تعبدى يعضدان الأصرة بين المخلوق والخالق.

عاشرا = استجابة الدعاء: معلوم أن من متمات الدعاء استجابة الدعاء، فالاستجابة تمثل الشطر الآخر من الدعاء، والعلاقة بين الدعاء واستجابته هي علاقة متبادلة لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (4)، وهكذا قرن (سبحانه وتعالى) بين الدعاء والاستجابة، وهذا ما حصل للأنبياء (ع) والصالحين. ومن ذلك ما جاء عن أيوب (ع) في القرآن الكريم: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (5)، واستجابة الدعاء - هنا - مبنية على قضيتين هما: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (6). ومن المهم أن يتقن الداعي الإجابة؛ لأنَّ تيقن الإجابة من حسن التعبد (7)، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَرَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (8).

لقد استجاب الله (تعالى) لأدعية الحسين (ع)، وتمثلت الاستجابة بصورتين:

الأولى: هي الاستجابة العاجلة.

والأخرى: هي الاستجابة الآجلة.

وهذا التقسيم يقع مصداقا لقول المصطفى (ص): ((ما من مؤمن يدعو الله إلا استجاب، فإما أن يعجله له في الدنيا، أو يؤجله له في الآخرة)) (9).

ومن الاستجابات العاجلة التي حصلت لعدد من أدعية الحسين (ع) استجابة دعائه في الاستسقاء، "فما فرغ (ع) من دعائه حتى غاث الله تعالى غيثا بغثة! وأقبل

(1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 152/1، وينظر: إحقاق الحق: 424/11، وموسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) 945.

(2) للتوسع في تأثير حركة الجسد في التوصيل، ينظر: من سيميولوجيا الاتصال، د. محمد غيلان، في ضمن كتاب السيميائية والنص الأدبي: 257.

(3) ينظر: وقعة الطف: 246، 250، وعيون الأخبار: 303/2، ومسند الإمام أحمد بن حنبل: 201/1، والإرشاد: 347، وإقبال الأعمال: 426، وبحار الأنوار: 187/44.

(4) غافر/من 60.

(5) الأنبياء/83 - من 84.

(6) الأنبياء/من 84.

(7) ينظر: أصول الكافي: 466/2.

(8) يوسف/110.

(9) بحار الأنوار: 288/93.

إعرابي من بعض نواحي الكوفة، فقال: تركت الأودية والآكام يموج بعضها في بعض" (1).

ومن استجابات الأدعية العاجلة أيضا ما حصل في يوم عاشوراء، فقد شهد هذا اليوم استجابة كثير من أدعية الحسين (ع) منها: "أن أحد أعداء الحسين (عليه السلام) في صبيحة عاشوراء تحدى الحسين (عليه السلام) وقال: أبشر يا حسين بالنار! فأجابه الحسين: كذبت بل أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع، فمن أنت؟ قال: ابن حوزة، فرفع الحسين يديه حتى بان بياض إبطيه وقال: "اللهم حُزه إلى النار" (2)، فغضب ابن حوزة، فذهب ليقحم الفرس في نهر بينهما، فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به متعلقا بالركاب، فسقط عنها، فانقطعت فخذه وساقه وقدمه، وبقي جنبه الآخر متعلقا بالركاب يضرب به كل حجر وشجر حتى مات، فلما رأى أحد أصحاب ابن حوزة ما صنع الله بابن حوزة بفضل دعاء الحسين، رجع عن عسكره وقال: لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئا، لا أقاتلهم أبدا (3).

ولا شك في أن ظهور بياض إبطي الإمام (ع) خلال الدعاء إنما يجسد توجهها حارا لله تعالى، وإشارة ملحة لرغبته في توصيل الدعاء وشوقه إلى الاستجابة منه سبحانه، وقد فعل.

وأما الصورة الأخرى لاستجابة الدعاء (الاستجابة الآجلة) فإنها - كما أحسب - تحققت في حقتين من الزمن:

(أ) **بُعِيد المعركة:** منها ما حصل من استجابة دعاء للإمام (ع) على عمر بن سعد قائد الجيش الأموي المعادي يوم كربلاء، فعندما برز ابن الإمام الحسين عليّ الأكبر (ع) إلى القتال، دعا الإمام (ع) على عمر: "ما لك! قطع الله رحمتك، ولا بارك الله في أمرك، وسلط عليك من يذبحك على فراشك، كما قطعت رحمتي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله" (4)، ثم لم تمض الأيام إلا قليلا حتى قُتل عمر بن سعد وابنه شر قتلة (5). وذكر المؤرخون أنه "لم يبق من قتلة الحسين أحدٌ إلا عوقب في الدنيا إما بالقتل، أو العمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة" (6).

(ب) **دِيمُومَة استجابة الدعاء:** وهذه الاستجابة هي عبارة عن ديمومة كرامات الحسين (ع) التي استمرت منذ استشهادهِ إلى ما شاء الله تلبية لدعائه: "رَبِّ إِن تَكُ حَبَسْتَ عَنَّا النَّصْرَ مِنَ السَّمَاءِ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ" (7)، فإن لم يبلغ الإمام الحسين (ع) النصر العسكري فقد بلغ الفتح: "من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح" (8). والفتح هو أن جعل الله (تعالى) دمه الزكي حصنا منيعا لتعاليم

(1) معاجز الإمام الحسين (ع)، هاشم البحراني، تح: علاء الدين الأعلمي: 36-37، وينظر: عيون المعجزات: 64، وبحار الأنوار: 187/44، وموسوعة كلمات الإمام الحسين (ع): 170-171.

(2) وقعة الطف: 187/44، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع): 170-171.

(3) ينظر: تاريخ الطبري: 431/5، ومقتل الحسين، المقدم: 240.

(4) مقتل الحسين، الخوارزمي: 35/2، وينظر: مقتل الحسين، المقدم: 269.

(5) ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 253/2-254، وينظر: منتهى الآمال: 518/3.

(6) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي، شمس الدين أبو البركات: 92، وينظر: حياة الإمام الحسين (ع): 457/3.

(7) وقعة الطف: 246، وينظر: يوم الحسين: 187.

(8) دلائل الإمامة، الصدوق: 77، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 108.

الرسالة السماوية السمحاء، ونهرا خالدا ينهل منه الأحرار في كل زمان ومكان؛ فمشهده "مزار يطيف به المسلمون متفقيين ومختلفين، ومن حقه أن يطيف به كل إنسان؛ لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الأدمي بين سائر الأحياء، فما أطلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء"⁽¹⁾.

حادي عشر: المناجاة عنده (ع): من المناسب الإشارة إلى أن نوع المناجاة لم يرد إلينا منه إلا نموذج واحد عن الإمام الحسين (ع)، مما لا يشكل بالنتيجة ظاهرة متميزة في أدبه (ع)، جاء في تلك المناجاة: "اللهم أنت متعالى المكان، عظيم الجبروت، شديد المحال، غني عن الخلق، عريض الكبرياء، قادر على ما يشاء، قريب الرحمة، صادق الوعد، سابغ النعمة، حسن البلاء، قريب إذا دعيت، محيط بما خلقت، قابل التوبة لمن تاب إليك، قادر على ما أردت، ومدرك ما طلبت، وشكور إذا شكرت، وذاكر إذا ذكرت، أدعوك محتاجا، وأرغب إليك فقيرا، وأفزع إليك خائفا، وأبكي إليك مكروبا، وأستعين بك ضعيفا، وأتوكل عليك كافيا. أحكم بيننا وبين قومنا، فإنهم غرّونا وخذلونا وغدروا بنا وقتلونا، ونحن عترة نبيك وولد حبيبك محمد بن عبد الله، الذي اصطفيته بالرسالة وانتتمته على وحيك، فاجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا برحمتك يا أرحم الراحمين"⁽²⁾.

خاتمة: من خلال ما تناوله هذا المبحث في التعريف بدعاء الحسين (ع) تبين لنا مدى أهمية هذا النوع وما يشكله من مساحة فنية وكمية في أدب الإمام الحسين (ع)، زيادة عن اكتنازه بالجوانب الروحية والإنسانية والعلمية. وقد تميزت أدعيته (ع) على اختلاف أنواعها، بتوافرها على العاطفة، ملؤها الإيمان والرضا بأمر الله (تعالى)، يفوح منها عبق الحب الإلهي، وتلك سمات مشتركة في عموم أدعية أهل البيت (ع)، التي تنتهي بالتسليم والرضا بمشيئة الله (تعالى)⁽³⁾. كما اتسمت أدعيته (ع) وفي أسبقة مختلفة بتلقيها استجابات شاخصة باهرة، إكراما منه تعالى، فضلا عن اتساع فضاءات تلك الأدعية لتستوعب الذات والجماعة.

(1) أبو الشهداء الحسين بن علي، عباس محمود العقاد: 161.

(2) إقبال الأعمال: 205، وينظر: مقتل الحسين، المرقم: 296، وخطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 300.

(3) ينظر: دعاء الإمام علي (ع) - دراسة لغوية أسلوبية: 32.

المبحث الثالث

الرسالة

أولا/الرسالة في اللغة والاصطلاح: لم تحفل المعاجم اللغوية الأصول(كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، ولسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، والصاحح للجوهري)، ببيان معنى الرسالة، بوصفها نوعا أدبيا قوامه الكتابة، بل تطرقت لهذا المعنى في دلالة(الكتاب) اللغوية:"والكتاب والكتابة: مصدر كتبت"(1)، والكتاب هو"الصحيفة والدواة"(2).

والرسالة هي:"النص المدون الذي يبعثه المرسل إلى المرسل إليه"(3)، أو هي:"ما يكتبه امرؤ إلى آخر مُعَيَّرا فيه عن شؤون خاصة أو عامة"(4). والرسالة "يمكن أن تكون وصفا للخلق والخلق ووصفا للأمكنة والأشخاص أو قصة للأخبار والأعمال"(5).

لقد تحدث الباحثون على فن الرسالة وأطنبوا، وزادوا على ذلك وفصلوا، حتى إن أبا هلال العسكري(ت395هـ)، قرن بينها وبين الخطبة، إذ قال:"واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب، مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما، إلا أن الخطبة يشافه بها، والرسائل يكتب بها"(6)، زيادة عن أن للرسالة، بالمقارنة مع الآثار الأدبية المحض، ذلك الاختلاف في أنها موجهة في الغالب إلى شخص معروف من الكاتب، وأنها تتعلق في أغلب الأحيان بمعطيات خارجية، من ظروف وأحداث مختلفة(7).

ثانيا/أثر الإمام الحسين(ع) في ازدهار الكتابة: لم يعتمد العرب قبل ظهور الإسلام الكتابة في شؤونهم المختلفة- إلا في النادر- لأنهم "كانوا أميين لا يكتبون"(8)، مما أدى إلى عدم ازدهار الكتابة وانتشارها، ولذا كان تاريخ العرب معتمدا في حفظه وبقائه على قلة من الأفراد يحفظون الشعر وأنساب العرب وأيام الجاهلية(9)، وكل ذلك جعل الرسائل- آنذاك- غير مزدهرة.

(1) كتاب العين: مادة(ك ت ب).

(2) لسان العرب: مادة(ك ت ب).

(3) الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا:16.

(4) المعجم الأدبي:122.

(5) أساليب النثر الفني، لطيف محمد العكام:80.

(6) كتاب الصناعتين:136.

(7) ينظر: الأدب والأنواع الأدبية، نخبة من الأساتذة، تر: طاهر حجار:219.

(8) البيان والتبيين:28/3، وينظر: فجر الإسلام، أحمد أمين:41.

(9) ينظر: أصول الكافي:49/1.

ولما ظهر الإسلام اتخذ الكتابة ركيزة مهمة من ركائزه؛ فقد كان القرآن الكريم يمثل مرحلة انتقال من الارتجال إلى الكتابة، وتصوراً جديداً للعالم إيذاناً بنهاية البداوة وبداية المدنية⁽¹⁾. إذ جاء في أول آية نزلت على رسول الله (ص): ﴿أَفْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * افْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽²⁾.

وشجع الرسول (ص) المسلمين على تعلم الكتابة بطرائق مختلفة؛ منها أنه جعل فداء عدد من أسرى قريش في معركة بدر، ممن تعلموا الكتابة، أن يعلموها عشرة من أفراد المدينة⁽³⁾.

والمعروف أن أواخر العصر الراشدي، والعصر الأموي، كان مرحلة مضطربة شهدت ظهور أحزاب سياسية متعددة، فكانت الرسائل الوسيلة المهمة التي لجأت إليها كل الأطراف السياسية المتخاصمة للدفاع عن أهدافهم، ودعم حُججهم، وتقنيد مزاعم خصومهم، والكشف عن مساوئهم وتآليب الناس عليهم⁽⁴⁾.

والإمام الحسين (ع) عاش تلك الحقبة الزمنية المضطربة، التي واجهه (ع) خلالها أحداثاً عصيبة ما انفكت تصارعه طوال حياته الجهادية حتى استشهاده (ع)؛ فلذا حققت الرسائل حضوراً متميزاً في أدبه (ع).

والتقدم زمنياً يوصلنا إلى ابن الأثير (ت 637هـ) الذي جعل الكاتب عدل السيف في الدولة، إذ قال: "والكاتب هو أحد دعامتي الدولة؛ فإن كل دولة لا تقوم إلا على دعامتين من السيف والقلم"⁽⁵⁾، وزاد على هذا المعنى بقوله: "وربما لا يفتقر الملك في ملكه إلى السيف إلا مرة أو مرتين، وأما القلم فإنه يفتقد إليه على الأيام"⁽⁶⁾.

وعلى أية حال تبقى الكتابة "أكد أسباب الحضارة وأوثق وسائل العمران"⁽⁷⁾، و"يكفي أن نقول إنه ليس هناك حادث مهم ولا ثورة إلا والرسائل تتساقط كالغيث"⁽⁸⁾.

ولعل الناظر في الكم الهائل من الرسائل التي استقبلها الإمام الحسين (ع) في حياته، ولاسيما بعد إعلان ثورته (عام 60هـ)، لا يخامرهم شك في أثر هذه الحركة وفعاليتها في ازدهار الرسائل وتطورها في ذاك العصر، إذ طفق أهل الكوفة وأشرافها يبعثون إليه الرسائل، حتى وصل إليه في يوم واحد خمسون كتاباً، وفي رواية أخرى مئة وخمسون كتاباً، من الرجلين والثلاثة، يسألونه القدوم عليهم، وهو مع ذلك يتأني، فلا يجيبهم، وتواترت الكتب، حتى اجتمع عنده في نوب مختلفة اثنا عشر ألف كتاب، فأصبح لديه عند مسيره إلى كربلاء، خرجان مملوآن بالكتب، فضلاً عن النشاط المحموم في مفاصل الدولة الأموية بشأن ثورة الإمام (ع)، إذ صورت الرسائل ذلك النشاط الملحوظ أدق تصوير، يؤيد ذلك تعدد المدن التي شهدت

(1) ينظر: صدمة الحادثة، أدونيس: 23.

(2) العلق/1-5.

(3) ينظر: الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الزهري: 16/2، وفجر الإسلام: 142.

(4) ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي: 86.

(5) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 50/2.

(6) م.ن: 355/2.

(7) الأدب الإسلامي- المفهوم والقضية علي علي صبح وآخرون: 142.

(8) تاريخ الأدب العربي- العصر الأموي، د. شوقي ضيف: 460.

رسائل الإمام الحسين زيادة على رسائل أعدائه، وهي: الشام مقر الخلافة الأموية، والمدينة، ومكة، وفي أثناء مسيره إلى العراق، والبصرة، والكوفة، وكرلاء⁽¹⁾.

ثالثاً/المؤهلات الكتابية للإمام الحسين(ع): البحث في جذور علاقته بالرسائل يجعلنا نجده قد اطلع على فن الرسائل في مراحل مبكرة من حياته، إذ شهد عدداً من الكتب التي بعثها جده المصطفى(ص) إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الدين الجديد، ولما شبَّ قرأ كتب والده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع) التي كان يبعثها إلى الولاة وتمرس على أساليبها، ثم جاءت رسائله موشاة بالأفكار المولدة، ومنمقة بالأساليب البلاغية⁽²⁾.

رابعاً/عدد رسائله(ع) وأطوالها: من خلال الاهتمام بالجانب الإحصائي لرسائل الإمام الحسين(ع)، نلاحظ أن عدد رسائله، الذي وصل إلينا، بلغ إحدى وعشرين رسالة. وهذا العدد القليل من الرسائل، لا يتناسب وحاجة الحوادث الجسام التي واجهها، للرسائل، زيادة عن مكانته الدينية المرموقة التي تتطلب منه الإجابة عن مختلف أسئلة المسلمين.

واعتقد أن قلة الرسائل التي وردت إلينا، تعود إلى ضياع عدد كبير منها، ولعل الدليل على ذلك، أن صاحب كتاب(جمهرة رسائل العرب) لم يستطع أن يجمع من رسائل العصر الأموي- الذي امتد زهاء قرن من الزمن- إلا خمس مئة وثلاثاً وثلاثين رسالة، لعصر كان أكثر العصور الإسلامية اضطراباً⁽³⁾. ويمكن تقسيم رسائله(ع) التي وصلت إلينا على ثلاثة أقسام:

1= الرسائل القصيرة: وبلغ عددها إحدى عشرة رسالة، وقد تراوح عدد الأسطر فيها من سطر إلى أربعة أسطر. ومن ذلك ما كتبه(ع) لرجل طلب منه أن يعظه بحرفين: "من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر"⁽⁴⁾.

2= الرسائل متوسطة الطول: وبلغ عددها سبع رسائل، وانحصر عدد الأسطر فيها بين خمسة أسطر وعشرة أسطر. ومنها رسالته(ع) إلى أهل البصرة يدعوهم إلى نصرته: "أما بعد، فإن الله اصطفى محمداً(صلى الله عليه وسلم) على خلقه وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعبادة وبلغ ما أرسل به(صلى الله عليه وسلم)، وكنا أهله وأولياؤه وأوصياؤه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا

(1) ينظر: تاريخ البعقوبي، البعقوبي: 156/2، وتاريخ الطبري: 402/5، والملهوف على قتلى الطفوف: 105، ومقتل أبي عبد الله الحسين(ع): 229/1، والرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي: 254، والوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين، عبد الكريم الحسيني القزويني: 51.

(2) ينظر: الطبقات الكبرى: 285/1، والإمام الحسين قيس من نور، د. عباس حسن نصر الله: 49.

(3) ينظر: جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت: العصر الأموي إجمالاً، وتاريخ الترسل النثري عند العرب، محمود المقداد: 539.

(4) أصول الكافي: 319/2، وينظر: تحف العقول: 177.

وأصلحوا، وتحروا الحق، فرحمهم الله، وغفر لنا ولهم. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله" (1).

3= الرسائل الطويلة: وعددها رسالتان فقط، وانحصر عدد الأسطر فيها بين أحد عشر سطرا وثمانية عشر سطرا. ومن ذلك ما كتبه (ع) جوابا لرسالة الحسن بن أبي الحسن البصري التي سأله فيها عن القدر: "اتبع ما شرحت لك في القدر مما أفضي إلينا أهل البيت فإنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل فقد افتري على الله افتراء عظيما، إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد في الهلكة، لكنه المالك لما ملّكهم، والقادر لما عليه أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن الله صادّا عنها مبطنّا، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء أن يمن عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به فعل، وإن لم يفعل، فليس هو حاملهم عليها قسرا، ولا كلفهم جبرا، بتمكينه إياهم بعد إعداره وإنذاره لهم واحتجاجة عليهم طوقهم ومكنهم، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما إليه دعاهم، وترك ما عنه نهاهم، جعلهم مستطيعين لأخذ ما أمرهم به من شيء غير آذنيه، ولترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركه، والحمد لله الذي جعل عباده أقوياء لما أمرهم به، ينالون بتلك القوة وما نهاهم عنه، وجعل العذر لمن يجعل له السبيل، حمدا متقبلا" (2)، وأورد المجلسي تنمة لهذه الرسالة: "فأنا على ذلك أذهب وبه أقول، والله وأنا وأصحابي أيضا عليه، وله الحمد" (3).

وكانت تلك الأعداد على وفق ما افترضناه من مقياس طول جهدنا أن يتناسب وواقع رسائل الإمام، ولذلك استثنينا من المقياس الأخير رسالة واحدة، هي من أطول رسائل الإمام وأوعبها؛ حفاظا على معدلات طول مقبولة، إذ بلغ عدد الأسطر فيها أربعين سطرا، موجهة إلى معاوية بن أبي سفيان ومما ورد فيها: "أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور، لم تكن تظنني بها، رغبة بي عنها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدد إليها إلا الله تعالى" (4).

إن اختلاف الأطوال في رسائل الإمام (ع) إنما كانت تقتضيه الحاجة، ويتطلبه المقام، وقد نبه الجاحظ (ت255هـ) لهذا المعنى بقوله: "وربما كان الإيجاز محمودا، والإكثار مذموما، وربما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز ولكل مذهب ووجه عند العاقل، ولكل مكان مقال، ولكل كلام جواب" (5). وبرهن ابن قتيبة (ت276هـ) على أن الإيجاز والإطناب كليهما من أسلوب القرآن، في أحواله المختلفة، إذ قال: "ولو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك،

(1) تاريخ الطبري: 357/5، وينظر: الكامل في التاريخ: 477/3، وجمهرة رسائل العرب: 75/2-76.

(2) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا (ع)، المؤتمر العالمي للإمام الرضا، تح: مؤسسة أهل البيت (ع): 408-409، وينظر: معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (عليهم السلام)، محمد بن الحسن الكاشاني: 46/2.

(3) بحار الأنوار: 123/5.

(4) الإمامة والسياسة: 46/1، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 58/2-64.

(5) رسائل الجاحظ، الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون: 152/4.

ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام⁽¹⁾. وأكد المبرد(ت285هـ) أن: "من كلام العرب، الاختصار المفهم، والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشيء، فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، كما قيل لمحبة دالة"⁽²⁾. ومعلوم أن أهل البيت(ع) جميعهم تمثلوا أساليب القرآن الكريم في خطاباتهم. ومن المناسب الإشارة- هنا- إلى أن رسائل الإمام(ع)، قد مالت في عددها الأغلب إلى القصر، وأحسب أن لهذه الصفة - زيادة على ما تقدم ذكره- عدة أسباب أخر؛ منها أن دلالة كلمات الإمام(ع) - كما تكشفها نصوصه- مرتبطة بشخصه(ع) ومركزة تموج بمعان عديدة، ومن مثل هذه الحال رأى بعضهم أن الوضع الطبيعي لعلاقة أي مرسل برسالته هو تلك "العلاقة المباشرة التي تربط الذات المتكلمة بكلامها الخاص"⁽³⁾، ومنها- أيضا- وجود الرسول(حامل الرسالة) الذي يتكفل بإيضاح ما غمض والاستزادة بالشرح والتفصيل، إذا ما طُلب منه ذلك، فضلا عن حماية المتلقي من أن يشتط في قراءة المعاني⁽⁴⁾.

خامسا/موضوعات رسائله(ع): مثلما تنوعت أطوال رسائله، كذلك تنوعت موضوعات رسائله. وكلّ من يطلع على رسائل الإمام(ع) يتبين له أن الفصل بين هذه الأنواع بشكل جلي أمر ليس بالممكن؛ لذلك لا نجد في أغلب رسائله نصا نقيًا لنوع معين من أنواع رسائله؛ للمسوغات ذاتها التي ألمحنا إليها في خطبه. ومع ذلك يمكن أن نقول إنها كانت على ثلاثة أنواع:

أ) **الرسائل السياسية:** لا شك في أن إعلاء كلمة الدين، مقرون بصلاح المسلمين، وصلاح المسلمين مقرون بصلاح السلطان، والإمام(ع) يرى أن سلطان بني أمية سلطان جائر، اغتصب حقّ الشرعي في الخلافة، وهكذا كان الصراع طويلا مع السلطة الحاكمة؛ لذا شغلت الرسائل السياسية الجزء الأكبر من مساحة نتاجه الرسالي، لتكون أداة مهمة من أدواته الأدبية التي أدت أثرا فاعلا في مسيرته الجهادية. ومن ذلك ما جاء في إحدى رسائله إلى أشرف الكوفة، التي يدعوهم فيها إلى الثبات على موقفهم المناهض لحكم يزيد: "بسم الله الرحمن الرحيم من الحسين بن علي إلى سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة، ورفاعة بن شداد، وعبد الله بن وال، وجماعة المؤمنين أما بعد فقد علمتم أن رسول الله(ص) قد قال في حياته: ((من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يغير بقول ولا فعل، كان حقيقا على الله أن يدخله مدخله)) وقد علمتم أن هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان، وتولوا عن طاعة الرحمن، وأظهروا في الأرض الفساد، وعطلوا الحدود،

(1) أدب الكاتب، ابن قتيبة، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد: 20- 21، وينظر: كتاب الصناعتين: 159.

(2) الكامل في اللغة والأدب: 1/ 27.

(3) النص والتأويل: منصف عبد الحق: 40.

(4) ولأهمية حامل الرسالة في ذهن الإمام(ع) استوضح من هاني بن هاني السبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي - وهما رسولاً أهل الكوفة إليه - عن أصحاب الرسالة التي جاء بها، بقوله: "خبراني من اجتمع على هذا الكتاب الذي ورد عليّ معكما؟". الملهوف على قتلى الطفوف: 106، وينظر: مقتل الإمام الحسين أو واقعة الطف، محمد تقي آل بحر العلوم: 152.

واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وإنّي أحقّ بهذا الأمر لقرايتي من رسول الله (ص). وقد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم، أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن وفيتم لي ببيعتكم فقد أصبتم حظكم ورشدكم، ونفسي مع أنفسكم وأهلي وولدي مع أهاليكم وأولادكم، فلکم بي أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهودكم وخلعتم بيعتكم، فلعمري، ما هي منكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم، ﴿فَمَنْ نَكَّثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ﴾، وسيغني الله عنكم والسلام⁽¹⁾.

(ب) الرسائل الدينية: كان اهتمام الإمام (ع) بالرسائل الدينية لا يقل عن اهتمامه بالرسائل السياسية على الرغم من "أن موضوع الدين، في ترسل العصر الأموي، قد تراجع القهقري، قياسا عليه في ترسل صدر الإسلام، حتى لم تكن معانيه لتتردد غير شذرات يسيرة في كتب الخلفاء والعمال والرعية؛ وذلك لإقبال الناس على الدنيا، وانهمالكهم في متاعها"⁽²⁾، وقد طفح هذا اللون من الرسائل عند الإمام الحسين (ع) بمعاني القرآن وعلومه والمسائل الفقهية وما يتعلق بعبادات المسلمين ومعاملاتهم، زيادة على معاني الورع والزهد.

لذلك نرى أن أغلب رسائل الإمام (ع) الدينية ما هي إلا جوابات على رسائل المسلمين، على اختلاف أمصارهم وطبقاتهم المعرفية والاجتماعية، عندما كانوا يرسلونه فيما استصعب عليهم من أمور دينهم.

وقد أورد الشيخ الصدوق (ت381هـ) إحدى رسائله الجوابية لرسالة أهل البصرة يسألونه فيها عن معنى الصمد: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))، وإن الله سبحانه قد فسر الصمد فقال: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ثم فسره فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. (لَمْ يَلِدْ) لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا يتشعب منه البدوات كالسنة والنوم والخطرة والهم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسأمة والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف لطيف"⁽³⁾.

ثم فسر (ع) (وَلَمْ يُولَدْ) فقال: "لم يتولد من شيء ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشيء من الشيء والدابة من الدابة والنبات من الأرض والماء من الينابيع والثمار من الأشجار، ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين والسمع من الأذن والشم من الأنف والذوق من الفم والكلام من اللسان والمعرفة والتميز من القلب كالنار من الحجر، لا بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها

(1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 334/1-335، وينظر: الكامل في التاريخ: 502/3، والملهوف على قتلى الطفوف: 135. والنص القرآني في: الفتح/ من 10.

(2) تاريخ الترسل النثري عند العرب: 249.

(3) التوحيد: 88. والنصان القرآنيان في: الإخلاص/ من 1-2، و3-4 على التوالي. وكلمة (تخرج) في الأصل (يخرج).

ومنشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه فذلکم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ولم يكن له كفوا أحد⁽¹⁾.

ج) الرسائل الشخصية: كشف عدد قليل من رسائل الإمام(ع) عن نوع آخر من أنواع رسائله، اهتم بالجانب الشخصي لحياته(ع)؛ لينتمي إلى نوع(الرسالة الشخصية)⁽²⁾.

والرسائل الشخصية فن قديم من فنون العربية وجد في النثر كما وجد في الشعر⁽³⁾. فهي نوع من "الرسائل التي تتناول العلاقات الإنسانية بين الأفراد في صورة تهنئة، أو تعزية، أو توصية، أو شكر، أو شوق، أو اعتذار، أو نحو ذلك من شؤون الحياة الخاصة"⁽⁴⁾، وتصدر غالباً من أشخاص ذوي مكانة سياسية أو دينية سامية في المجتمع، يتبادلون بينهم تلك الرسائل الخاصة التي تتميز بالإبداع والفن في موضوعات متباينة أوحث بها تلك الظروف والملابسات المختلفة التي كانت حافزاً لتحبيرها وشيوعها⁽⁵⁾. ولعل هذا النوع من الرسائل يكون أقرب من غيره انطباعاً بشخصية منشئها أو أسلوبه في التعبير⁽⁶⁾.

وتوحي قلة رسائل الإمام(ع) لهذا النوع من الرسائل، بقلة اهتمامه بالجانب الشخصي من حياته(ع)، وانصرافه إلى ما يتعلق بشؤون المسلمين، ما لم تترتب على ذلك آثار دينية أو سياسية، فيكون مسوغاً لاهتمامه بالجانب الشخصي، كما جاء في رسالته إلى معاوية بن أبي سفيان، التي اتهمه فيها بتغريب غلام هاشمي بشراء أرض منه لا تعود إليه: "أما بعد؛ فإنك غررت غلاماً من بني هاشم، فابتعت منه أرضاً لا يملكها، فاقبض من الغلام ما دفعته إليه، وأردد إلينا أرضنا"⁽⁷⁾، وقد انمازت أغلب رسائله الشخصية بالإيجاز الشديد بشكل ميّزها عن بقية الأنواع فضلاً عن قلتها في أدبه(ع)، وكانت أبرز موضوعات هذا النوع هي النصيحة والوصية واللوم والتفريع.

سادساً/البنية الإسلامية للرسالة عنده(ع): إذا ما حققنا النظر في تركيب النصوص الرسالية للإمام(ع) نلاحظ أنه قد راعى البناء الفني الإسلامي لرسائله. ومن ذلك ما جاء في رسالة له إلى أهل الكوفة يجيب فيها دعوتهم المتكررة للقدوم عليهم: "بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبر فيه بحسن رأيكم واجتماع ملئكم على نصرنا والطلب بحقتنا،

(1) التوحيد: 88-89. وكلمة(تخرج) في الأصل(يخرج).
(2) وتسمى أيضاً الرسائل الإخوانية أو الرسائل الأهلية أو الرسائل الاجتماعية بمعنى أوسع. ينظر: جواهر الأدب، أحمد الهاشمي: 36/1، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك: 163/1، والفن ومذاهبه في النثر العربي: 104، وأساليب النثر الفني: 84.
(3) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري: 163/1.
(4) أساليب النثر الفني: 84.
(5) ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي: 249.
(6) ينظر: جواهر الأدب: 36/1.
(7) شرح نهج البلاغة: 82/3، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 42/2.

فسألت الله أن يحسن لنا الصنيع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجة، يوم التروية، فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته⁽¹⁾.

لقد ابتدأ الإمام الحسين(ع) هذا النموذج بالبسملة(بسم الله الرحمن الرحيم)، ومعروف أن البسملة من ضروريات المنهج الإسلامي، ثم انتقل إلى ذكر عنوان المرسل والمرسل إليه المتمثل بقوله:(من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين)، وقد ابتدأ الإمام في العنوان بنفسه؛ بوصفه إماما مفترض الطاعة وهو في موقع القائد والموجه. ثم انتقل إلى التحية:(سلام عليكم)، ثم إلى الدعاء أو التحميد:(أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو)، وبعد ذلك ينتقل إلى الفاصلة أو أداة التخلص:(أما بعد).

وبذلك تنتهي أجزاء مقدمة الرسالة التي تمثل تمهيدا للولوج إلى الموضوع، ثم الموضوع الذي لأجله أنشئت الرسالة، وبدونه لا تبقى للرسالة قيمة تُذكر، ويكون عادة أطول أجزاء الرسالة:(فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه [...])، فإني قادم في أيامي هذه إن شاء الله).

ثم ينتقل إلى الجزء الأخير من الرسالة، وهو الدعاء أو الختام، الذي غالبا ما يكون إعادة للتحية الأولى وزيادة:(والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

ولا ريب في أن هذا النموذج من الرسائل قد انتهج منهجا فنيا إسلاميا متكاملا⁽²⁾، ليزداد يقيننا رسوخا باقتداء الإمام(ع) بهذا النهج المتبع، إلا أن هذا النموذج ربما كان وحيدا في تكامله، إذ يكاد يكون ما سجّل من رسائله(ع) جميعه قد فقد عنصرا أو أكثر من عناصر المنهج الستة آنفة الذكر، كحال أغلب ما سجّل من رسائل العصر الأموي⁽³⁾.

والجدول الإحصائي الآتي يوضح عدد المرات التي ورد فيها كل عنصر من عناصر المنهج الفني الإسلامي في رسائل الإمام الحسين(ع):

عدد رسائل الإمام الحسين(ع) الكلي(21 رسالة

التسلسل	عنصر المنهج المثالي	عدد الرسائل
1	البسملة	11
2	العنوان	10
3	التحية(السلام)	2
4	التحميد	1

(1) وقعة الطف:160، وينظر:جمهرة رسائل العرب:80/2-81، ومع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة:70/2-71.

(2) للاستزادة عن المنهج الفني الإسلامي في الرسائل، ينظر على سبيل المثال:كتاب الصناعتين:136، 154، 159، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:80/1، 209، والنثر الفني في القرن الرابع الهجري:58/1، والحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، محمد عبد المنعم خفاجي:156، وتاريخ الترسل النثري عند العرب:379-380.

(2) ينظر:جمهرة رسائل العرب:الجزء الثاني إجمالا.

5	التخلص (أما بعد)	15
6	الختام	11

فمن خلال الجدول الإحصائي لعناصر المنهج الفني يتضح أن عددا كبيرا من رسائله (ع) قد خلت من البسملة، وخلوها من البسملة جاء - كما أحسب - على وفق جانبيين:

الأول: قصدي؛ فالذي يستقري نصوص الإمام (ع) الموجهة لأعدائه، يجدها خالية من البسملة؛ وذلك لأن وجود البسملة لا يتناسب وطبيعة الخطاب الساخن المتوتر مع الأعداء، وهذا السبب يسوغ أيضا عدم وجود عنصر التحية والتحميد لأنهما يعكسان معاني الرحمة والاطمئنان التي يفتقدها هذا النوع من النصوص، جاء في إحدى رسائله إلى معاوية: "من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد، فإن عيرا مرت بنا من اليمن تحمل مالا وحللا وعنبرا وطيبا إليك لتودعها خزائن دمشق وتعل بها بعد النهل ببني أبيك، وأني احتجت إليها فأخذتها والسلام" (1).

الثاني: غير قصدي أو غير صادر من الإمام (ع) أصلا؛ لأن عدم ذكر البسملة دون مسوغ يخالف المشهور، ولا سيما مع الإمام الحسين بوصفه شخصية دينية رفيعة.

ونلاحظ أيضا عدم وجود العنوان في عدد كبير من رسائله، وقد يعني هذا عدم تحديد وجهة الرسالة، وهذا يحتمل في عدد قليل من رسائله؛ لوجود (حامل الرسالة) الذي يتوجه بالرسالة إلى الجهة المقصودة (2)، فضلا عن سياق الرسالة الذي يمكن أن يشير إلى العنوان المراد؛ لأن "المعنى والسياق متلازمان خاصة إذا حدث الغموض حينئذ ليس هناك بد من اللجوء إلى السياق" (3)، ولكن عدم وجود العنوان بهذا الكم الكبير ولأنواع مختلفة من الرسائل أمر لا يبعث على الاطمئنان؛ لما هو معروف من أهمية العنوان في الرسائل.

أما التحية أو السلام، فكان أقل حضورا من بقية عناصر المنهج السابقة، وهذه الظاهرة أيضا تدخل في حيز التساؤل!

وأما عنصر التحميد الذي يشكل ركنا دينيا مهما؛ لورود الحديث النبوي الشريف: ((كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع)) (4)، فيكاد يكون معدوما في رسائله (ع)، فإن كان عدم ورود التحميد في الرسائل الإسلامية مستساغا عندما تكون في أمر غير ضروري، فالحال أن كثيرا من رسائل الإمام (ع) كانت في أمر مهم

(1) شرح نهج البلاغة: 327/4، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 25/2. و(الغلّ والعلل): الشرب بعد الشرب تباعا، و(النهل): أول الشرب. ينظر: لسان العرب: مادة (ع ل ل)، ومادة (ن ه ل).

(2) رصد الباحث هذا التوجيه في عدد من المصادر، ينظر: على سبيل المثال، تاريخ الطبري: 380/5، ومقاتل الطالبين: 190.

(3) علم اللغة النصي: 105 /1.

(4) المجازات النبوية، الشريف الرضي: 184، وينظر: صبح الأعشى، القلقشندي: 225/6، والاسم الأعظم أو معارف البسملة، محمد الغروي: 13، وأثر القرآن في الأدب العربي، د. ابتسام مرهون الصفار: 301.

وربما مصيري، وهذا الأمر يتطلب أن يتوافر التحميد في أغلب رسائله، وهو غير حاصل في رسائله (ع) إلا في نموذج واحد⁽¹⁾.

ونلاحظ أيضا أن أغلب رسائله تبدأ بعد البسملة أو بدونها بـ(أما بعد)، بمعنى عدم وجود العنوان والسلام والتحميد زيادة على البسملة- في أحايين كثيرة- قبل ورود الفاصلة(أما بعد)⁽²⁾ وهذا الأمر يجانب الحقيقة ويجافي المنطق؛ لأن تعبير(أما بعد) يفهم من خلاله أن هناك كلاما قد سبقها، فهي تفصل بين السابق واللاحق، زيادة على أن كاتب الرسالة "في فسحة من تحكيكها وتكرار النظر فيها وإصلاح خلل إن وقع في شيء منها"⁽³⁾.

وغني عن القول أن وجود الرسالة مقرون بوجود موضوع الرسالة، الذي اتخذ أنواعا متعددة وأطوالا مختلفة وأساليب متنوعة، والناظر في عموم جوابات الإمام الكتابية- ولاسيما السياسية منها- يلاحظ أن الإمام(ع) يعيد كتابة مضمون الرسالة التي وجهت إليه. جاء في أحد كتبه: "وقد فهمت كل الذي اقتصصتم وذكرتم ومقالة جلکم إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق"⁽⁴⁾.

ويرى الباحث أن هذه الإعادة في كتابة مضمون الرسائل التي استقبلها الإمام (ع) كانت لأكثر من سبب؛ أهمها اثنان:

الأول: انطلاقه من مضمون رسالة المرسل، يكون أبلغ وأقرب لذهن المتلقي في عملية التوصيل، بوصفها محاولة سديدة لمد جسر تلق بين الباعث والمتقبل؛ فاتخاذ المضمون أساسا لبناء الجواب يشعر المتلقي أنه فهم جيدا ما هو مطلوب.

والثاني: شعور المستقبل بالأمان والطمأنينة من أن رسالته، لم تقع بأيدي الأعداء والمتربصين، ولاسيما أن وسائل الكتابة آنذاك كانت بدائية، مصنوعة من رقائق الحيوانات والكتان وغيرها، وهذه "الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق"⁽⁵⁾، وأن أعداء الإمام الحسين(ع) لم يدخروا جهدا بدسائسهم ومكرهم وخديعتهم، للإيقاع بأصحابه⁽⁶⁾.

وأكثر ما ختمت به رسائل الإمام(ع) كلمة:(والسلام)، إذ كان الإمام يعتمد عليها ليختم بها الرسالة بعد اختزال موضوعها بعبارة مختصرة، فكأن ورود السلام إشعار بانتهاء نص الرسالة. جاء في إحدى رسائله الجوابية، لعبد الله بن جعفر الذي نهاه من الخروج إلى العراق: "والله ليعتدن علي كما اعتدت اليهود في يوم السبت والسلام"⁽⁷⁾. وقد تنتهي رسائله(ع) بكلمة:(والسلام) مع أعدائه ولكن بعد سيل من الاتهامات المسندة، والتأنيب، والتصغير، وفضح سلوكهم. ومن ذلك ما ورد في

(2) ينظر: وقعة الطف: 160، وجمهرة رسائل العرب: 80/2-81، ومع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة: 70/2-71. وتتنظر أيضا من هذا المبحث: 53.

(3) ينظر: تاريخ الطبري: 357/5، والكامل في التاريخ: 477/3، وشرح نهج البلاغة: 82/3، وجمهرة رسائل العرب: 42/2، 75-76.

(3) البرهان في وجوه البيان: 192.

(4) تاريخ الطبري: 353/5، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 73/2.

(5) تاريخ الأدب العربي، جعفر باقر الحسيني: 8(في الهامش).

(2) ينظر على سبيل المثال: تاريخ الطبري: 359/5 و364، والكامل: 478/3 و479، والشهيد مسلم بن عقيل، عبد الرزاق المقرم: 156 و208 و209.

(7) مقتل الحسين، الخوارزمي: 312/1.

إحدى رسائله الجوابية لمعاوية: "ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك، وأهلك دينك، وأضعت الرعية والسلام"⁽¹⁾، فجاء السلام وكأنه إشعار بنهاية الحملة الكلامية، وبذلك يبتعد السلام عن معناه الحقيقي.

ثم جاء عدد غير قليل من رسائله خاليا من السلام، ولاسيما رسائله الدينية لأسباب خاصة بها؛ وذلك لأن الغاية الأساس لهذه الرسائل— كما أحسب— منصبة على شرح مسألة دينية أو قضية فقهية، أو إبداء موعظة؛ ففرى فقرات هذه الرسالة آخذة بعضها برقاب بعض، فتبدو وكأنها قطعة واحدة تنتهي بانتهاء كلامه (ع)⁽²⁾.

ومن رسائله الخالية من السلام أيضا، ما كان منها موجها لأعدائه، ولاسيما إلى معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد، ولا أخال هذا النوع من الرسائل إلا وقد صدر بعمد عن الإمام (ع)، وخاصة أن عدم السلام كان مقرونا بالتعنيف والتوبيخ لأعدائه، وكل ذلك يفصح عن ضيق الإمام بأعدائه، واستصغاره لشأنهم. جاء في إحدى رسائله الجوابية لمعاوية الذي عير الإمام (ع) لزواجه من جارية: "وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة ووضع عنها النقيصة، فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر ماثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية"⁽³⁾.

وجاء عدد قليل من رسائله خاليا من السلام أيضا، ولكنه (ع) — فيما يبدو — قد عوض عنها بكلمات ذات طابع ديني من مثل: (وله الحمد)⁽⁴⁾. وهذه الكلمات وأشباهها تنبه المتلقي بأنها خاتمة الرسالة. فيما جاء العدد الأقل من رسائله (ع) منتهيا بـ (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)⁽⁵⁾.

ولعل قصر بعض رسائله حال دون ذكر عناصر منهج رسائله (ع)⁽⁶⁾.

سابعاً/ أنواع المرسل إليهم في رسائله (ع): لا ريب في أن المرسل إليه عنصر أساس في عملية التوصيل⁽⁷⁾، وقد اتجهت رسائل الإمام (ع) إلى عدة أنواع من المرسل إليهم. وتلك الأنواع— وبحسب مساحة نصوص كل نوع— هي:

- 1) **عامة المسلمين والمؤمنين:** ومن ذلك ما ورد في جوابه (ع) لرسالة بعثها إليه أهل الكوفة، يسألونه القدوم عليهم: "بسم الله الرحمن الرحيم: من الحسين بن علي إلى الملائمة المسلمين والمؤمنين، أما بعد، فإن هائنا وسعيدا قدما علي بكتبكم"⁽⁸⁾.
- 2) **أعداؤه:** كما جاء في رسالته إلى معاوية: "وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنما رقا الملاقون، المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع"⁽⁹⁾.

(1) الإمامة والسياسة: 147/1، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 103.

(1) ينظر: التوحيد: 88-89، وتتنظر أيضا من هذا المبحث: 51.

(2) زهر الآداب: 101/1، وينظر: المجالس السنية: 38/1.

(3) ينظر: بحار الأنوار: 123/5، وتتنظر أيضا من هذا المبحث: 48.

(4) ينظر: تاريخ الطبري: 357/5، والكامل في التاريخ: 477/3، وجمهرة رسائل العرب: 76/2، و810، ووقعة

الطف: 160، ومع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة: 70/2-71، وتتنظر أيضا من هذا المبحث: 53.

(5) ينظر: أصول الكافي: 319/2، وتحف العقول: 177، وتتنظر أيضا من هذا المبحث: 47.

(7) ينظر: الخطاب النقدي، حسين خمري: 97.

(8) مقتل الحسين، الخوارزمي: 284/1، وينظر: إبصار العين في أنصار الحسين (ع)، محمد طاهر السماوي

26:

(9) شرح نهج البلاغة: 327/4، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 25/2.

(3) مجموعة محددة: ومن ذلك ما جاء في رسالته (ع) إلى أشرف البصرة: "إلى مالك بن مسمع البكري وإلى الأحنف بن قيس وإلى المنذر بن الجارود وإلى مسعود بن عمرو: أما بعد فإن الله اصطفى محمدا (ص) على خلقه وأكرمه بنبوته"⁽¹⁾.

(4) أهله وخاصته: ومنه ما جاء في رسالته (ع) إلى أخيه محمد بن الحنفية وبني هاشم: "بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي، إلى محمد بن علي ومن قبله من بني هاشم، أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل والسلام"⁽²⁾. وهذا النوع يميل إلى الإيجاز بوصفها رسائل شخصية، والتي غالبا ما تميل إلى التخفف والإيجاز⁽³⁾.

ثامنا/ حاملو رسائله (ع): تبقى تلك الرسائل ووسيلة نقلها ركنين مشترين لا تتم عملية التوصيل من دون أي منهما، فالرسالة "لا يمكن وصولها إلى المستقبل ما لم تتم عملية الاتصال من خلال وسيلة من الوسائل"⁽⁴⁾، ومعروف أن وسيلة نقل الرسالة آنذاك تتم من خلال الرسول (حامل الرسالة) فالرسول يمثل قناة أو وسيلة اتصال ثانية بعد الرسالة بين المرسل والمرسل إليه، وكانت وسيلته (ع) في نقل رسائله نفرا منتخبا من أهله وخاصته ومريديه، تجشموا عناء الطريق وخطورته، ليحملوها منه وإليه، وكان في مقدمة هؤلاء مسلم بن عقيل بن أبي طالب (ع)، إذ أمره بحمل أول رسالة إلى أهل الكوفة، واتخاذ الكوفة مقرا له، فكان سفيره وأمينه؛ لذلك جاء في رسالته (ع) التي حملها مسلم إلى الكوفة: "وقد بعثت إليك أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي (مسلم بن عقيل)، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم"⁽⁵⁾. وكلمات الإمام (ع) الإشادية تلك بمنزلة مسلم إنما هي تعزيز لقناة التوصيل التي تشكل "محور عملية التوصيل"⁽⁶⁾.

وكان من أبرز حاملي رسائله أيضا، قيس بن مسهر بن خالد بن جندب الأسدي الصيداوي - وكان رجلا شريفا في بني الصيد شجاعا مخلصا في محبة أهل البيت (ع)⁽⁷⁾. وقد بلغ في حفظ الأمانة منزلة عالية، إذ روي عنه أنه بلغ إحدى رسائل الإمام الحسين (ع) حفاظا على سلامة المُرسل إليهم، عندما ألقى القبض عليه رجال عبيد الله بن زياد.

ويكفي من مسلم وقيس أنهما استشهدا في سبيل توصيل رسائله من جهة، وأداء رسالتهما الجهادية من جهة أخرى، فالحسين (ع) "لم يرسل مسلما إلى العراق واليا من قبله إلا وهو يعلم أنه من فقهاء بيته الهاشمي وعلماء أسرته وأتقياء فئته وساسة ذويه ومن ذوي الحنكة واللياقة من قومه"⁽⁸⁾. وقد روي عن مسلم بن عقيل عندما جيء به إلى ابن زياد، فجعل ابن زياد يشتمه، ويشتم عليا والحسن والحسين (ع)، أنه

(1) وقعة الطف: 105، وينظر: مقتل الحسين، المرقم: 141.

(2) دلائل الإمامة محمد بن جرير بن رستم الطبري: 77، وينظر: معاجز الإمام الحسين (ع): 30.

(3) ينظر: أساليب النثر الفني: 84.

(4) الاتصال والتغير الثقافي، هادي نعمان الهيتي: 27.

(1) الكامل في التاريخ: 475/3، وينظر: إِبصار العين: 26، والشهيد مسلم بن عقيل: 98.

(2) اللسانيات ونظرية التواصل، عبد القادر الغزالي: 25.

(3) ينظر: تذكرة الخواص، ابن الجوزي: 221.

(8) الشهيد مسلم بن عقيل: 109.

قال: (أنت وأبوك أحق بالشتيم والسبِّ. فاقض ما أنت قاض يا عدو الله! فنحن أهل بيت موكل بنا البلاء)؛ فكانت خاتمة حياة رسل الحسين (ع) قصصا بطولية ترويهها مختلف المصادر⁽¹⁾.

وما تقدم وغيره يدل على أنه (ع) انتقى هؤلاء الرسل عن علم وبصيرة، فإن كان قد أحسن كتابة الرسائل من حيث المنهج والمضمون فإنه تجوّد في اختيار الرسل أيما إجادة كذلك؛ وقد قيل: "عقل الرسول يدل على مرسله، واعتدال القناة يدل على حذق المثقّف"⁽²⁾. فما يحتاجه المرسل في الرسول، حتى يكون عند ذوي العقول لبيبا، ومن الصواب قريبا، أن يختاره حتى يكون أحسن من بحضرته في عقله وأدبه، وضبطه، وعارضته، ودينه، ومروءته، وقد قيل: ثلاثة تدل على أهلها: الهدية على المهدى، والرسول على المرسل، والكتاب على الكاتب، ولذلك جعل الله عز وجل رسله أفضل خلقه، وأخبرهم أنه اصطفاهم على العالمين⁽³⁾.

وبذلك كان رسل الإمام (ع) ولاسيما مسلم بن عقيل عند حسن ظنه لما أبدوه من دقة وأمانة في التوصيل وشجاعة وجرأة على الأعداء⁽⁴⁾.

تاسعا/ توظيفه (ع) لأنواع آخر في رسائله: توشح عدد من رسائله بآيات من القرآن الكريم، وبأحاديث نبوية شريفة، يرويها عن جده (ص) تعميقا للدلالة وتمتينا للتواصل⁽⁵⁾. بينما خلت رسائله (ع) من الشعر؛ وتلك ظاهرة تكاد تسم - إلا في نصوص قليلة جدا من الخطابة - الأنواع الأدبية كلها التي تناولها البحث، وربما يكون السبب في ذلك أن الشعر "كان خطابيا في أكثره تسوده الروح الجماعية"⁽⁶⁾.

خاتمة: كشفت لنا هذه الجولة بين فنون رسائل الإمام (ع) عن أبرز الملامح الفنية لرسائله، وأثرها الرائد في خدمة أهدافه، بوصفها أداة مهمة اعتمدها في عطائه الديني والعلمي للمسلمين، وفي صراعه الشامل ضد الأعداء، وكشفت عن أن فقدان أغلب رسائله، لعنصر أو أكثر من عناصر بناء الرسائل الإسلامية الفنية كان لعدة أسباب؛ أهمها: أن الرواية هي التي جنت على كثير من عناصر البناء لرسائله (ع) بالإسقاط، بسبب الميل إلى التخفف والرغبة عن التكرار لما هو معروف وشائع عن الرسائل آنذاك؛ ومما يؤيد ذلك، الاختلاف في ورود كلمات هذه العناصر في عدد من

(1) ينظر على سبيل المثال: وقعة الطف: 160، 97، 92، والإرشاد: 318، 320، 323، ومقاتل الطالبين: 99، والشهيد مسلم بن عقيل: 137-138.

(2) رسائل الجاحظ: 307/1.

(3) ينظر: البرهان في وجوه البيان: 218.

(3) ولذلك فالباحث يميل إلى ما ذهب إليه عبد الرزاق المكرم في كتابه (الشهيد مسلم بن عقيل): 137، وغيره من الباحثين، في الشك بصحة رسالة الإمام الحسين (ع) إلى مسلم بن عقيل، التي يتهمه فيها بالجبن: "أما بعد، فقد خشيت أن لا يكون حملك على الكتاب إليّ، والاستعفاء من وجهك هذا إلا الجبن والفشل". وهي إنما وضعت لأسباب سياسية. وينظر أيضا: مقتل الحسين، الخوارزمي: 285، وجمهرة رسائل العرب: 74/2.

(4) ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 334/1-335، وينظر: الكامل في التاريخ: 502/3، والملهوف على قتلى الطفوف: 135، والتوحيد: 88-89، وتنتظر أيضا من هذا المبحث: 51.

(5) مكانة المتلقي في نقد القرن الرابع الهجري، بشرى موسى: 78.

الرسائل، وأن هناك قصدية في ذلك أحياناً، لمعالجات معينة رآها(ع)، تناسب المقام، وتقتضيها الحال، فضلاً عن قصر عدد من رسائله.

المبحث الرابع

الحديث الفني

أولاً _ **الحديث الفني في اللغة والاصطلاح:** لم تشتمل المعاجم اللغوية (كتاب العين، ولسان العرب، والقاموس المحيط، والصاحح) على المعنى اللغوي لهذا النوع الأدبي، بصيغته المركبة (الحديث الفني)؛ لحدثة تسمية هذا النوع فيما يبدو. والحديث كل ما يتحدث به الإنسان أو يقوله⁽¹⁾. وقد تحولت المفردة (الحديث) إلى مصطلح، ولذلك قيل إن "مصطلح الحديث دائر بين البلاغيين والنقاد"⁽²⁾، وقد أفرد ابن وهب الكاتب له باباً في أحد كتبه، مبتدئاً بتعريفه: "وأما الحديث فهو ما يجري بين الناس، في مخاطباتهم ومجالسهم، وأما وجوهه، فمنها: الجد والهزل، والسخيف والجزل، والحسن والقبيح، والملحون والفصيح، والخطأ والصواب"⁽³⁾. ومعلوم أن الحديث الذي لا يتوفر على عناصر فنية معينة، غالباً ما يعتمد في بيان حقيقة أو مسألة أو مفهوم ما، أي أن اللغة التي يتحدثها المتحدث في حديثه، هي لغة تقريرية إخبارية، بعيدة عن الخيال والتصوير، كما هو حال اللغة العلمية الجافة التي هي لغة العلوم والمعارف ولغة الأحاديث الفقهية ولاسيما التي تتناول معاملات المسلم وعباداته، كما هو في معظم أحاديث الناس، وغير ذلك.

بيد أن الحديث— الذي نحن بصدد— لا يعتمد المباشرة أو التقريرية في صياغته؛ لأنه عموماً يتطلب نوعاً من التأمل فهو يحمل قدراً من الضبابية الشفافة أو ما يسمى بالغموض الفني في الأدب، "الذي يؤدي إلى ما يعرف بتعدد القراءات للنص الواحد فوجوده وجود مؤثر وغني وفاعل"⁽⁴⁾، فضلاً عن أن إشراك المتلقي في كشف دلالة الأحاديث التي تحمل تلك الصفة، يحقق له جسراً من التوصيل ومزيماً من الإمتاعين الدلالي والجمالي.

وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نقرر بوضوح أن الحديث الفني هو: الحديث المختصر الذي يقدم في مناسبات مختلفة، ويكتفي فيه أحياناً بعدد قليل من المستمعين، ويوظف فيه سمات فنية وأدوات جمالية لتعميق دلالة المعنى المراد توصيله إلى المتلقي. وهو: توصيات عامة قصيرة، ترد مستقلة أو قد ترد ضمن نوع أدبي معين، وتوشح عادة — بعنصر الصورة أو بعنصر الإيقاع أو بكليهما معاً⁽⁵⁾.

وقد اهتم الإمام الحسين (ع) بهذا النوع الذي تكفل ببيان عدد كبير من الظواهر العبادية والإنسانية والسياسية — كما سنرى— من خلال العبارات القصيرة الدالة والقادرة على النفاذ إلى ذهن المتلقي. فالأحاديث الفنية بما تحمل من معان مختلفة في الحكم والوصايا، تعد ظاهرة مميزة عند الرسل والأنبياء وأئمة الهدى (ع)؛ وذلك لأن

(1) ينظر: لسان العرب: مادة (ح د ث)، والصاحح: مادة (ح د ث).

(2) النثر الصوفي، د. فائز طه عمر: 193.

(3) البرهان في وجوه البيان: 246.

(4) الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي (رسالة ماجستير)، غريب طاووس الساعدي: 74.

(5) ينظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، محمود البستاني: 322.

أصحاب الرسائل يريدون توصيل المفاهيم التي كلفوا بإيصالها بأيسر وسيلة وبأقصر وقت⁽¹⁾.

وقد شغل الحديث الفني المرتبة الأعلى في أدب الإمام(ع) من حيث الكيفية الفنية في التعبير؛ على الرغم من قلة مساحته الكمية، ولعل هذا المائز هو أهم ما تميز به الحديث الفني عن سائر الأنواع الأدبية الأخر له(ع).

ثانياً_ أنماط الحديث الفني عنده(ع): لأهمية هذا النوع في أدبه(ع)، فقد وردت نماذجه مستقلة تارة – إذ شكلت العدد الأكبر من أحاديثه- فيما تضمنتها أنواع أدبية معينة، تارة أخرى، ولاسيما الخطب؛ لما يؤديه من أثر مهم في الإقناع والاستمالة. فقصر الحديث الفني يساعد على جذب المتلقي ويلفت عنايته؛ وهذا مما تهدف إليها الخطابة، زيادة على أن هذا النوع يكون عادة أقرب إلى النص الخطابي، ولذلك رأى بعضهم أنه إذا فقدت الخطبة الفنية القصيرة عنصر الجمهور، صار من الممكن أن نسميها حديثاً فنياً⁽²⁾.

ومن نماذج الأحاديث الفنية التي وردت مستقلة: "يا ابن آدم إنما أنت أيام، كلما مضى يوم ذهب بعضك"⁽³⁾.

ومن النماذج التي وردت في إحدى خطبه: "لو رأيتم المعروف رجلاً رأيتموه حسناً جميلاً يسر الناظرين، ولو رأيتم اللؤم رأيتموه سمجاً مشوهاً تنفر منه القلوب، وتغض دونه الأبصار"⁽⁴⁾.

ومن المناسب الإشارة- هنا- إلى أن أغلب الأحاديث الفنية؛ وهي الأحاديث المستقلة، قد وردت في المصادر دون الإشارة إلى سياق الحديث، الذي يسهم في تحديد نوع الحديث الفني، فالنص يوظف السياق بوصفه وسيلة لإتمام ذاته أولاً، ولبيان مراميهِ وإفهامها وتفسيرها للمتلقى ثانياً⁽⁵⁾.

ثالثاً_ عدد الأحاديث الفنية عنده(ع) وأطوالها: إن اشتغال أدب الإمام(ع) على عدد كبير من نماذج الحديث الفني دليل آخر على أهمية هذا النوع عنده، وأثره المتميز في خدمة رسالته؛ فقد بلغ عدد أحاديثه الفنية المشهورة التي وصلت إلينا سبعة وثلاثين حديثاً فنياً.

وقد كان القصر في أطوال هذه الأحاديث هو السمة الغالبة التي ميّزته من باقي الأنواع السابقة؛ حتى إن معدل التفاوت بعدد الأسطر بين هذه الأطوال، كان قليلاً، بما لا يقاس مع بقية الأنواع الأدبية السابقة.

(1) الإمام الحسين بن علي(ع) سيد الشهداء، زهير الأعرجي: 362.

(2) ينظر: أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام(رسالة ماجستير)، محمد سعيد حسين مرعي الجبوري: 105.

(3) إرشاد القلوب، الحسن بن محمد الديلمي، تح: هاشم السيلاني: 93/1، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع): 927.

(4) كشف الغمة: 222/2، وينظر: بلاغة الإمام الحسين بن علي خطأ! ارتباط غير صحيح: 161/1.

(5) ينظر: نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث(رسالة ماجستير)، سحر كاظم الشجيري: 143.

ومن أجل توخي الدقة في وصف أطوال نماذج هذا النوع، كان لا بد من الاشتغال على وحدة قياس جديدة للطول تعتمد على (عدد الكلمات) بدلا من (عدد الأسطر)، التي اشتغلنا على وفقها في الأنواع السابقة.

واستنادا إلى ذلك، يمكن تقسيم الأحاديث الفنية للإمام (ع) على ثلاثة أقسام:

(أ) **الأحاديث القصيرة**: وكان عددها سبعة عشر حديثا، وكان مقياس الطول المفترض للأحاديث القصيرة، ينحصر بين أربع كلمات إلى عشر كلمات. ومن تلك الأحاديث القصيرة قوله (ع): **"القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق"** (1).

(ب) **الأحاديث المتوسطة**: وكان عددها أربعة عشر حديثا، وكان عدد الكلمات في الأحاديث المتوسطة ينحصر بين إحدى عشرة كلمة إلى عشرين كلمة. ومن ذلك ما ورد عنه (ع): **"الأمين آمن والبريء جريء، والخائن خائف، والمسيء مستوحش، إذا وردت على العاقل لمة قمع الحزن بالحزم، وقرع العقل للاحتيال"** (2).

(ج) **الأحاديث الطويلة**: وكان عددها ستة أحاديث، وانحصر عدد كلمات هذا القسم بين إحدى وعشرين كلمة إلى أربع وثلاثين كلمة. ومن ذلك ما ورد عنه (ع): **"إن قوما عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة"** (3).

إن اختلاف أطوال الأحاديث الفنية النسبي، يعود - كما أرى - إلى ما تتطلبه الفكرة أو المسألة من استيفاء لجوانبها المختلفة وما تستحقه من اللفظ.

ولما كان قصر الطول في الأحاديث الفنية عموما، يتطلب تكثيفا في اللفظ والفكرة وبعبارات مضغوطة موجهة - وهذا ما اتسمت به أحاديث الإمام (ع) - فإن ذلك جعل عملية الفصل بين أنواع أحاديثه، أيسر من بقية الأنواع الأدبية السابقة.

رابعاً - أنواع الحديث الفني عنده (ع): يمكن بالاعتماد على موضوع الحديث ذاته، تقسيمه على ثلاثة أنواع وهي:

١- **الحديث الفني الديني**: وقد شغل المساحة الأكبر، بين الأنواع الأخر. ومن ذلك ما ورد عنه (ع): **"إن المؤمن اتخذ الله عصمته، وقوله مرآته، فمرة ينظر في نعت المؤمنين، وتارة ينظر في وصف المتجبرين، فهو منه في لطائف، ومن نفسه في تعارف، ومن فطنته في يقين، ومن قدسه على تمكين"** (4).

٢- **الحديث الفني الاجتماعي**: وكانت معالجة الأمور الاجتماعية والحث على إتباع أنجع الحلول لها، مما قصد إليه الإمام (ع) من خلال أحاديثه الفنية الاجتماعية، التي ورد عنه في أحد نماذجها: **"الصدق عز، والكذب عجز، والسر أمانة، والجوار قرابة، والمعونة صداقة، والعمل تجربة، والخلق الحسن عبادة، والصمت زين، والشح فقر، والسخاء غنى، والرفق لب"** (5).

(1) جامع الأخبار، الشعيري: 42، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 141.
(2) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الحسن بن محمد بن نصر الحلواني (من أعلام القرن الخامس الهجري)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي: 84، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع): 886.
(3) تحف العقول: 175، وينظر: بحار الأنوار: 117/78.
(4) تحف العقول: 176، وينظر: بحار الأنوار: 111/78.
(5) تاريخ الباقوي: 172/2، وينظر: بلاغة الإمام الحسين بن علي خطأ! ارتباط غير صحيح: 233/1.

ثالثاً) الحديث الفني السياسي: وجاء بمساحة أقل بكثير من مساحة سابقه الاجتماعي في هذا النوع من أدب الإمام(ع). وأرى أن بقية الأنواع الأدبية، ولاسيما الخطب والرسائل قد تكفلت - غالباً - في النهوض بالمهمة السياسية. ومن هذا النوع ما ورد عنه في إحدى رسائله: "لو كنت في حجر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني حتى يقتلوني ووالله، ليعتدن عليّ كما اعتدت اليهود في يوم السبت"⁽¹⁾.

خامساً- أقسام المحدثين في الحديث الفني للإمام(ع): لا ريب في أن المحدثين يمثلون الطرف الغائي في الحديث الفني؛ لذلك توجه الإمام(ع) إلى ثلاثة أقسام من المتلقين، على أساس تباينهم في مستوى الإيمان والتفكير والولاء لأهل البيت(ع)، وهم:

مجموعة = عامة الناس: كان معظم أحاديثه(ع) الفنية من نصيب عامة الناس. وهكذا كانت بقية أنواعه الأدبية السابقة؛ فالإمام(ع) كان يرمي إلى نفع المجتمع الإنساني عن طريق المتعة الأدبية، والعمل الأدبي حين يؤدي "وظيفته تأدية ناجحة فإن (نعمتي) الفائدة والمتعة لا يجوز أن تتعايشا فقط، بل يجب أن تندمجا"⁽²⁾. ومن أمثلة هذا النوع قوله: "إن الحلم زينة، والوفاء مروعة، والصلة نعمة، والاستكبار صلف، والعجلة سفه، والسفه ضعف، والغلو ورطة، ومخالطة أهل الدناءة شر ومجالسة أهل الفسق ريبة"⁽³⁾.

مجموعة = أتباعه وخاصته(ع): شغل هذا النوع من المحدثين مساحة أقل من النوع السابق. ومن ذلك ما جاء في إحدى خطبه(ع): "لا محيص عن يوم خط بالقلم"⁽⁴⁾. **مجموعة = أعداؤه:** وقد شغل هذا النوع من المحدثين المساحة الأقل في أحاديثه(ع). ومنه ما ورد في إحدى رسائله: "الن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه في الدنيا"⁽⁵⁾. ومما يرتبط بهذا النقطة وإن من زاوية بعيدة، أن عدم إيراد مناسبة الحديث الفني المستقل عند الإمام(ع)، جعل تتبعه زمانياً ومكانياً أمراً متعذراً علينا، خلاف ما درجنا عليه في بقية الأنواع الأدبية السابقة. ومهما يكن، فإن أهمية هذا النوع تجعله ذخيرة صالحة في مختلف الأماكن والأزمان.

سادساً = الصورة وبناء الحديث الفني عنده(ع): كان قصر الحديث الفني، وتناوله غالباً لموضوع واحد، وراء عدم إمكانية تفكيكه إلى أجزاء، لرسم هيكله أو بنيته، بطريقة تماثل بقية الأنواع الأدبية السابقة، بيد أننا يمكن أن نفيد من دلالة الأحاديث الفنية المركزة في اعتماد "عنصر(الصورة) بخاصة شكلاً لها - علماً بأن عنصر الإيقاع ينتظم بدوره كثيراً من الأحاديث - بالقياس إلى غالبية الأحاديث التي تعتمد التعبير المباشر شكلاً لها"⁽⁶⁾.

(1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 312/1، وينظر: مقتل الإمام الحسين أو واقعة الطف: 174.

(2) نظرية الأدب: 330.

(3) كشف الغمة: 222/2، وينظر: المجالس السنية: 36/2.

(4) مقتل الحسين، الخوارزمي: 312/1، وينظر: المجالس السنية: 76/1.

(5) تاريخ الطبري: 388/5، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 80/2.

(6) الإسلام والفن: 183.

وعليه، فهناك ثلاثة مستويات من التركيب الفني للعنصر الصوري وهي:

أ. الصورة البسيطة أو المفردة: وفيها تتكون الصورة من عملية واحدة تتسم بالسهولة والسرعة، كما في حديثه (ع): "البكاء من خشية الله نجاة من النار"⁽¹⁾.

ب. الصورة المركبة: وفيها تتكون الصورة من مرحلتين متعاقبتين، كما ورد عنه (ع): "العلم لقاح المعرفة، وطول التجارب زيادة في العقل والشرف والتقوى"⁽²⁾.

ج. الصورة المستمرة: وتتألف من عدة صور جزئية تؤلف الصورة الكلية. ومن ذلك ما جاء في حديثه (ع): "مالك إن لم يكن لك، كنت له منفقا، فلا تبقه بعدك، فيكن ذخيرة لغيرك، وتكون أنت المطالب به المأخوذ بحسابه، واعلم أنك لا تبقى له، ولا يُبقي عليك، فكله قبل أن يأكلك"⁽³⁾.

خاتمة: إن الخصائص التي تميز بها الحديث الفني عند الإمام (ع)، جعلت هذا النوع يكتسب صفة الخلود الفني على مر القرون الخوالي؛ لأن أبرز سمات خلود الفن هو تعاطيه مع قدرة المتلقي أو فكر المتذوق في السماح له بأن يكتشف بنفسه جملة من الأفكار والحقائق التي يشتمل عليها النص، إذ إن "الفارق بين النص ذي الطبيعة (الإعلامية) الخالصة وبين النص الأدبي يكمن في قدرة النص الأدبي على إبداع نظامه الدلالي الخاص داخل النظام الدلالي العام في الثقافة التي ينتمي إليها، وإذا كانت النصوص (الإعلامية) الخالصة تعتمد (الوضوح) معياراً للجودة والرداءة؛ فإن هذا المعيار في النصوص الأدبية يختلف باختلاف طبيعة النص وباختلاف النوع الأدبي الذي ينتمي إليه"⁽⁴⁾؛ فالناظر في (الحديث الفني) عند الإمام (ع) يجد أنه يختلف عن سائر بقية أنواع أدبه بقصر عبارته من جانب وتكثيفها بدلالات مركزة من جانب آخر. وهاتان الصفتان كانتا أبرز أسباب خلود هذا النوع الأدبي بعد صفة المتحدث (ع).

وفي ضوء ما تقدم نلمس بوضوح أن (الحديث الفني) قد حقق حضوراً نوعياً مميزاً في أدب الإمام الحسين (ع)، إذ استعمله أداة خترة في بلوغ الأهداف الفكرية المتنوعة التي سعى إلى تحقيقها، خدمة للدين والمجتمع.

وبالنظر في ما تقدم في الأنواع الأدبية ومساحاتها عند الإمام الحسين (ع) نستطيع أن نضع خلاصته في الخطاطة الآتية:

مخطط توضيحي لمساحات الأنواع الأدبية عند الإمام الحسين (ع)

- (1) جامع الأخبار: 93.
- (2) أعلام الدين، الحسن بن محمد الديلمي: 298، وينظر: نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 88، وبحار الأنوار: 128/78.
- (3) أعلام الدين: 298، وينظر: نامة من بلاغة الحسين (ع): 131.
- (4) مفهوم النص، د. نصر حامد أبو زيد: 177.

مدخل

الموضوع الأدبي هو المادة التي يتمركز عليها البحث شفوياً أو خطياً⁽¹⁾.
والموضوعات الأدبية هي العنوانات الرئيسية التي تنطوي تحتها وتتدرج ضمنها
النماذج الأدبية الكثيرة⁽²⁾.

ومن المعروف أنه لا خلاف في القول بجذرية العلاقة ومواشجتها بين
الموضوع الأدبي والنوع الأدبي، فمن خلال هذه العلاقة الحتمية بينهما تبرز ملامح
العمل الأدبي⁽³⁾.

ومن هنا، فإن محاولة تحديد الموضوعات الأدبية في أدب الإمام الحسين (ع)
تستند إلى فرض الفصل بين النوع الأدبي الذي أوجزنا أهم مفرداته في الفصل
السابق - وموضوعه الأدبي، وبهذا الفصل بين النوع والموضوع نتمكن من البحث،
بشكل أكثر دقة وأجدي نفعا واضعين في الحسبان أن التحامهما وتساندهما يجعلان
أي حديث عن نوع دون موضوع، أو عن موضوع دون نوع، حديثاً سطحيّاً⁽⁴⁾.
ومن خلال محاولتنا الفصل بين قضية النوع الأدبي وقضية موضوعه، ظهرت
لدينا عدة موضوعات، أهمها - وبحسب مساحة الموضوع: الموضوع السياسي،
والموضوع الديني، والموضوع الاجتماعي. وسنتحدث عنها تباعاً في المباحث
الآتية.

(1) ينظر: المعجم الأدبي: 272.

(2) ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، د. حازم عبد الله: 391.

(3) ينظر: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي، سلمى الخضراء الجيوسي: 37، والنصوص الأدبية: 21.

(4) ينظر: النثر الصوفي: 183.

المبحث الأول الموضوع السياسي

شغلت قضية الموضوع السياسي الحيز الأرحب من مساحة موضوعات أدب الإمام الحسين (ع)؛ فقد خبر حياة خاصة، غصت بوقائع سياسية خطيرة، بدأت بفقد جده المصطفى (ص) وأمه الزهراء (ع) مروراً باستشهاد أبيه (ع) وأخيه الحسن (ع)، وانتهاء بمعركة الطف التي أدت إلى استشهادهم، حتى غدت حياته تمثل حقبة زمنية عصيبة في تاريخ الإسلام⁽¹⁾، تلك الحقبة التي أناخت عليه بأحمالها وأثقلت كاهله فواجهها صابراً أحياناً وأحياناً مجاهداً. وقد صوّر أدبه (ع) مكابדתه لتلك الحوادث السياسية المشحونة التي انبجست عنها معان سياسية عدة، أهمها:

أولاً: بيان أحقيته (ع) بالخلافة: لم يفتأ الحسين (ع) بعد استشهاد أخيه الحسن (ع) من الدعوة الشجاعة إلى ممارسة تكليفه الشرعي في تولي أمور المسلمين، إذ كان "لا يني ولا يكسل في إظهار أحقيته بالخلافة، مزجياً البيانات عليها"⁽²⁾. وأهم هذه البيانات هو كتاب الله (عزّ وجل) وأحاديث جده المصطفى (ص).

وقد تألقت الخطب عنده في إبراز هذا المعنى السياسي، فيما جاءت الرسائل لتتحمل قسطاً أيسر إلى جانب الخطب، بينما تخلفت الأدعية والأحاديث الفنية عن المشاركة في بيان هذا المعنى.

(1) الخطبة والموضوع السياسي: جاء في إحدى خطبه (ع) التي خطبها بطلب من معاوية بن أبي سفيان إذ استجاب الأخير لرغبة أعوانه بعد إلحاح طويل، يبغون من ذلك حصراً في كلامه أو كلاله بلسانه⁽³⁾، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (ص)، فسمع رجلاً يقول: من هذا الذي يخطب، فقال (ع): "نحن حزب الله الغالبون وعتره رسول الله (صلى الله عليه وآله) الأقربون وأهل بيته الطيبون وأحد الثقلين الذين جعلنا رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثاني كتاب الله تعالى الذي فيه تفصيل كل شيء لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والمعول علينا في تفسيره، لا يبطننا تأويله، بل نتبع حقائقه فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة إن كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة، قال الله عزّ وجل: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾"⁽⁴⁾ ثم قال (ع) متمثلاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

(1) ينظر: الإرشاد: 290-291، وترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 14.

(2) فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي: 221.

(3) ينظر: الاحتجاج: 191/2، وكان معاوية يعتذر لأعوانه من الموافقة ويقول: قد ظننا ذلك بالحسن فلم يزل حتى عظم في أعين الناس وفضحنا. وللاطلاع على خطبة الإمام الحسن (ع) التي قصدها معاوية في كلامه، ينظر: تاريخ الطبري: 163/5، وجمهرة خطب العرب: 22/2-31.

(4) الاحتجاج: 191/2. والنص القرآني في: النساء/من 59.

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا⁽¹⁾، وتابع قائلاً: "وأحذركم الإصغاء إلى هتوف الشيطان بكم فإنه لكم عدو مبين فتكونوا كأوليائه الذين قال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَأَلَمَّا تَرَأْتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ فتلقون للسيوف ضرباً وللرماح ورداً، وللعمد حطاماً وللسهام غرضاً، ثم لا يقبل من نفسٍ ﴿إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمْنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾"⁽²⁾.

إن المتأمل في مناسبة خطبته (ع) يلحظ أن المناخ الاجتماعي هو الذي فرض سياق الخطبة، فأعداؤه راموا أن يحطوا من مكانته، بعد أن رمت الناس بأبصارها نحوه، فاجتهدوا في ذلك عسى أن يُرتَجَّ عليه، فيُصيب منطقاً الحصر أو العي، تحجيماً لمكانته في المجتمع وتقليصاً لأثره الفاعل في المسلمين.

وسؤال السائل عن شخص الخطيب (الإمام (ع)) بصوت عال- بدليل أنه سمعه وسط حشد يضم شخصية رسمية تتربع قمة الهرم السياسي- وهو يخطب، كان من المتوقع أن يضع الخطيب في حرج، وربما يتخلخل التواصل بينه وبين الجمهور أو ينقطع، ما لم يكن الخطيب حاضر البديهة، وافر القريحة، أي يتطلب منه أن يترك ما أعد له أنفاً من كلام والانعطاف فوراً نحو جواب السؤال.

وقد رأينا من خلال النص كيف استطاع الإمام أن يستثمر المناسبة ليجيب عن السؤال، وأن يوظف الإجابة في عَضْد دعوته السياسية، إذ ساق البيانات تلو البيانات التي تُظهر منزلة أهل البيت (ع) المتمثلين آنذاك في شخصه (ع)، منوهاً بأصله الشريف ونسبه الكريم، وقرابته من رسول الله (ص)، داعماً كلامه بآيات من القرآن الكريم وبمضامين عدد من أحاديث الرسول (ص) في حقهم؛ ففي النص إشارتان إلى حديثين شريفيين؛ أولهما: ((إني تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وأهل بيتي فتمسكوا بهما لن تضلوا))⁽³⁾، وثانيهما بحق سبطيه، الحسن والحسين (ع): ((إبناي هذان إمامان قاما أو قعدا))⁽⁴⁾. وكل ذلك لم يكن لأجل الفخر، وإنما لتطمئن إليه النفوس الجاهلة بحقه؛ فيكون لكلامه فيهم وقع أشد، ودلالة أعمق.

ثم صرَّح بالعلاقة الوثقى بين أهل البيت (ع) والقرآن الكريم، بقوله: (والمعول علينا في تفسيره)، وبعد أن قدّم البيانات طلب الطاعة منهم: (فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة)، ولا سيما أنه قد قرنها بطاعة الله وطاعة رسوله (ص) متكئاً على النصوص القرآنية التي انطلقت متدافعة تشهد له بهذا الحق المستحق: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

(1) ينظر: الاحتجاج: 191/2. والنص القرآني في: النساء/ من: 83.

(2) الاحتجاج: 191/2، وينظر: أدب الحسين وحماسته: 70. والنصان القرآنيان في: الأنفال/ من: 48، والأنعام/ من: 158. ويشير (ع) في توظيفه النص القرآني الأول إلى قصة إبليس الذي تمثل في صورة رجل من قریش إذ تقدم الكفار رافعا الراية لحرب المسلمين في بدر، ينظر: تفسير الطبري، الطبري، ضبط وتعليق: محمود شاكر الحرساني، تصحيح: علي عاشور: 24/10، ومجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي: 483/4، والتسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الغرناطي: 327/1.

(1) كتاب سليم بن قيس الهلالي: 792/2، وينظر: أصول الكافي، الكليني: 318/1، وإعلام الوري بأعلام الهدى، الطبرسي: 209، وموسوعة الإمام الحسين (ع)، محمد عبد الرسول البلاغي: 2.

(4) الإرشاد: 290، وينظر: إعلام الوري بأعلام الهدى، الطبرسي: 209، وموسوعة الإمام الحسين (ع)، محمد عبد الرسول البلاغي: 2.

وبعدها حذر من المعصية وعدم الطاعة وغواية الشيطان، وكل ذلك يتمثل في الأعداء وأتباعهم ونهجمهم في الدنيا، موظفا لهم قصة من القرآن تجسد ذلك المعنى. ويختتم (ع) خطبته في وصف حالهم وسوء عاقبتهم إذا ما أصروا على العصيان: (فتلقون للسيوف ضربا...) ثم لا يقبل من نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل).

لقد استطاع الإمام (ع) أن يوصل إلى الجمهور ما أراد، وأن ينال استحسانهم وثقتهم، ويحظى بقناعتهم، وذلك جزء مهم من بنية التواصل⁽¹⁾، وآية ذلك قول معاوية له: "حسبك يا أبا عبد الله قد بلغت"⁽²⁾. وهذه الكلمات تمثل أعلى درجات التوصيل والاعتراف بمنزلة الإمام الحسين (ع) وجمهوره. و"الجمهور لا يتفاعل مع النص أو يستجيب له إلا إذا كان ذا صلة بواقعه وحياته"⁽³⁾، أي إنه لا بد من أن يكون المتكلم والمتلقي "منخرطين في إطار حياتي معيشي يمثل لهما مرجعية التفاهم والتواصل"⁽⁴⁾. ومما زاد من هذا التفاعل التوصيلي تضمين خطبه (ع) أحاديث نبوية مشهورة، وذكره لنصوص قرآنية صريحة تروي قصصا معروفة تحمل دلالات معينة، فضلا عن رشاقة الخطبة ذاتها التي راعى الإمام فيها البنيات المصنوعة قصدا، ومثل هذه المراعاة تهدف إلى تحصيل الاستجابة⁽⁵⁾.

ولعل ما يحسن الالتفات إليه هو أن معاوية كان من أشهر الخطباء الأمويين وقريبا من ذلك كان ابنه يزيد، وكذلك كان عبيد الله بن زياد ومروان بن الحكم وغيرهم من رموز أعداء الإمام (ع)، وأن الخطابة الأموية انحصرت بخلفائها وأمرائها وأحزابها، زيادة على قدراتهم الأدبية الأخر⁽⁶⁾.

ومن شأن تلك المؤهلات الأدبية كلها أن تحقق من جانب، قدرا من التقارب في التكافؤ الثقافي بين الإمام (ع) وأعدائه، ومثل هذا الأمر يقتضي أن يمتلك كلا الطرفين مهارات اتصالية عالية تعمق عمليات التواصل بينهما عبر الخطابات والخطابات المتبادلة⁽⁷⁾، وتدفع من جانب آخر، باتجاه احتدام النزاع السياسي وتأجيجه من خلال محاولة كل طرف كسب رأي الجماهير واستمالتهم نحوه.

وإن تضمن النص السابق التلميح بالمطالبة بحقه (ع) في الخلافة، فإن مقتضيات الواقع المعيش وإرهاصاته يمليان على الإمام (ع) ذلك، فقد جاء عدد من نصوصه في مقام آخر وهي تصرح بذلك، كما في إحدى خطبه: "أما بعد، أيها الناس! فإنكم إن

(1) ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر: 34.

(2) الاحتجاج: 191/2.

(3) استقبال النص عند العرب: 83.

(4) النص والسلطة والحقيقة، نصر حامد أبو زيد: 38.

(5) ينظر: الأصول المعرفية لنظرية التلقي: 25، والنثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، د. مي يوسف خليفة: 233، والانزياح في التراث النقدي والبلاغي، د. محمد أحمد ويس: 58.

(6) ينظر: البيان والتبيين: 353/1، وزهر الآداب: 53/1، وأدب الشيعة، د. عبد الحسيب طه حميد: 187، وفن الخطابة، انطوان القوال: 87، والأدب الإسلامي- المفهوم والقضية: 138.

(7) ينظر: مستقبل الشعر وقضايا النقدية، عناد غزوان: 44، ونظريات الإعلام واتجاهات التأثير، محمد عبد الحميد: 66.

تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله، ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم⁽¹⁾.

ولا عجب في إلحاحه(ع) في المطالبة باسترجاع حقه بين الفينة والأخرى، إذا علمنا أنها عملية جلي للحقائق مارسها كي لا تصدأ أو تندثر تلك الحقائق مع تقادم الأيام. جاء في إحدى خطبه: "أسألكم بحق الله عليكم وبحق رسول الله وبحق قرابتي من نبيكم، لما سيترتم مقامي هذا ووصفتكم مقالتي ودعوتكم أجمعين في أنصاركم وقبائلكم من آمنتم من الناس ووثقتكم به فادعوههم إلى ما تعلمون من حقنا فإني أخوف أن يدرس هذا الأمر ويذهب الحق ويغلب ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾"⁽²⁾.

2)) الرسالة والموضوع السياسي: لم يكتف الإمام بالتلميح أو التصريح في المطالبة بحقه في ولاية أمور المسلمين، وسوقه البراهين العقلية والنقلية لأجل ذلك، بل عمد إلى إمطة اللثام عن الحقائق والأسباب التي وقفت خلف تسنم أعدائه السلطة الرسمية. جاء في إحدى رسائله لأنصاره: "أما بعد، فإن الله اصطفى محمدا(صلى الله عليه وسلم) على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به(صلى الله عليه وسلم)"⁽³⁾.

وبعد أن ألمح الإمام إلى أثر الرسول(ص)، وإخلاصه في دعوته المباركة، وهياً أذهان المتلقين للمزيد، ولج إلى ذكر منزلة أهل البيت(ع) والسبب في دفعهم عن مقامهم، إذ تابع ذلك بقوله: "وكنا أهله وأوليائه وأوصيائه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس؛ فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه"⁽⁴⁾.

ولعل من أهم مظاهر الدعوة الحسينية تشديده(ع) على رابطة النسب بينه وبين جدّه المصطفى(ص)، إذ كانت من أسطع البراهين وأوهجها في تدعيم دعوته للناس باتباع جادة الحق وهجر درب السلاطين. ورد في إحدى رسائله: "وإني أحق بهذا الأمر لقرابتي من رسول الله(صلى الله عليه وآله)"⁽⁵⁾.

ويرى الباحث أن القرابة بين الإمام(ع) والرسول(ص)، وإن كانت متحققة نسباً، ولها ما لها من التأثير العظيم في شخص الحسين(ع)، من علم وتقوى وشجاعة إلا أن الإمام انطلق من هذه القاعدة نحو القرابة الأسمى من الرسول(ص)، بوصفه أنموذجاً رسالياً للإنسانية جمعاء، وهذا ما يدعمه قول النبي(ص): ((حسين مني وأنا من حسين))⁽⁶⁾. فالقرابة الرسالية هي الثمرة الحقيقية للقرابة النسبية من جدّه

(1) وقعة الطف: 170، وينظر: تاريخ الطبري: 404/5، وجمهرة خطب العرب: 46/2-47.

(2) كتاب سليم بن قيس: 789/2، وينظر: الاحتجاج: 189/2. والنص القرآني في: الصف/من 8.

(3) تاريخ الطبري: 357/5، وينظر: الكامل في التاريخ: 477/3.

(4) تاريخ الطبري: 357/5، وينظر: الكامل في التاريخ: 477/3.

(5) مقتل الحسين، الخوارزمي: 335/1، وينظر: موسوعة الإمام الحسين(ع): 271/2.

(6) مسند أحمد بن حنبل: 172/4، والمستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا: 194/3-195، والإرشاد: 363.

المصطفى(ص)، التي جاهد(ع) لأجلها، ولذلك قيل: "الإسلام بدؤه محمدي وبقاؤه حسيني"(1).

إن دعوة الحسين(ع) المستمرة في طلب حقه، لم تكن بمعزل عن مسمع الأعداء، إذ شغلت عقولهم، وأعيت جفونهم، فحركت كمائنهم وألهبت عداءهم، ليدخل الإمام في مرحلة لاحقة فيها يبارق النزاع السياسي السلمي. **ثانياً: الصراع السياسي مع السلطة الأموية:** واكب الإمام الحسين(ع) الظروف والأسباب التي ألحت على أخيه الإمام الحسن(ع) للقبول كرها ببيعة معاوية بن أبي سفيان حتى استشهدا الحسن(ع) وهو كظيم(2).

من هنا، نهض الإمام الحسين(ع) بعبء الإمامة، ملتزماً بصلح أخيه، واكتفى بالدعوة السلمية— كما رأينا- في المطالبة بحقه، ولكن سرعان ما جاءت ردود السلطة الحاكمة، لتبدأ صفحة أخرى من النزاع المزمّن مع السلطة الأموية. وكشف خبايا النزاع وأضاء فحواه ما ورد عنه من رسائل وخطب شغلنا مساحة هذا النوع من المعاني السياسية في أدبه مع ميل نسبي في زيادة مساحة الرسائل على الخطب؛ لأن الرسائل حينئذ أنسب الأنواع الأدبية في نزاع تباعد طرفاه؛ كالبعد السحيق بين المدينة موطن الإمام(ع)، والشام مركز الخلافة الأموية. وآثر(ع) الصبر في هذه المرحلة وفاء بالعهد وانتظاراً لما تؤول إليه الأمور؛ لذا فقد كان يوصي أتباعه بضبط النفس والحذر، وأن يكون كل واحد منهم "حلساً من أحلاس بيته ما دام هذا الرجل حياً"(3).

1= الرسالة والصراع السياسي مع السلطة الأموية: على الرغم من تمسكه(ع) بعهد الصلح وبنوده دأبت السلطة الأموية على إرسال سهام الشك والريبة نحوه، متهمة إياه بالإعداد للنهوض عليها، في الوقت الذي كانت السلطة ذاتها تمارس انتهاكات متكررة للعهد بين الحين والآخر، حتى غدت تلك الخروقات تشكل ملحماً معاوية، جاء فيها: "أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنه انتهت إليك عني أمور، لم تكن تظنني بها، رغبة عني بها، وإن الحسنات لا يهدي لها، ولا يسدد إليها إلا الله تعالى"(4)، وبعد أن أعاد مضمون رسالة معاوية شرع في تفصيل الجواب: "وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنما رقاها الملاقون، المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاؤون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإنني لأخشى الله

(1) الحسين في الفكر المسيحي، انطوان بارا: 66.

(2) كان صلح الإمام الحسن(ع) سنة 41هـ، واستشهاده سنة 49هـ، وللاستزادة عن أحوال الصلح وشروطه، ينظر: الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه: د. عصام محمد الحاج علي: 319-321، وتاريخ اليعقوبي: 149/2.

(3) أنساب الأشراف: 152/3. والمقصود بالرجل: معاوية، ينظر: م. ن: 152/3. و(فلان جلس بيته إذا لم يبرحه)، لسان العرب: مادة (ح ل س).

(4) الإمامة والسياسة: 146/1، وينظر: الأخبار الطوال: 332، وأنساب الأشراف: 153/3، والاحتجاج: 189/2، وجمهرة رسائل العرب: 58/2. وينظر عن كتاب معاوية: الإمامة والسياسة: نسخة/ نسخة/ نسخة، أنساب الأشراف: نسخة/ نسخة/ نسخة.

تعالى في ترك ذلك ومنك ومن حزبك القاسطين المحليين، وحزب الظالم وأعوان الشيطان الرجيم" (1).

ثم أردف (ع) قائلاً: "ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين، الذين كانوا يستفظعون البدع، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقتلتهم ظلماً وعدواناً، من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة، والعهود المؤكدة، جراءة على الله واستخفافاً بعهده، أولست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبلت وجهه العبادة، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من شغف الجبال، أولست المدعي زيادا في الإسلام، فزعمت أنه ابن أبي سفيان، وقد قضى رسول الله (ص): ((أن الولد للفراش وللعاهر الحجر))، ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل، سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة، وليسوا منك" (2).

وهذه الأعمال العدوانية لزياد تتطابق مع ما فعله فرعون بالسحرة الذي آمنوا بموسى (ع)، قال تعالى حكاية لقول فرعون: ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ (3).

ثم قال (ع): "أولست قاتل الحضرمي الذي كتب فيه زياد أنه على دين علي كرم الله وجهه، ودين علي هو دين ابن عمه (صلى الله عليه وسلم)، الذي أجلسك مجلسك الذي أنت فيه، ولولا ذلك كان أفضل شرفك وشرف آبائك تجشم الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، فوضعهما الله عنكم بنا، منة عليكم، وقلت فيما قلت: لا تردن هذه الأمة في فتنة، وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها، وقلت فيما قلت: انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد، وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك، فإن أفعل فإنه قرابة إلى ربي، وإن لم أفعله فاستغفر الله لديني، وأسأله التوفيق لما يحب ويرضى، وقلت فيما قلت: متى تكذني أكذك، فكذني يا معاوية فيما بدا لك، فلعمري لقد فيما يكاد الصالحون، وإني لأرجو أن لا تضر إلا نفسك، ولا تحقق إلا عملك، فكذني ما بدا لك" (4).

ثم اختتم (ع) جوابه بقوله: "واتق الله يا معاوية، واعلم أن الله كتابا لا يغير صغرة ولا كبيرة إلا أحصاها. واعلم أن الله ليس بناسٍ قتلِكَ بالظنة، وأخذك بالتهمة، وإمارتك صبيبا يشرب الشراب ويلعب بالكلاب، ما أراك إلا وقد أوبقت نفسك، وأهلك دينك، وأضعت الرعية والسلام" (5).

(1) الإمامة والسياسة: 146/1. و(القاسطون): الذين يميلون عن الحق، ينظر: كتاب العين: مادة (ق س ط). و(المُجَلِّون): الذين يَجُلُّ عليهم القتال، ينظر: لسان العرب: مادة (ح ر م).

(3) الإمامة والسياسة: 147/1. و(المخبتون): المطمئنون وقيل المتواضعون، ينظر: لسان العرب: مادة (خ ب ت)، و(العصم): هي الأطباء التي تسكن رؤوس الجبال، ولا تنزل إلا في الفرط والندرة، ينظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تح: محمود محمد شاكر: 264/2 (في الهامش)، ولسان العرب: مادة (ع ص م). وورد هذا الحديث النبوي الشريف في: صحيح مسلم: 550 (باب الولد للفراش).

(4) طه/71، ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري: 661/16.

(4) الإمامة والسياسة: 147/1.

(5) م.ن: 147/1، وينظر: الأخبار الطوال: 332، وأنساب الأشراف: 153/3، والاحتجاج: 189/2، وجمهرة رسائل العرب: 58/2. ويعني بـ(الصبي) يزيد الذي ولاه أبوه معاوية العهد سنة 56هـ، من دون رضى من المسلمين، ينظر: تاريخ الطبري: 301/5.

وبعد أن أوجز (ع) كثيرا من اتهامات معاوية في مقدمة الجواب، عمد إلى بيان مصدر الاتهامات، وهم (الملاقون)⁽¹⁾، وشرع إلى منع الوشاية عن نفسه، ولاسيما أن في كتاب معاوية نقرا مكثفا على وتر الميثاق، وبلغة (متورمة) تحلقت حول الذات، إذ استتبنت نوازع السلطان وإن تغلفت بالخطاب الإسلامي، ولذلك قال له: (كذب الغاوون المارقون، ما أردت حربا ولا خلافا).

ويتلو ما تقدم أن يقرر (ع) حقيقة معاوية وأعوانه معددا عليهم أفعالهم، مذكرا بخروقات المعاهدة التي باتت بنودها تتنفس ببطء منذرة بانفلات تام: (وإني لأخشى الله تعالى في ترك ذلك ومنك ومن حزبك القاسطين...) [ألست قاتل حجر، وأصحابه...] [أولست بقاتل عمرو بن الحمق...] [أولست المدعي زيادا في الإسلام...] ثم سلطته على أهل الإسلام، يقتلهم ويقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم على جذوع النخل).

وهكذا تسلسل (ع) بذكر تجاوزات السلطة الأموية، معمقا دلالات رسالته معززا توصيلها بحديث نبوي شريف وبتمثله لآية قرآنية كريمة، وبذلك استطاع أن يرسم "صورة وافية موضحة لشخصية معاوية وحكمه كما رآها وعاصرها"⁽²⁾ ف"الكتاب سجل للدماء التي سفكها الأمويون، وهو صرخة في وجه العبث والتلاعب والتجاوز، كما أنه بيان لحقوق الشعب التي لا يمكن التغاضي عنها مهما كلف الأمر"⁽³⁾.

وقول الإمام متعجبا: (سبحان الله يا معاوية! لكأنك لست من هذه الأمة وليسوا منك) إنما "هو اتهام من الحسين (ع) لمعاوية في وطنيته وقوميته"⁽⁴⁾ أقول: وربما بعقيدته أيضا، ولاسيما أن عقيدة فرعون على غير عقيدة أصحاب نبي الله موسى (ع)، زيادة على الدماء الغزيرة المسفوكة التي اتخذها الإمام (ع) عنوانا على ذلك⁽⁵⁾.

وبعد أن أنهى كلامه على سلسلة الخروقات بقوله: (أولست قاتل الحضرمي) عرج على بيان فضل أهل بيته (ع) على معاوية (ودين علي هو دين ابن عمه) صلى الله عليه وسلم، الذي أجلسك مجلسك، ثم مضى (ع) في نقضه لمزاعم خصمه معلنا رغبته في جهاده، لو علم نضوج مقومات الثورة وجاهزيتها، ولولا الميثاق الذي كان عقبة كؤودا بعيد برمه حتى صار غصة بين اللهاة والحلاقيم بعد نقضه⁽⁶⁾: (وإني لا أعلم لها فتنة أعظم من إمارتك عليها...) [وإني والله ما أعرف أفضل من جهادك].

ويبلغ التحدي ذروته قبيل ختام الرسالة بقوله (ع): (فكذني ما بدا لك)، وهذا إحراج غير يسير لمعاوية، وقد رأى بعض الباحثين أنه (ع) وضع خصمه، حيال

(1) بعث مروان بن الحكم وهو إذ ذاك والي المدينة كتابا إلى معاوية، جاء فيه: "قد كثر اختلاف الناس إلى حسين، والله إني لأرى أن لكم منه يوما عصيبا"، أنساب الأشراف: 152/3.

(2) الحسين في الفكر المسيحي: 213.

(3) الإمام الحسين سمو المعنى في سمو الذات، د. عبد الله العلايلي: 338.

(4) م.ن: 338.

(5) ينظر: م.ن: 338.

(1) يتحقق هذا المعنى من خلال معرفة كراهيته (ع) للصلح: "لكن طيب النفس بالموت دونه! ولكن أخي عزم عليّ وناشدني فأطعته وكأنما يجز أنفي بالمواسي ويشرح قلبي بالمدى!! وقد قال الله عز وجل: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾"، أنساب الأشراف: 149/3. والنص القرآني في: النساء/9، زيادة على دلالات رسالته (ع) التي نحن بصدها.

اتهاماته له، فلم يقل له: (كدني بما تريد) بل ما بدا لك مني، أي ما بدا منه (ع) حتى مجيء كتاب معاوية له، وهذه المعية تفوق بصدقها وعفويتها بمراحل دهاء معاوية وبالنتيجة إسكاته إلى حين⁽¹⁾.

وقوله (ع): (اعلم أن الله ليس بناسٍ لك...) [إمارتك صبيبا يشرب الشراب، ويلعب بالكلاب] إنما هو تكثيف لغاية الرسالة وموضوعها؛ إذ انبثقت منه إشارة عميقة يتجلى من خلالها جانب من الأسباب التي ألحت عليه (ع) في الخروج على يزيد فيما بعد، فضلا عن دلالتها الزمنية للنزاع وتفاقمه في أخريات أيام معاوية.

وختم (ع) كلامه بقوله: (ما أراك إلا أوبقت نفسك...)؛ والخاتمة هذه إنما هي: "ردّ على مواعظ معاوية"⁽²⁾ وتوبيخ له.

لقد كان للسياق التاريخي أثر جوهري في إضاءة الرسالة والكشف عن معناها وجلي مقاصدها وغايتها وتحديد القضايا التي جرى التعبير فيها⁽³⁾. وكذلك كان لسياق الحال أثر فاعل في إعلان موقف الإمام (ع) وظروف إبداءه للرسالة ومناسبتها، وما تطلب ذلك من أن تتفرد هذه الرسالة بطول موضوعها واختفاء مقدماتها، وإيجاز خاتماتها، وبالنتيجة بنية نص متميزة؛ ومعروف أن "بنية النص محكومة بسياق الحال"⁽⁴⁾.

وإذا تفحصنا الأسباب التي دعت معاوية إلى عدم الرد على جواب الإمام الحسين (ع)، وجدنا أن أهمها - كما نحسب - سببان:

الأول: أن رسالة الإمام (ع) بددت شكوك معاوية ومخاوفه من نهضته (ع)، وما استتلى ذلك من اطمئنان ثقل معاوية لأجله وبرد.

الثاني: يتضح من قول معاوية لمن حثه على جواب الإمام (ع) وتعنيفه: "ما عسيت أن أقول في حسين ولست أراه للعيب موضعا"⁽⁵⁾؛ فهذا القول يمثل حقيقة الحسين (ع) عند معاوية وسائر أعدائه، فضلا عن عجز معاوية عن دفع الحقائق التي جاءت بها رسالة الحسين (ع) التي تميزت بفسوخ المعاني وقوة التوصيل.

ولم يقتصر صراعه (ع) مع السلطة الأموية على التحديات الخطابية أو الكتابية، بل أخذ الصراع صورة واقعية أحيانا، إذ عمد إلى مصادرة أموال قافلة أقبلت من اليمن إلى الشام؛ ليسد بها حوائج المحتاجين من بني هاشم وغيرهم، وكتب إلى معاوية: "من الحسين بن علي إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فإن عيرا مرت بنا من اليمن تحمل مالا وحللا وعنبرا وطيبا إليك لتودعها خزائن دمشق، وتعل بها بعد النهل بني أبيك، وإنني احتجت إليها فأخذتها والسلام"⁽⁶⁾.

(1) ينظر: الحسين في الفكر المسيحي: 216.

(2) الإمام الحسين بن علي (ع) سيد الشهداء: 105.

(3) عن أثر السياق التاريخي عموما، ينظر: اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، تر: د. عباس صادق الوهاب: 225.

(4) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: 108/1، وينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع: 127.

(5) أنساب الأشراف: 154/3.

(6) شرح نهج البلاغة: 327/4، وينظر: ناسخ التواريخ، محمد تقي السبهر، ترجمة وتحقيق: سيد علي جمال أشرف: 127/1، وجمهرة رسائل العرب: 25/2، وحياة الإمام الحسين (ع): 232/2.

ولا ريب في أن تصرف الإمام(ع) بهذه الأموال إنما يمثل إشارة فعلية قصد توصيلها إلى السلطة الأموية والجماهير للتنبيه على جور السياسة الاقتصادية للسلطة الأموية، وللتشديد على حق الإمام(ع) الشرعي بمزاولة مسؤولياته وتنشيط فاعليته متى ما طلب الأمر ذلك. ومن الدلائل العميقة التي تدعم المعنى السابق في هذا السياق، ابتداء الإمام(ع) بنفسه في الكتابة بهذا الشأن لمعاوية، فضلا عن عدم تسميته لمعاوية بأمر المؤمنين.

2=الخطبة والصراع السياسي مع السلطة الأموية: تباينت أساليب النزاع السياسي وتعددت وقائعه حتى بلغ الخلاف قرنه- أو كاد- حين قدم معاوية المدينة طلبا لبيعة يزيد، ولما أقعده اليأس عنها التمس المكر لها، سعيًا منه لقضم فاعلية الرموز المناوئة للسلطة ومصادرة آرائهم وكان في مقدمة هذه الرموز الإمام الحسين(ع) وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن أبي بكر⁽¹⁾.

وإبان تلك الأحداث خطب معاوية مبرزًا مكانة يزيد منوها بفضلها وعلمه مصدقا لحسن الظن به معتقدا بصلاحيته للخلافة بعده، وقد أطنب معاوية في مقدمته، حتى جاوزت شطر خطبته؛ رغبة منه في التواصل مع الجمهور لإقناعه بصحة تولية يزيد العهد⁽²⁾.

وجاء في تنمة الخبر ما يشير إشارة واضحة لعظم خطر الإمام(ع) عند أعدائه: "فتيسر ابن عباس للكلام، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين وقال: على رسلك، فأنا المراد، ونصيبي من التهمة أوفر، فامسك ابن عباس، فقام الحسين، فحمد الله، وصلى على الرسول ثم قال: أما بعد يا معاوية، فلن يؤدي القائل، وإن أطنب في صفة الرسول(ص) من جميع جزءا[...]] وهيهات هيهات يا معاوية: فضح الصباح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فضلت حتى أفرطت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت[...]] وفهمت ما ذكرته عن يزيد، كأنك تصف محجوبا، أو تنعت غائبا، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه من استقرائه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمائم السبق لأترابهن، والقيان ذات المعازف وضرب الملاهي تجده باصرا ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية"⁽³⁾.

وهكذا استطاع الإمام(ع) نقض مزاعم معاوية وإطرائه ليزيد من خلال تسفيهه لأراء معاوية معتمدا التهكم والتحقير.

وقد تمكن(ع) من إزاحة النقاب عن "الحياة المترفة الناعمة اللاهية التي كانت تحيط بيزيد، حياة الأمراء في القصور، يلهون بالتحارش بين الكلاب، والتسابق بين

(1) للاطلاع على تفاصيل حيلة معاوية بهذا الصدد، ينظر: تاريخ الطبري: 303/5-304، والكامل في التاريخ: 448/3.

(2) للاطلاع على خطبة معاوية، ينظر: الإمامة والسياسة: 150.

(3) م.ن: 150-151، وينظر: جمهرة خطب العرب: 255/2، ولمعة من بلاغة الحسين: 16، وحياة الإمام الحسين(ع): 219/2-220.

الحمام، والعيش بين المعازف والقيان"⁽¹⁾، وكان الإمام يبتغي من وراء ذلك تبصير الجماهير بخروقات السلطة الأموية.

ومن المناسب الإشارة- هنا- إلى حسن استهلال خطبته(ع) الموجز وفاعليته المزروجة في تحجيم التواصل بين معاوية والمتلقين، وجذب اهتمام المخاطبين نحوه، إذ إن "من شأن الاستهلال الجيد أن يبقي وظيفة التلقي قائمة إلى أقصاها"⁽²⁾ كما أسلفنا. وقول معاوية مذهبولا عقب خطبة الإمام(ع): "ما هذا يا ابن عباس"⁽³⁾، يشكل تجليا واضحا للمعاني السابقة.

ولم يفتر(ع) من طلب الفرصة لإنهاض المسلمين وإيقاظهم وتحذيرهم من إمارة يزيد، ولاسيما في موسم الحج إذ جمع عددا كبيرا من أصحاب الرسول(ص) والتابعين مع أهله ومواليه، فقام بهم خطيبا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد، فإن هذا الطاغية قد فعل بنا وبشييعتنا ما قد رأيتم وعلمتم وشهدتم، وإنني أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقت فصدقوني وإن كذبت فكذبوني"⁽⁴⁾ ثم استرسل في ذكر النصوص الشرعية التي جاءت بحق أهل البيت(ع)⁽⁵⁾.

وسارت خطبة الإمام على وفق سياق اجتماعي ثقافي، إذ حرص على انتقاء الزمان وانتخاب المشاركين ونوع النص، لمواجهة تغير الأحداث وبث دعواه. ويحصل مثل هذا الانتقاء بغية إحداث الفاعلية في التوصيل إلى المتلقين⁽⁶⁾.

وإن إصرار الإمام على المطالبة بحقه في الخلافة وملازمته للدعوة لها لأكثر من عقد، لا ينطلق من رؤيته للخلافة بوصفها مغنما أو امتيازاً بل بوصفها تكليفا شرعيا رساليا. ومن ذلك قوله في خطبة له(ع) في منى: "اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان تنافسا في سلطان، ولا التماسا من فضول الحطام، ولكن لنُري المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وستنتك وأحكامك"⁽⁷⁾.

ولم يقتصر الصراع السياسي بين الإمام الحسين(ع) والسلطة الأموية على شخص معاوية فحسب، بل امتد أيضا إلى يزيد بن معاوية الذي حاول كسب الصراع السياسي مع الحسين(ع) قبيل حركة الإمام الثورية، فقد بعث يزيد برسالة شعرية⁽⁸⁾

(1) الخطابة في صدر الإسلام: 273/2.

(2) استقبال النص عند العرب: 69- 70.

(3) الإمامة والسياسة: 151/1.

(4) كتاب سليم بن قيس الهلالي: 788/2- 789، وينظر: منتهى الآمال: 336/1، وأدب الحسين وحماسته: 92. و(الطاغية) هو معاوية في إشارة إلى إعطاء ولاية العهد لابنه يزيد وإلى بقية الأفعال العدوانية حيال شيعة أهل البيت(ع).

(5) ينظر: كتاب سليم بن قيس الهلالي: 789/2.

(6) ينظر: نظرية البنائية في النقد الأدبي: 236، وعلم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: 109/1، والنظرية والنقد الثقافي: 12.

(7) تحف العقول: 170- 171، وينظر: بحار الأنوار: 79/100.

(3) القصيدة تتألف من أحد عشر بيتا، اخترنا منها أربعة أبيات [من بحر البسيط]:

أبلغ قريشا على نأي المزار بها بيني وبين الحسين الله والرحم

عنيتكم قومكم فخرا بأمكم أم لعمرى حصان عمها الكرم

إن سوف يترككم ما تدعون به قتلى تهادكم العقبان والرخم

يا قومنا! لا تشبوا الحرب إذ سكنت واستمسكوا بحبال الخير واعتصموا

مدح فيها نسب الإمام(ع) وحذره وأصحابه من القتل الذي ينتظرهم بخروجهم على السلطة الحاكمة، داعياً الإمام إلى الطاعة، عامداً على إضفاء الطابع الإسلامي على تلك المحاولة، ولاسيما أنه أمر عامل مكة بقراءتها أمام الناس في موسم الحج وكذا فعل في المدينة، وقد عمد بعض أهل المدينة إلى تسليمه(ع) رسالة يزيد من دون إعلامه عن هوية صاحبها فما أن تأمل فيها حتى عرفها من يزيد، فكان جوابه عنها بآية قرآنية: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾⁽¹⁾.

إن إجابة الحسين(ع) بنص قرآني من دون أي نص آخر، له- كما أحسب- إشارات عميقة، فالنص القرآني في الوقت الذي يمثل ساحة اشتغال الإمام الرئيسة والأهم في التصدي لقضايا الأمة الإسلامية، وبخاصة قضية الإمامة واستحقاقاتها القيادية، فإن مدلول النص قطع السبيل أمام يزيد الذي حاول أن يتسرّب بلباس الدين والرحم؛ لتمرير نواياه في هدم مرتكزات الحركة الحسينية المرتقبة والإساءة إلى مستقبلها ونتائجها، إذ أعلن الإمام من خلال سياق النص القرآني براءته من يزيد وأعوانه الذين لا يؤمنون، وبرائتهم من عمله⁽²⁾، تشديداً منه(ع) على فصم عرى العلائق غير الإسلامية معهم، وتشديداً على عدم استعداده للتعاطي مع يزيد بأي حال من الأحوال، إلى جانب عدم ميل الإمام(ع) لتضمين نتاجه أبياتاً شعرية⁽³⁾.

إن السياق الإعلامي الذي وردت فيه رسالة يزيد، وقدرة الإمام على فهم الحالة الذهنية لشخص الدولة الأموية، من خلال تجربته العريضة معهم، ساعده(ع) في الكشف عن هوية الباعث؛ لأن "الكاتب متموضع في كلماته ولذلك يقال أعرفك من كلماتك"⁽⁴⁾. ومن هذا نلاحظ أنه(ع) انماز بقوة التلقي والإرسال معا.

ومن خلال النصوص السابقة في هذا المبحث يتجلى موقف الإمام(ع) ونجاحه في عهد معاوية، إذ كان من كفنا "على تحصين الأمة ضد الانهيار التام فأعطاه من المقومات المعنوية القدر الكافي، حتى تتمكن من البقاء صامدة في مواجهة المحن"⁽⁵⁾، ليتمكن(ع) من أن "يعد نفسه للانتفاضة بعد حكم معاوية"⁽⁶⁾. وما رسالة يزيد الأخيرة وجواب الإمام عليها إلا إشعار بدنو المواجهة العسكرية المرتقبة مع السلطة الأموية.

ثالثاً: الدعوة إلى الجهاد: إن أغلب خلافتات الأمة الإسلامية ولاسيما في السنوات الخمسين الفاصلة بين وفاة الرسول(ص) وشهادة الحسين(ع) تمحورت حول مقومات

وللاطلاع على القصيدة كاملة، ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 313/1، والبداية والنهاية، ابن كثير: 536/8.

(1) ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 313/1، ولمعة من بلاغة الحسين: 107-108. والنص القرآني في: يونس/41.

(2) ينظر: تفسير الميزان، الطباطبائي: 256/11، وتفسير القرآن الكريم، عبد الله شبر: 213/11.

(3) من أدلة ذلك إجماع الإمام(ع) عن جواب معاوية كذلك حينما بعث الأخير رسالة تضمنت شعرا. ينظر: ناسخ التواريخ: 127/1.

(4) لغة الإعلام- دراسة نظرية تطبيقية، د. محمد عبد المطلب البكاء: 56، ينظر: ومبادئ النقد الأدبي، أي. أي. ريتشاردز: 170، ومنهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، د. علي زوين: 44.

(5) أعلام الهداية: 115.

(6) الملحمة الحسينية: 23/1.

الإمامة واستحقاقاتها؛ "إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان"⁽¹⁾.

كانت الخلافة الأموية في تلك الحقبة على الرغم من السلبيات التي أحاطت بها، تتمتع بالشرعية في نظر كثير من المسلمين، وكانت هذه الشرعية تمكن بني أمية من رقاب المسلمين، وتشل عمل المعارضة ودورها⁽²⁾. فقد أفلح معاوية بشكل خاص في تدجين الناس للسلطة، وتثبيت رهبة النظام وسطوته في نفوس المسلمين⁽³⁾، ولكن ما إن نُعي معاوية سنة ٤٠ هـ⁽⁴⁾، وحن عهد يزيد حتى كُسرت الجرّة وافترض ما كان متواريا عن النظارة ردحا من الزمن⁽⁵⁾.

ولم يلبث يزيد أن استوى على كرسي الخلافة حتى طفق يأمر والي المدينة بأخذ البيعة من الحسين (ع) أخذا شديدا ليس فيه رخصة⁽⁶⁾، فما كان من الإمام (ع) إلا أن يجيبهم بالرفض قائلا: "إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة ومحل الرحمة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله"⁽⁷⁾، وبهذه الكلمات التاريخية أعلن الإمام موقفه صراحة حيال بيعة يزيد لا يستهويه طمع أو يطوّح به خوف.

وقد حققت الرسائل والخطب حضورا متميزا في دعوته للجهاد، فغالبا ما يكون القلم واللسان هما السلاح الأبرز في رحي تلك النزاعات⁽⁸⁾، مع تفوق بين في مساحة الرسائل، وهذا ما تقتضيه طبيعة الدعوة الجهادية وحاجتها لبعث الرسائل إلى أمصار مختلفة، بينما كانت مشاركة بقية الأنواع الأدبية مشاركة خجولة في هذا الميدان. **محنة/الرسالة والدعوة إلى الجهاد:** لم يخف على الإمام (ع) أن ترد دعوته؛ لعلمه بغرائر الناس، وحبهم للعافية، وحرصهم على الدنيا؛ وطبيعي أن تكون في "ذهن كل قائم بالاتصال صورة الشخص الذي يتلقى رسالته"⁽⁹⁾، ولذلك وعد (ع) بالصبر، والصبر على أية حال، تسليم لقضاء الله وحكمته، وبهذه المعاني ختم الإمام وصيته، إذ قال: "ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يحكم الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين"⁽¹⁰⁾.

وقد كان توديعه (ع) لقبر جدّه المصطفى (ص) والدعاء بجنبه آخر العهد بالمدينة، بقوله: "اللهم إن هذا قبر نبيك محمد (صلى الله عليه وآله) وأنا ابن بنت نبيك، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللهم! إني أحب المعروف وأكره المنكر،

(1) الملل والنحل، الشهرستاني: 13/1.
(2) ينظر: رسالة الحسين (ع)، مركز دراسات نهضة الحسين (ع): 35.
(3) ينظر: م.ن: 42.
(4) ينظر: الأخبار الطوال: 333، والإرشاد: 292.
(5) ينظر: الملحمة الحسينية: 201/1 - 202.
(6) ينظر: وقعة الطف: 75، وتاريخ يعقوبي: 168/2.
(7) إعلام الوري بأعلام الهدى: 222، وينظر: مقتل الحسين، المقدم: 129، ولمعرفة المزيد من سمات يزيد، ينظر: يزيد بن معاوية، أبو جعفر أحمد المكي، إجمالا.
(8) ينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 114.
(9) الأسس العلمية لنظريات الإعلام: 368-369.
(10) مقتل الحسين، المقدم: 139، وينظر: الفتوح، ابن أعثم: 35/5.

وإني أسألك يا ذا الجلال والإكرام! بحق هذا القبر ومن فيه إلا اخترت لي من أمري ما هو لك رضى، ولرسولك رضى، وللمؤمنين رضى" (1).

وصحب دعوة الحسين (ع) للجهاد وبيان أسبابه، إعلانه لواقع السلطة الأموية ونعتهم بنعوت تتجلى في قوله: "قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله" (2).

ولا شك في أن خروج الإمام إلى مكة إنما هو تعبير عن رفضه للبيعة وتشوير جذري لأفكار المسلمين وإعلان صريح لنهضته، ولاسيما أنه لزم الطريق الأعظم عند رحيله إلى مكة ولم يتنكب الطريق كما فعل بعض معارضي الدولة الأموية مثل عبد الله بن الزبير (3)، إذ قام (ع) في هذه المرحلة الزمنية الحرجة بدور توعوي تعبوي (4)؛ قاصدا الاحتجاج مستثمرا موقع مكة الجغرافي المتميز، زيادة على قداستها ومنزلتها الرفيعة في قلوب المسلمين، مبرزاً القضية بأجلى صورها من حيث إن "المكان والزمان يشكلان إطار الحدث" (5).

وسرعان ما بلغت أصداء حركته أهل الكوفة فراحوا يطمرون الإمام (ع) بسيل من رسائلهم (6) التي تدعوه إلى القدوم عليهم ويستحثونه في الشخوص عليهم لأخذ البيعة وتولي الإمامة (7).

وتلاقت الرسل كلها عنده (ع) فقرأ الكتب، ثم كتب: "أما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم، وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إلي بحالكم وأمركم ورأيكم، فإن كتب إلي أنه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم، أقدم إليكم وشيكا إن شاء الله" (8). ولا شك في أن قوله (ع): (وقد بعثت إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل) إنما هو تدعيم لقناة التوصيل، وتمتين لأدائها، وبالنتيجة تعزيز لمهمة مسلم بن عقيل.

ومن المناسب الإشارة -هنا- إلى أن دعوة "أهل الكوفة ليست هي السبب في تكوين النهضة، بل إن نهضة الإمام هي التي أوجدت أو سببت أن يقدم أهل الكوفة دعوتهم للإمام" (9)، أي إنهم لم يحركوه، وإنما هو الذي حركهم (10)، إذ لم تذكر كتب

(1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 270/1، وينظر: مثير الأحزان، الشريف الجواهري: 16، ومقتل الإمام الحسين أو واقعة الطف: 133.

(2) تاريخ الطبري: 403/5، وينظر: الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين: 100.

(2) ينظر: تاريخ الطبري: 340/5-341.

(4) نهضة الحسين، هبة الدين الشهرستاني: 54.

(5) الزمکان بین العلم والخیال (مقال)، حيدر محمد: 30.

(5) جاء في أحد كتب أهل الكوفة إلى الحسين (ع): "أما بعد، فإن الناس ينتظرونك، لا رأي لهم غيرك، فالعجل العجل يا ابن رسول الله"، الملهوف على قتلى الطفوف: 106.

(7) ينظر: وقعة الطف: 89، 90، 91، 92 على سبيل المثال، ومقاتل الطالبين: 99.

(8) الكامل في التاريخ: 475/3، وينظر: البداية والنهاية: 225/8، والإرشاد: 297.

(9) الملحمة الحسينية: 30/2.

(10) الإمام الحسين شمس لن تغيب، جميل الربيعي: 120.

التاريخ والسير التي اطلع الباحث عليها، أن الإمام استقبل رسالة في المدينة من أهل الكوفة بهذا الصدد أو غيره، بعد موت معاوية، وإنما حصل ذلك في مكة. وبعد أن استقر الحال بـ(مسلم) سفير الإمام الحسين(ع) في الكوفة أقبلت عليه الجموع تبايعه، فكتب إلى الإمام: "أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل، فاقدم فإن جميع الناس معك، ولا رأي لهم في آل أبي سفيان"(1).

يفصح هذا الكتاب عن ولاء كبير من أهل الكوفة ونزوعهم الشديد إلى إمامة الحسين(ع)، وهو- بعد- إشارة صريحة إلى النجاح الكبير الذي حققه مسلم في توصيل ما أنيط به من مهام السفير الأمين. ولا ريب في أن كثرة رسائل الكوفة أسهمت وبشكل فاعل في تحديد وجهة مسيرة الإمام الجهادية، وجعلته أمام استحقاقات تاريخية زيادة على تكليفه الديني. ولم تتفرد الكوفة بكتب الإمام(ع) طويلاً حتى انضمت إليها البصرة، إذ كتب الإمام إلى أشرافها: "أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه(صلى الله عليه وسلم)، فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد"(2).

وفي غمرة هذا الحراك السياسي الملتهب بين الإمام ومريديه، وما بينهم من أخذ ورد، حاول عدد من الشخصيات الإسلامية والرسومية، وبعض أرحامه من بني هاشم، أن يمنعوهم من القيام بالنهضة أو الذهاب إلى العراق، لعدم وثوقهم بوعود أنصار الإمام(ع) فضلاً عن بطش السلطة الأموية الحاكمة(3)، وهؤلاء الناصحون كانوا بين مشفق ومغرض(4).

ويبدو أن هذه النصائح كانت تسير على وفق خطوط عابرة وحسابات مادية لا تدلف إلى العمق الحسيني، بقدر ما تمس السطح أو تلامس القشور؛ "لأن الواقع الإسلامي كان يحتاج إلى هزة بحجم استشهاد الحسين وبحجم مأساته"(5)، ليبعث في الروح الهامدة جذوة جديدة لا يخمد أوارها على مر السنين، وربما يطابق هذا الرأي جواب الإمام(ع) لأغلب الناصحين: "إني قد رأيت جدي رسول الله(صلى الله عليه وآله) في منامي فأخبرني بأمر أنا ماض له، كان لي أو علي"(6).

(1) الأخبار الطوال: 359، وينظر: أنساب الأشراف: 167/3، وجمهرة رسائل العرب: 77/2، والشهيد مسلم بن عقيل: 148. و(الرائد): هو الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلاً ومساقط الغيث، ينظر: لسان العرب: مادة(ر و د)، والتوسع في الاستعمال واضح هنا.

(2) تاريخ الطبري: 357/5.

(3) ينظر: الإرشاد: 319-320 على سبيل المثال، والكامل في التاريخ: 490/3-491.

(4) ينظر: منتهى الآمال: 455/1، وسيرة الأئمة الإثني عشر: 65/2-66.

(5) مسيرة الحسين في الأسلوب والهدف(مقال في شبكة المعلومات)، السيد محمد حسين فضل الله.

(6) مقتل الحسين، الخوارزمي: 312/1، وينظر: مثير الأحزان: 49-50. وقد ورد عن النبي(ص) أنه قال: ((من رآني في النوم فقد رآني، فإنه لا ينبغي للشيطان أن يتشبه بي))، صحيح مسلم: 894، وينظر: صحيح البخاري: 1239.

وبهذا يتضح رفضه (ع) لأي اختزال لجوهر الثورة، أو تسطيح لغاياتها، وعدم السماح بتهميش نصوصها وتهشيم اسمها، والنأي بها عن التأويلات المادية إذ "أصبحت الشهادة مطلباً محتماً وقضية لازمة سعى إليها الإمام" (1)، بكل إرادة وفداء. ومن السمات البارزة التي وسمت حركة الإمام (ع)، انطلاقها من خلال عنوانات إسلامية عامة لا من خلال خصوصية إمامته التي لا يقتدي بها إلا الخاصة معه (2)، كقوله: "إني لم أخرج أشراً [...] خرجت أطلب الإصلاح" (3)، وقوله: "إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: مَنْ رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا..." (4)، وقوله: "وقد فهمت كل الذي اقتصصتم [...] أنه ليس علينا إمام" (5)؛ فالحسين كان يتمثل الإسلام في خطواته الثورية (6)، وهو إذ ثار من أجل الحق فالحق لكل الشعوب (7)، ومن ذلك وأمثاله جاء تأثير أقواله وكلماته (ع) من حيث إنّ "العمل الفني حين يمس جوهر الإنسان يشرك أكبر عدد من الناس في الاستجابة للأثر الفني" (8). وهكذا أراد (ع) أن تكون نهضته "منارا يضيء الدرب أمام جميع المصلحين على مختلف أهوائهم ونحلهم، كل يرتشف منها بمقدار سعة ظرفه، وطهارة نفسه" (9). ومن هنا، فإن العنوانات العامة تلك، جعلت ثورة الحسين (ع) عالمية إنسانية متجاوزة في خطابها الزمان والمكان لتستوعب أوسع الأمكنة مع اختلاف المجتمعات وتطورها.

الخطبة والدعوة إلى الجهاد: لم يكتف الإمام (ع) بإبراز العنوانات العامة لثورته، بل كشف عما كان ينتظره من عظيم ابتلاء وفادح خطب وكيفية مواجهتهما، وما سببا له من جزاء أخروي. جاءت تلك المعاني في خطبته التي ودّع فيها مكة، وعلى عجل، قاصدا العراق من دون إتمام الحج (10)، إذ أخبر أن السلطة الأموية دسّت إليه عشرات الرجال لاغتياله في مكة على أية حال اتفق (11): "الحمد لله وما شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله وسلم، خُطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقية، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشا جوفاً وأجربة سغباً، لا محيص عن يوم خُطّ بالقلم، رضى الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين لن تشذ عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) لحمته بل هي مجموعة له في حضيرة القدس،

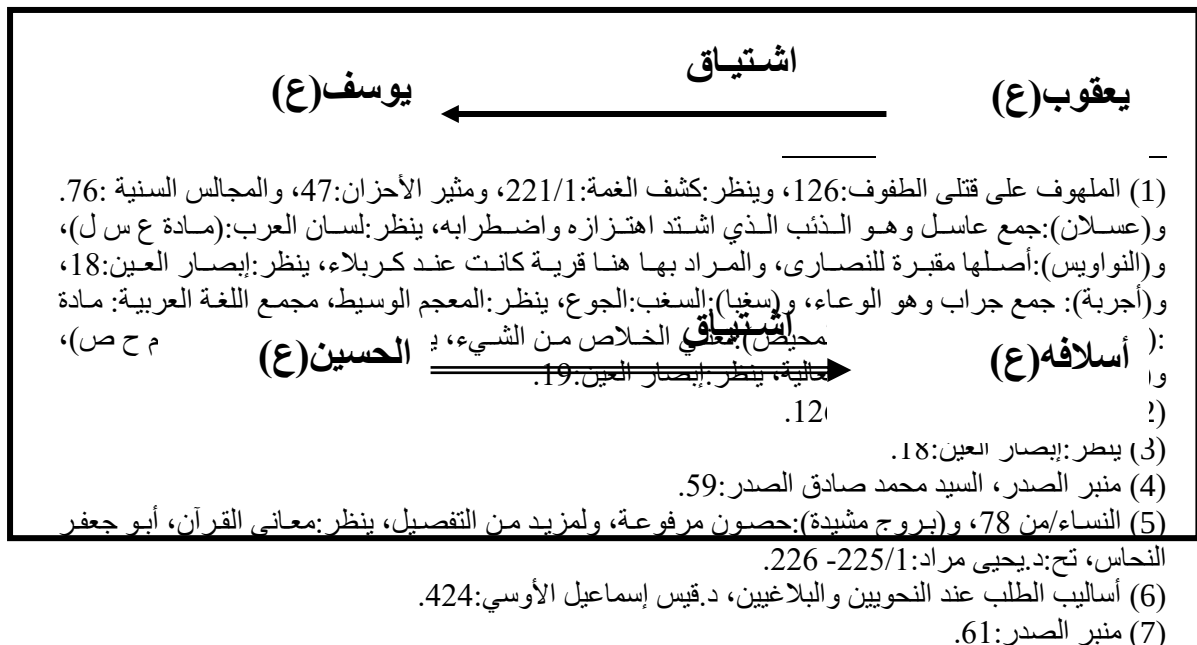
- (1) الرسالية في الثورة الحسينية: 186.
- (2) ينظر: وقفات فكرية مع بعض مضامين عاشوراء (مقال في شبكة المعلومات)، السيد محمد حسين فضل الله.
- (3) ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 273/1.
- (4) ينظر: الكامل في التاريخ: 502/3.
- (5) ينظر: تاريخ الطبري: 353/5.
- (6) ينظر: الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري، د. محمد حسين علي الصغير: 399.
- (7) ينظر: الحسين في الفكر المسيحي: 71.
- (8) النصوص الأدبية: 23.
- (9) الإمام الحسين شمس لن تغيب: 421.
- (10) خرج (ع) من مكة إلى العراق لثمان مضيّن من ذي الحجة يوم الثلاثاء يوم التروية، ينظر: تاريخ الطبري: 381/5.
- (11) تنظر رسالة عبد الله بن عباس إلى يزيد، في: تاريخ اليعقوبي: ص ١٠٠ / رَجَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، ولواعج الأشجان: ١٠٠.

تقر بهم عينه وينجز بهم وعده"⁽¹⁾، ثم يناشد الجمهور قائلاً: "من كان باذلاً فينا مهجته وموطننا على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإني راحل مُصباحاً إن شاء الله"⁽²⁾.

لعل بعض ما يميز هذه الخطبة هو سرعة الإمام(ع) في بيان فحوى الرسالة من خلال إبراز عنوانها في أول كلامه بعد التحميد والتسليم، ألا وهو (الموت)، إذ بدأ بذكر سمة الموت الكبرى وتوأمه الوفي حين ذكر (حتمية الموت) بقوله: (خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة)، والمقصود بـ(مخط القلادة)، موضع خط القلادة أي الجلد المستدير من جيد الفتاة⁽³⁾، وعليه فإن "مخط القلادة على جيد الفتاة" أمر تقريبي وتعبير أدبي، وإلا فهو ليس بأمر دائم؛ لأن كثيراً من النساء لا يلبسن القلائد لفقر أو غيره، مع أن الموت عام للجميع"⁽⁴⁾، وكأن الإمام أراد أن يقول: لا تتوهموا في أنكم لو لم تشهدوا القتال لكنتم في مأمن من الموت. ويناغم هذا المعنى، ما جاء في القرآن الكريم: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾⁽⁵⁾.

ثم ينتقل في كلامه(ع) فيقول: (وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف)، ولما كان الوله شدة الشوق، ثم ضاعف الوله بدخول (ما) التعجبية عليه، فيصير المعنى أنه(ع) أراد أن يخبر عن عظيم شوقه إلى آبائه، فـ"التعجب ضرب من الخبر"⁽⁶⁾، وبالدقة أراد أن يخبر عن عظيم شوقه، إلى المقامات العليا لأرواح أسلافه تلك التي لا ينالها إلا بالشهادة⁽⁷⁾.

وبهذا أخذ(ع) من شوق يعقوب إلى يوسف(ع) شدة الشوق، أما نوع الشوق فمختلف، لأن اشتياق يعقوب إلى يوسف(ع) كان في الدنيا كما هو معروف، وأما اشتياق الحسين(ع) فهو اشتياق لا يحصل في الدنيا وإنما يحصل في الآخرة زيادة عن أن اشتياق يعقوب إلى يوسف(ع) يتجه من السلف إلى الخلف، وأما اشتياق الحسين إلى آبائه(ع) فإنه يتجه من الخلف إلى السلف، كما يوضحه الرسم الآتي:



ولذلك يخيل لمن ينظر إلى شيبته المقدسة بأنه لم يعد موجودا على هذه الأرض إلا بجسده فحسب⁽¹⁾.

وعبارة: (وخير لي مصرع أنا لاقيه) بمعنى، اختاره الله تعالى لي، فهو (ع) يختار ما اختاره الله تعالى له، وهذا هو الاختيار الصحيح، فعلى أن نختار ما يختاره الله تعالى⁽²⁾.

واتساقا مع الدقة في وصف مصرعه، فإنه حدد مكان مصرعه أيضا (بين النواويس وكرباء) كما أخبره جدّه المصطفى⁽³⁾.

وقد أطر الإمام (ع) تلك الصورة بقوله: (لا محيص عن يوم خط بالقلم)؛ تأكيدا منه للمعنى الأول (خط الموت) زيادة على التسليم المطلق لأمر الله.

ثم عرّج على منزلة أهل البيت (ع)، فقد قرن رضا الله سبحانه وتعالى برضاهم، بوصفهم الوسيلة إليه، إذ قال: (رضى الله رضانا أهل البيت) وهو في كل ما تقدم من بلاء، صابر محتسب.

وبعدها ينتقل إلى صورة أخرى: (لن تشذ عن رسول الله لحمته)، فالإمام يؤكد ويقول: نحن قطعة من رسول الله وفلذة كبده وأنا من النسيج المحمدي بمثابة لحمته فالذي يريد أن يدخل في نسيج الرسالة فليأت معنا⁽⁴⁾.

وبعد كل ذلك التبصير لجأ (ع) صراحة إلى الدعوة إلى النصر، ولكن على وفق شرطين:

الأول: أن يكون (باذلا فينا مهجته) والبذل قمة الكرم، و(فينا) يعني أهل البيت (ع)؛ لكونهم بنية تفكير واحدة، وغاية واحدة، وهي من قرينة (رضانا) السابقة، فيكون لازما على (الناصر) أن يكون كريما جوادا بنفسه، والجود بالنفس، أقصى غاية الجود. وبناء على ما تقدم، فإن "الحسين (ع) يريد من الناس أن يبذلوا له مهجهم ودماءهم، بذلا عن وعي واختيار من غير قسر ولا إجبار"⁽⁵⁾.

الثاني: أن يكون: (موطنا على لقاء الله نفسه)، فالإمام (ع) يروم أن يرتقي بنفسه الناصر حتى يجعلها محلا ومسكنا ووطنا للقاء الله سبحانه فحسب، لتخلو هذه النفس من أي استعداد للقاء غيره جلّ وعلا.

(1) ينظر: الحسين في الفكر المسيحي: 101.

(2) ينظر: في ظلال الطف، محمد مهدي الأصفى: 124.

(3) ينظر: الإرشاد: 320، البداية والنهاية: 536/8.

(4) في ظلال الطف: 125.

(5) تأملات في الخطاب الحسيني (مقال)، محمد مهدي الأصفى: 45.

وإذا تحقق هذان الشرطان أي البذل والتوطين:(فليرحل معنا) ثم يختتم كلامه(ع):(فإني راحل مصباحا إن شاء الله).
المتأمل في المقطع الأخير يرى أن ظاهر الرحلة من الحجاز إلى العراق لنصرة الحسين(ع)، ولكن باطن هذه الرحلة من الأنا إلى الله، ومن الدنيا إلى الآخرة ومن الاستئثار إلى الإيثار⁽¹⁾.
ولا مرأى في أن إعداد الفرد لمشروع استشهادي أمر بالغ التعقيد، ومن أجل ذلك، سعى(ع)- من جملة ما سعى إليه- إلى أن تكون خطبته في هذا السياق مركبة من عدة صور تمازجت وتسلست على وفق هرمية حفظت لكل صورة هيكلها وعنصرها الذاتي المميز؛ ليثير نزوع المتلقي إلى فهم النص وتذوقه، ساعيا إلى أن يوصل إليه ما أراد؛ من خلال جعله بالصورة التي أراد.
ولا يخفى ما في خاتمة خطبته من إصرار عجيب على الرحيل، وعزم (لامتناه) على خوض غمار واقعة الطف، ومما طيب نفسه وطمأن روحه أن شيع ذلك الرحيل بمشيئة الله وحكمته.

رابعاً: واقعة الطف: إن معركة الطف هي الواقعة الأشهر في حياة الإمام الحسين(ع)، إذ فجرت هذه الملحمة العديد من الخطب، حتى غدت لسانها الناطق وقلبها النابض الحافظ؛ وهذا أمر متوقع، فالخطب سلاح بارز وقت التصاول والتجاول في ميدان الفتنة⁽²⁾، وهي بعد "فن توصيلي متعدد الجوانب والأطراف والمواقف"⁽³⁾، وكل هذا مما يتطلبه سياق المعركة.
ثم جاءت أدعيته(ع)- بفارق ملحوظ- تتلو خطبه في مساحة هذا المضمار السياسي، فيما انتحت بقية أنواعه الأدبية عن سابقتيهما مكانا قصيا.
انطلقت قافلة الإمام(ع) في رحلته الأخيرة مودعا مكة المكرمة ليخط أولى خطوات مسيرته الجهادية صوب العراق، فما إن ناهز مشارف العراق، حتى بلغه استشهاد سفيره مسلم بن عقيل وبعض رسله وأنصاره⁽⁴⁾، وعند ذاك شعر أن وعود أهل الكوفة وموathيقهم بدأت تنمطي وتتناهب، فأوجس منهم حنثا ونكثا؛ لذلك كتب إليهم عليهم يفيقوا أو يرشدوا: "وقد أتتني كتبكم وقدمت عليّ رُسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن وفيتم لي ببيعتكم، فقد أصبتم حظكم ورُشدكم، ونفسي مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهليكم وأولادكم، فلكم بي أسوة حسنة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهودكم ونكثتم ببيعتكم فلعمرى، ما هي منكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم"⁽⁵⁾.

(1) تأملات في الخطاب الحسيني: 54.
(2) ينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 121، والأدب في عصر النبوة والراشدين: 165.
(3) النثر الفني في صدر الإسلام والعصر الأموي: 233.
(4) ينظر: تاريخ الطبري: 382/5 و 389 على سبيل المثال، والإرشاد: 323-324.
(5) مقتل الحسين، الخوارزمي: 334/1-335، وينظر: الكامل في التاريخ: 205/3، وخطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 155-156.

إن كلمات الإمام(نفسه مع أنفسكم، وأهلي وولدي مع أهليكم وأولادكم) تنشي بدلالات بعيدة الغور؛ فهي من جانب، رسمت أنموذجاً نادراً لقيادة رسالية فريدة سحقت الذات وطلّقت الأنا، ومن جانب آخر تمثل فكا لشفرة من شفرات أسرارها، التي يتجلى من خلالها الكشف عن أحد الأسباب التي دعت به إلى اصطحاب أهله وعياله إلى كربلاء، وهذا متأث من كونه عالماً بطبيعة الإنسان ملماً بخباياه سابراً أغوار النفوس، ونزوعها في الظروف المصيرية الحرجة إلى تقديم كم من المسوغات والأعذار بجملة أسباب لا تصمد أمام الحقائق.

ومن خلال مراجعة قراءة رسالته(ع): (أتنتي كتبكم وقدمت عليّ رُسلكم[...]) لقد فعلمتموها بأبي وأخي وابن عمي) نجد أن السياق التاريخي هو السياق المهيمن في النص، ومثل ذلك يجعله عنصراً مهماً في إنجاح الموقف الاتصالي⁽¹⁾، قصد منه الإمام(ع) تذكير أهل الكوفة بعهودهم معه وبمواقفهم السالفة مع أهل بيته(ع) وتداعيات تلك المواقف بحق دينهم ودينهم: (فحظّكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم). وسأقت الأقدار ركب الحسين حتى حظّ في كربلاء، فرأى من أهل الكوفة ما كان يحذر من خذلان ونكوص وعناد، تحذو بهم رموزهم- الذين راسلوه بالبيعة- تحت رايات السلطة الأموية التي قررت محق الحق بالقوة والغلبة وسحق المعنويات بالماديات⁽²⁾، لبدأ الصراع المرتقب، الصراع بين شرعية القوة وقوة الشرعية، بين منطق القوة وقوة المنطق.

مقدمة- الخطبة وواقعة الطف: بعد أحد أدعيته- وهو الذي سيأتي ذكره في بداية الفقرة الثانية- بدأت خطبه(ع)، إذ ركب أسلوب الوعظ والنصيحة في أول خطبه، قائلاً: "أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم عليّ"⁽³⁾، وجاء في خطبة أخرى: "لا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخب طمع مع طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر أسخطتم الله فيه عليكم، فأعرض بوجهه الكريم عنكم"⁽⁴⁾.

وقد خالط الاحتجاج تلك المواعظ حتى غدا الاحتجاج سمة بارزة لخطبه(ع) جميعها في كربلاء. قال: "إني لم آتكم حتى أتنتي كتبكم، وقدمت علي رُسلكم: أن أقدم علينا، فإنه ليس علينا إمام"⁽⁵⁾، وجاء في خطبة أخرى: "أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض"⁽⁶⁾.

يتجلى من تلك النصوص سمو المعاني وحجم الإنسانية التي كان يتحلى بها سيد الشهداء، فالحسين(ع) يخاطب أعداءه الباغين خطاب الهداة المصلحين، وما رُئي أحد

(1) ينظر: الشعر بين الإيصال والتلقي، إدريس الناقوري: 42.

(2) لمعرفة حال الإمام(ع) بين أعدائه قبيل الواقعة، ينظر: الاحتجاج: 192/2، ومطالب السؤل: 60، ونهضة الحسين: 23.

(3) الإرشاد: 339، وينظر: جمهرة خطب العرب: 52/2.

(4) مقتل الحسين، الخوارزمي: 357/1، وينظر: مثير الأحران: 90.

(5) تاريخ الطبري: 401/5، وينظر: المجالس السنية: 88/1.

(6) تاريخ الطبري: 425/5، وينظر: مقتل الحسين، المقدم: 238.

يتجه إلى البغاة عليه، الظالمين له ولقومه، المشمرين عن سواعد الفتك والقتل بالنصيحة والموعظة الحسنة⁽¹⁾.

وكل مرامه (ع) إتمام الحجة وقطع المعذرة، وسوق من سبقت له العناية إلى جانبه⁽²⁾، وعملا بقول الرسول (ص) إلى علي (ع): ((فاستظهر الحجة عليهم وادعهم ليهلك الناصبون لك والباغون عليك))⁽³⁾، وقد أكد تلك الدلالة حين قال: "إني أدعوكم إلى سبيل الرشاد، فمن أطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين"⁽⁴⁾.

واستمر الحسين (ع) في محاكمة القوم حتى "جعلوا لا يكلمونه"⁽⁵⁾، إذ استوعبت خطبه سبل الاحتجاج كافة، ولذا الأكثرون بالصمت القاتل⁽⁶⁾.

وهذا الصمت وعدم الكلام يدلان على أن الإمام (ع) تفنن في توصيل كلامه وما تضمنه من أدلة وبراهين حتى حاروا له جوابا، فضلا عما يضمرون له من سوء، فالفرد لا يتحمس للحديث إلى آخره ما دام اتجاهه نحوه سلبيا⁽⁷⁾.

وعندما تقدم أعداء الحسين وأحاطوا به، أيقن أن تلك المواعظ والاحتجاجات لم تجد في قلوب الأعم موضعا، ولم تترك في نفوسهم أثرا، عندها عزم على أن يخطب بهم خطبة اليأس من إصلاحهم، الناقم على أفعالهم، فركب فرسه واستنصتهم، ثم خطب فيهم، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: "تبا لكم أيتها الجماعة وترحنا حين استصرختمونا واليهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفا لنا في أيماكم، وحششتم علينا نارا اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألبا لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم"⁽⁸⁾.

ثم قال (ع): "فهلا لكم الويلات تركتمونا والسيف مشيم والجأش ضامر والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم إليها كطير الدبا، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش فسحقا لكم يا عبيد الأمة، وشذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرفي الكلم عصابة الآثام، ونفثة الشيطان، ومطفئي السنن"⁽⁹⁾.

وتابع (ع) مخاطبا الأعداء: "أهولاء تقصدون وعنا تتخاذلون؟ أجل والله غدر فيكم قديم وشجت عليه أصولكم، وتأزرت عليه فروعكم، فكنتم أخبث شجا للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلّة، والذلة،

(1) ينظر: الخطابة في صدر الإسلام: 360.

(2) ينظر: مقتل الحسين، محمد كاشف الغطاء: 20.

(3) كتاب سليم بن قيس الهلالي: 769/2 - 770.

(4) مقتل الحسين، الخوارزمي: 8/2 - 9.

(5) أنساب الأشراف: 188/3.

(6) ينظر: الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري: 391.

(7) ينظر: نظريات الإعلام واتجاهات التأثير: 67.

(1) الملهوف على قتلى الطفوف: 155 - 156، وينظر: مطالب السؤل: 60، ومثير الأحران: 96/1، والمجالس السنية: 110/1 - 111، ومقتل الحسين، المقمم: 243.

(9) الملهوف على قتلى الطفوف: 156، وينظر: مطالب السؤل: 60، ومثير الأحران: 96/1، والمجالس السنية: 111/1، ومقتل الحسين، المقمم: 243. و(مشيم): شام السيف شيما: سلّه وأغمده، وهو من الأضداد، ومن خلال السياق، يكون المراد مغمدا، و(يستحصف): يستحکم، لسان العرب: مادتا (ش ي م) (ح ص ف)، و(طير الدبّا): الطير معروف، و(الدبا) من دب النمل وغيره من حيوانات الأرض، ينظر: لسان العرب: مادة (د ب ب)، ولعل المقصود منه الجراد الذي لم يقدر على الطيران بعد، ينظر: إِبصار العين: 27 (في الهامش).

وهيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وحجور
طهرت وأنوف حمية ونفوس أبيّة: من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام. ألا
وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر"⁽¹⁾.

ثم أوصل كلامه (ع) بأبيات فروة بن مُسيك المرادي [من بحر الوافر]:

فإن نُهزم فهزامون قدما وإن نُغلب فغير مغلبينا
وما إن طَبْنَا جِبْنَ ولكن مَنايانا ودولة آخرينا
إذا ما الموت رَفَعَ عن أناس كلاكله أناخ بآخرينا
فأفنى ذلکم سرّوات قومي كما أفنى القرون الأولينا
فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا
فقل للشامتين بنا : أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا"⁽²⁾

ثم قال: "أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور
الرحى ويقلق بكم قلق المحور، عهدٌ عهده إليّ أبي عن جدي ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَّكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُون﴾" ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ
عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾"⁽³⁾.

ثم ختم (ع) خطبته بالدعاء على أعدائه: "اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث
عليهم سنين كسنين يوسف وسلّط عليهم غلام ثقيف يسومهم كأسا مصبرة، فإنهم
كذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير"⁽⁴⁾.

أسدلت هذه الخطبة الستار على فصول خطبه جميعها⁽⁵⁾؛ فقد باح من خلالها عمّا
جاش في صدره وما اضطرب في نفسه حيال القوم الناكثين، فاضحا ما ران على
صدورهم من شك وخذلان، كاشفا عن معادنها الصدئة؛ لتكون تلك الكلمات حمما
ملتهبة قذفها (ع) صوب الأعداء.

بدأت الخطبة بتوبيخ العدو وتعنيفه، مشتملة على أسلوب المحاكمة: (تبا لكم) [..]
حين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين [...] ولكن أسر عتم إليها كطير
الدبا). وفي هذا المقطع من الخطبة حدثهم الحسين (ع) عن أنفسهم وواقعهم، وعن
زيف وغيثهم وحياتهم، حدثهم كيف أنهم استصرخوه على جلاذيتهم ثم انكفأوا مع
هؤلاء الجلاذيين عليه؛ مع أن أولئك الجلاذيين لم يسيروا فيهم بالعدل، وكل ذلك مقابل
عيش خسيس، عيش مشروط بعمل وضيع⁽⁶⁾.

(1) الملهوف على قتلى الطفوف: 156. و(الدَّعْيُ): الْمُتَّهَمُ في نَسبه، والمراد: عبيد الله بن زياد كما يدل عليه
السياق التاريخي لواقعة الطف، و(السَّيْلَةُ): من استلال السيوف، ينظر: لسان العرب، مادتا (د ع ا) و(س ل ل).

(2) الملهوف على قتلى الطفوف: 157، وينظر عن فروة: الطبقات الكبرى: 63/1، والأعلام، خير الدين
الزركلي: 143/5.

(3) الملهوف على قتلى الطفوف: 157. والنصان القرآنيان في: يونس/ من 71، وهود/ 56 على التوالي.

(4) الملهوف على قتلى الطفوف: 157. وغلام ثقيف: إشارة إلى مجيء المختار الثقفي قاتل قتلة الحسين (ع)، ينظر
تفصيل الحدث في: تاريخ الطبري: 569/5، 570، 571 على سبيل المثال، ومقتل الحسين، الخوارزمي: 232/2.

(5) تكاد تتفق المصادر جميعها على أنها آخر خطبه (ع)، ينظر: تحف العقول: 171 على سبيل المثال، ومقتل
الحسين، الخوارزمي: 9/2.

(6) ينظر: ثورة الحسين وظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية: 178.

فأهل الكوفة كانوا "يحاربون رأيهم الذي يدينون به، ووليهم الذي يضمرون له الحرمة والكرامة"⁽¹⁾، وبذلك "فقدوا الدهشة والتورع أمام الشر والعار"⁽²⁾.

وبعدها تسارعت وتيرة التصعيد المثير في خطبته (ع) ليصب جام غضبه على الأعداء: (فسحقا لكم يا عبيد الأمة...) ومطفئي السنن).

وأحسب أن قول الدكتور حسين حسن: "في هذا الجزء من الخطبة اعتمد الإمام على الألفاظ المتكررة"⁽³⁾ قول فيه نظر، ولا سيما إذا عرفنا أن أهل الكوفة قوم هجين في أهوائهم وسلوكهم وكلياتهم؛ وهذا ما تدل عليه رسائلهم إلى الإمام (ع)، ثم ما ألوا إليه من مواقف. ولأجل ذلك اتكأ الإمام في وصفهم إلى ألفاظ متعددة المعاني، فـ"كل واحدة منها تحمل دلالة خاصة ترتبط بطبيعة التركيبة النفسية والاجتماعية للمخاطبين"⁽⁴⁾.

والخطبة مازجت بين المحاجة والعاطفة، إذ نلاحظ أن عاطفته تنساب بين أطياف خطبته (ع)، كما في قوله: (أهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون)؛ ولذلك فإن "عناية الإمام بالأداء الأدبي لم تصرفه عن العناية بالواقع النفسي، كما أن نغمته عليهم لم تنهه عن التوسل بما يثير عواطفهم، ويصور ضلالهم وعنادهم وجبنهم"⁽⁵⁾. ولعله ابتغى- من جملة ما ابتغاه- في تلوين كلامه بين المحاجة والتفريع والعاطفة، وخز ضمائر الأعداء علها تنتبه فتصيبها عناية الرحمن جلّ ثناؤه.

وبعدها انتقل إلى مقطع آخر في خطبته: (ألا وإن الدعي ابن الدعي قدر ركز بين اثنتين...) مع قلة العدد وخذلان الناصر). وهذا وصف لمحك عصيب وامتحان عسير ركب الإمام فيه الحل الأصعب، ليرسم من فيض نحره رمز النهضة وشعار الثورة: (هيهات منا الذلة). فتلك الكلمات المدوية كشفت عن الإباء المحمدي العلوي الذي انحنت عليه أضالعه، وعن الأنفة التي كان أهل البيت (ع)، يتدارسونها دوماً وتلهج بها أنديتهم أبداً⁽⁶⁾.

وربما استطاع هذا المقطع أن يختزل موضوع خطبته (ع) كله، مثلما استطاعت خطبته هذه نفسها أن تختزل أحداث واقعة الطف كلها.

ثم تمثل (ع) بأبيات شعرية حماسية، حرص من خلالها على إبراز معنى أن لا ضير في قتلهم، ما دام الجبن ليس سببا في ذلك، ولا سيما أن مثل هذا التفاوت العظيم في العدة والعدد كفيل بقتلهم، فالمجد لهم لا لأعدائهم، وكل هذا؛ لرفد قناة التوصيل بدلالة جديدة بغية تمتين التواصل.

وبعدها أثار (ع) أن يخبرهم بما أسرَّ إليه مما ينتظرهم من دوامة عذاب لا تفتر وعظيم بلاء لا يهدأ: (أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث ما يركب الفرس...) عهد عهده أبي عن جدي [...] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾).

(1) أبو الشهداء الحسين بن علي: 138.

(2) فن الخطابة وتطوره عند العرب: 223.

(3) الرسالة في الثورة الحسينية: 247.

(4) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 312.

(5) الرسالة في الثورة الحسينية: 246.

(6) ينظر: خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 207/2.

وينجلي هذا المقطع من كلامه عما تميز به (ع) من علوم غيبية استقاها من آبائه، وكيف أنه أحسن توظيفها في عملية توصيلها إلى أعدائه، من خلال جعلهم يعيشون مناخا نفسيا عصيبا.

ولمّا ردّ الأعداء دعوته (ع)، ولم يرشحوا هدفاً لإقنتله، توجه إلى ربه (سبحانه) يشكو إليه ظلمهم وعنادهم وجرأتهم، ويدعوه (جل ثناؤه) إلى إنزال العذاب الموعود، الذي تفيض فيه الدماء ويقتر فيه المطر: (اللهم احبس عنهم قطر السماء [...]) عليك توكلنا وإليك المصير).

وقد دقّ ناقوس الخطر بين صفوف الأعداء من جرّاء خطبه (ع). جاء في الأخبار، أنه استنصتهم فأبوا أن ينصتوا، فقال⁽¹⁾: "ويلكم ما عليكم أن تنصتوا إليّ فتسمعوا قولي"⁽²⁾، إذ يفهم من تلك الرواية أن محاولة تشويش مورست حيال خطبه (ع)، تهدف إلى تعويق عملية توصيل كلامه (ع) إلى معسكر الأعداء، ولعل ذلك بأمر من رؤساء العسكر⁽³⁾، ولاسيما بعد أن مال منهم إلى معسكر الحسين (ع) نحو ثلاثين فارساً⁽⁴⁾.

وقد يحار القارئ من موقف أهل الكوفة الذي اكتتفه الاضطراب والخذلان من نصرة الحسين (ع)، بعد أن ساس معاوية أهل العراق وبخاصة أهل الكوفة بسياسة البطش والقمع⁽⁵⁾، "حتى إذا مات معاوية كان كثير من الناس وعامة أهل العراق - بشكل خاص- يرون بغض بني أمية وحب أهل البيت لأنفسهم ديناً"⁽⁶⁾.

وبعد أن أعلن (ع) نهضته وما كان بينه وبين أهل الكوفة من عهود ومراسلات⁽⁷⁾، اهتبلت نفوسهم شوقاً إليه، حتى إنهم كانوا يكون عندما كانت تقرأ عليهم كتبه⁽⁸⁾، ولا عجب أنهم كانوا في يوم عاشوراء، ينظرون إلى الحسين وقد تناهبت السيوف والرماح جسمه الشريف وهم يكون، ويدعون الله قائلين: اللهم أنزل نصرك على ابن بنت نبيك⁽⁹⁾.

وقد أحسن الفرزدق وصف أهل الكوفة حين أخبر الحسين (ع) بحالهم، قائلاً: "خلفتهم وقلوبهم معك، وسيوفهم عليك"⁽¹⁰⁾، بمعنى أنهم كانوا يعيشون حالة ضياع "والنتيجة الحتمية للضياع هي تعدد القيم أو ازدواجها في الأقل"⁽¹¹⁾، ولذلك يقول أحد الباحثين: "الذي اعتقده أن هناك أسباباً عديدة لظهور ازدواج الشخصية في أهل

(1) ينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 8/2.

(2) م. ن: 8/2.

(3) ينظر: أدب الحسين وحماسه: 161.

(4) ينظر: ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 220، ومقتل أبي عبد الله الحسين: 474/1.

(5) كما هو واضح من نصوص الإمام (ع) السابقة، وينظر: تاريخ الطبري: 253/5 - 280.

(6) الفتنة الكبرى، طه حسين: 49.

(7) ينظر: تاريخ الأدب العربي - العصر الأموي: 459.

(8) ينظر: الإرشاد: 298، والملهوف على قتلى الطفوف: 108، والكمال في التاريخ: 476/3.

(9) ينظر: تاريخ الطبري: 392/5، وحياة الإمام الحسين (ع): 442/2.

(10) الأخبار الطوال: 363، وينظر: الكمال في التاريخ: 493/3.

(11) البحث عن معنى، د. عبد الواحد لؤلؤة: 22.

العراق، ولكني لا أستبعد مع ذلك أن يكون للنزاع الطائفي الذي استفحل أمره في العراق منذ قديم الزمان أثر لا يستهان به في هذا الشأن⁽¹⁾. وأهم بقية تلك الأسباب التي وقفت خلف هذه الإرهاصات القزحية، هو الرعب والقمع، الذي هيمن على أهل الكوفة عموماً⁽²⁾، فإن الحكم الأموي تعاطى معهم بمنتهى القسوة والشدة فرماهم بأقصى الولاة وأشدّهم عنفاً، أمثال المغيرة بن شعبة وزيايد بن أبيه⁽³⁾، فما إن علموا بدخول عبيد الله بن زياد بن أبيه إلى مدينتهم حتى انقلب ميزان الولاء خوفاً من مرارة التقتيل والتعذيب الذي اعتمدته السلطة الأموية، وهكذا رجعت بهم الذكريات إلى ماضي العهد اللئيم، فانقلب جيش الكوفة من مناصر يستغيث بالحسين إلى معاد يحاول أن يثبت حسن ولائه للأمويين عبر الفطائع التي ارتكبها يوم الطف⁽⁴⁾، زيادة على أن الكوفة أممية امتزجت فيها عناصر مختلفة في لغاتها، ومتباينة في طباعها وعاداتها وتقاليدها، فكان فيها العربي والفارسي والنبطي إلى جانب العبيد وغيرهم، فضلاً عن التفاوت الطبقي بين أفرادها⁽⁵⁾، ولا نستثنى من تلك الحقائق سبباً خطيراً، ألا وهو نكسة الشر في النفس البشرية، حين تلج بها مغالطة الشعور وحين تغالب عنانها حين تعييبها المغالبة فينطلق بها العنان⁽⁶⁾. إنهم كانوا يعانون من استلاب الشخصية.

ويقف أصحاب الحسين (ع) على الجانب الآخر من أعدائه، ليس بين هاتين الفئتين من سمات مشتركة سوى أن أغلب أعدائه في أيام عاشوراء كانوا من أتباعه فيما سبق تلك الأيام.

ومعلوم أن الثورة برجالها، فهم شعارها ووقودها؛ ولذلك لا بد من أن يمتلك أفرادها محمولاً عقائدياً وروحاً ثورية، تمكن الثورة من الصمود وبلوغ الهدف المنشود؛ ولأجل ذلك حرص الإمام **خطأ! ارتباط غير صحيح**. الحرص كله على انتقاء أصحابه، معتمداً التقوى والثبات معياراً في آلية الاختيار، وطبقاً لذلك المعيار، كان معظم أصحاب الإمام ينتمون إلى قبائل عربية عريقة⁽⁷⁾، زيادة على أن "جلّهم علماء أتقياء"⁽⁸⁾، بينما شكل الموالون الأتقياء- الذين انحدرت أنسابهم من أقوام أعجمية- جزءاً من جيش الإمام⁽⁹⁾، فالحركة الحسينية صهرت الأعراق والأصول في بوتقة واحدة⁽¹⁰⁾.

وتتجلى دقة اختياره **خطأ! ارتباط غير صحيح**. لخصائمه أيضاً من خلال خطبه المتكررة في هذا الصدد، التي تفصح عن اختبارات متكررة، كان أولها لما أرف الرحيل من مكة إلى العراق، إذ قال: "من كان باذلاً فينا مهجته، وموطناً على لقاء

(1) أسطورة الأدب الرفيع، د. علي الوردي: 228.

(2) ينظر: الملحمة الحسينية: 47/3.

(3) ينظر: أدب الشيعة: 345.

(4) ينظر: الإمام الحسين بن علي (ع) سيد الشهداء: 335.

(5) ينظر: حياة الإمام الحسين (ع): 432/2.

(6) أبو الشهداء الحسين بن علي: 139.

(7) ينظر: أعيان الشيعة، العامل: 298/4.

(8) الرسالية في الثورة الحسينية: 188.

(9) الدوافع الذاتية لأنصار الحسين، محمد علي عابدين: 235.

(10) ينظر: حلقة نقاشية حول أدب الطف والنزعة القبلية (في شبكة المعلومات)، ملتقى البحرين.

الله نفسه، فليرحل معنا"⁽¹⁾، لقد حاول(ع) بخطبته هذه أن يعرّف المتلقي بهوية الأصحاب المطلوبين.

وما إن تقادمت الأيام وقرب الإمام من تخوم العراق حتى تدافعت أخبار مقتل مسلم بن عقيل وأصحابه وانقلاب الأمر بالكوفة، عندها قرر الإمام مواجهة أتباعه بتلك الأنباء، فخطب فيهم: "أما بعد، فقد أتانا خبر فظيع قتل مسلم بن عقيل وهاني بن عروة وعبد الله بن يقطر، وقد خذلتنا شيعتنا فمن أحب منكم الانصراف فلينصرف غير حرج ليس عليه ذمام"⁽²⁾.

ويبدو أن الإمام قد عمد إلى أن تكون خطبته هذه بلغة تقريرية؛ حرصاً منه على توصيل الحقيقة بشكل جلي وصارم؛ كي يضع الجميع في صورة الواقع، فالحسين(ع) لا يغرر بأتباعه أو يغويهم من أجل تحقيق النصر، ثم إنه جعل من تلك الخطبة اختباراً عسيراً يتهاوى فيه طلاب الدنيا؛ "لأنه علم أن الأعراب ظنوا أنه يأتي بلداً قد استقامت له طاعة أهله، فأراد أن يعلموا علام يقدمون عليه"⁽³⁾، ولم يلبثوا هنيئاً حتى "تفرق الناس عنه وأخذوا يمينا وشمالاً حتى بقي في أصحابه الذين جاؤوا معه من المدينة ونفر يسير ممن انضوا إليه"⁽⁴⁾.

وهكذا جاءت نتائج عملية الغربة لأصحابه كما كان يعتقد فقد "علم أنه إذا بين لهم الأمر لم يصحبه إلا من يريد مواساته في الموت معه"⁽⁵⁾.

وترشحت لدى الإمام تلك الصفوة المختارة من الأهل والأصحاب، فأثر أن يخطب فيهم، فقال: "أما بعد، فإني لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإني قد رأيت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا ليل قد غشاكم، فاتخذوه جملاً"⁽⁶⁾.

وجاءت تنمة هذه الخطبة في رواية ابن الأثير: "ولياخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً خيراً، فإن القوم يطلبوني، ولو أصابوني لهوا عن غيري"⁽⁷⁾.

فأجابه عن أهل بيته أخوه العباس بن علي بن أبي طالب: "معاذ الله، بل نحيا بحياتك ونموت معك"⁽⁸⁾، ولم يكن جواب أصحابه بأقل من ذلك، إذ قالوا: "لا والله يا ابن رسول الله! لا نخليك حتى يعلم الله تبارك وتعالى أننا حفظنا فيك غيبة رسوله"⁽⁹⁾، وقال آخر: "ما أمسى على ظهر الأرض قريب ولا بعيد أعز علي ولا

(1) الملهوف على قتلى الطفوف: 126.

(2) الإرشاد: 324.

(3) الكامل في التاريخ: 496/3.

(4) الإرشاد: 324.

(5) البداية والنهاية: 541/8.

(6) تاريخ الطبري: 418/5، وينظر: مقاتل الطالبين: 112، وأعلام الوري: 238، ومثير الأحزان: 79. و(اتخذوه جملاً): مثل يضرب للرجل يجد في طلب الحاجة، ينظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني(ت 518 هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام: 170/1.

(7) الكامل في التاريخ: 511/3، وينظر: جمهرة أمثال العرب: 49/2.

(8) مقاتل الطالبين: 112.

(9) مقتل الحسين، الخوارزمي: 350/1، وينظر: مقتل أبي عبد الله الحسين: 405/1.

أحب إليّ منك ولو قدرت على أن أدفع عنك الضيم والقتل بشيء أعزّ عليّ من نفسي ودمي لفعلت⁽¹⁾، وهكذا تنامت صحبة الحسين في نفوس الأصحاب حتى غدت عشقا ملكت منهم الأرواح.

وقد صرح الإمام(ع) في خطبته لأصحابه عن يقينه بحقيقة تاريخية إسلامية مثيرة؛ وهي أن ليس هناك أصحاب أفضل ولا أولى من أصحابه(ع): (لا أعلم أصحابا أولى ولا خيرا من أصحابي)، من حيث إن غيرهم "يقدمون على الحرب مع احتمال النجاة، وأما أصحاب الحسين فقد قدموا على الحرب مع اليقين بالممات"⁽²⁾.

ولست أتفق مع ما ذهب إليه الدكتور إيليا حاوي بصدد غاية هذه الخطبة، حين رأى أن الحسين "يشفق على مصير جماعته وأهله ويتأف بهم ويكاد أن يسفح عليهم دموع البؤس والندم"⁽³⁾. والذي أميل إليه أن هذه الخطبة جاءت لتبرز دور أصحابه تاريخيا ومواقفهم في واقعة الطف، ولتميط الحجب عن أصالتهم العقيدية وعمق إيمانهم ومدى تصرّمهم في ذات الله ولبيان عظمة المrapطة الذاتية⁽⁴⁾، وليعلم أجيال الإنسانية المتعاقبة ويعلمها كيف يكون الثبات والتفاني والفداء من أجل تحقيق الأهداف الرسالية الثورية العظيمة.

فالحسين(ع) وأصحابه الذين لم يبتغوا عنه بدلا، لا يجدون للقلق والحزن موضعا في قلوبهم، ولا سيما أنه قد صرّح مرارا بما يؤول إليه أمره وأمرهم، وشكل تسليمهم بذلك حافزا لديهم لو أد كل شعور بالندم والبؤس؛ فقد كانوا فرحين مطمئنين، يتهازلون فيما بينهم ويتمنون أن يعاجلهم العدو بالحرب⁽⁵⁾، قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾⁽⁶⁾.

وأما دلالة الاختبار في هذه الخطبة فإنها تقع في آخر الدلالات، بل إنها تقع في الشكل فحسب؛ لأن "نزول كربلاء كان إيذانا بالتخلص من جميع عشاق الدنيا"⁽⁷⁾. وصفوة القول: إنّ الإمام أراد أن يقول: إنّ أصحابي ليس لهم نظير من الأصحاب، ودليلي على ما أقول أنني سوف أدعوهم إلى النجاة بأنفسهم من غير تذميم ولا لوم، فاسمعوا جوابهم ثم اقضوا بما تسمعون.

وقد جعل(ع) أهل بيته وأصحابه أسرة واحدة تجمعهم طاعة الله ورسوله وحب الحسين. جاء عنه في هذا الصدد: "ألا وأني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلان الناصر"⁽⁸⁾.

ص- الدعاء وواقعة الطف: لما صبحت الخيل الحسين يوم عاشوراء، رفع يديه مصليا كالمسيح في جبل الزيتون قبل أن يسلم نفسه إلى اليهود⁽⁹⁾، فقال: "اللهم أنت

(1) مقتل الحسين، الخوارزمي: 26/2- 27، وينظر: البداية والنهاية: 556/8.

(2) منبر الصدر: 48.

(3) فن الخطابة وتطوره عند العرب: 224.

(4) الدوافع الذاتية لأنصار الحسين: 226.

(5) ينظر: تاريخ الطبري: 423/5، والبداية والنهاية: 550/8.

(6) آل عمران/ 170، وهو التوفيق في الشهادة وما ساق الله إليهم من الكرامة والتفضيل على غيرهم، ينظر: تفسير الكشاف: 25/4.

(7) الدوافع الذاتية لأنصار الحسين: 204.

(1) الملهوف على قتلى الطفوف: 156.

(9) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي: 225.

ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة"⁽¹⁾.

إنه وصف دقيق للبلاء الذي تسمى بأسماء عدة في هذا النص: (كرب، شدة، أمر نازل)، فالبلاء هو اختبار للمجاهدين وتمحيص من الله جل ثناؤه، وشرط لنيل المنزلة العظمى التي بها يوعدون، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾⁽²⁾. وهكذا كان يقين الإمام (ع) في بلائه، مفصحا عن أهم مكنوناته، وما أراه أنه كان يعني بدعائه: أن قوة الفؤاد في الشدائد واطمئنانه لأمر الله أصل في كل تدبير وحيلة، ويعظم الابتلاء في خذلان الصديق وشماتة الأعداء. ولا يخفى أن هذا الوصف يجيء متسقا وحال الإمام الحسين (ع) التي كان عليها وهو في ذلك كله لا يرجو غير الظفر بالصبر نحواً لذات الله وقصدا لمرضاته، فقد "تضاءلت في نفسه الحياة والناس فأسلم لخالقه واستلقى على أحضانه إلى الأبد"⁽³⁾.

وكانت أدعيته (ع) آخر رفيق له قبل استشهاده، فمنها- وقد سال الدم على وجهه ولحيته- "اللهم! قد ترى ما أنا فيه من عبادك العصاة العتاة، اللهم! فاحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على وجه الأرض منهم أحدا، ولا تغفر لهم أبدا"⁽⁴⁾.

خاتمة: وهكذا صارت واقعة الطف طب الشعوب المستضعفة وأملها وعلة حكام الجور وداءها، فقد صار الحسين طاقة ترفد المجتمع الإنساني لتغيير الواقع المتردي، بمبادئ سامية ومواقف تحررية صلبة الإرادة.

وتأسيسا على ما تقدم بات واضحا أن الموضوع السياسي في أدب الإمام الحسين (ع) صور الجانب الأشمل في حياته؛ إذ تميز بتنوع معانيه وثراء مكنوناته، وطول نصوصه غالبا، وكثرة عديدها، وغناه الفكري والديني، وعكس بجلاء أحوال الدولة الأموية وموقفها من الإمام، وأحوال الإمام وموقفه منها؛ وكل ذلك استدعى طول المقام في هذا المبحث.

(1) تاريخ الطبري: 423/5، وينظر: ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 213- 214، ومقتل الحسين، محمد كاشف الغطاء: 3، وجمهرة خطب العرب: 51/2.

(2) محمد/من: 31، أي نعاملكم معاملة المخبر بما نخلفكم به من الأمور الشاقة، حتى يتميز المجاهدون في سبيل الله من جملتكم والصابرون على الجهاد، بنظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: 161/6.

(3) فن الخطابة وتطوره عند العرب: 225.

(2) مقتل الحسين، الخوارزمي: 38/2، وينظر: مقتل أبي عبد الله الحسين: 573/1.

المبحث الثاني الموضوع الديني

تفرّد الموضوع الديني من بين موضوعات أدب الإمام الحسين (ع) بوصفه شريكا فاعلا في مساحات متباينة من مجموع مساحات تلك الموضوعات. فالنص الديني هو القاعدة التي انطلق منها الإمام (ع) لفحص جوانب الدين والدنيا المتعددة ومعالجتها، وهو بعد يمثل المبدأ الجوهرى المؤسس لإمامته (ع)، والمرجع الرئيس لتدعيم قضية أو دحض أخرى، فالإمامة "لا يتم أمرها إلا بالعلم بالدين والمعرفة بأحكام رب العالمين وبتأويل كتابه"⁽¹⁾.

وقد لاحظنا في ما تقدم أن الموضوع السياسي للإمام (ع) انماز بعمقه الديني، إذ كان النص الديني يمثل القطب الواحد الذي تمحورت حوله المفاهيم السياسية واستحقاقاتها، وهذه السمة التي طبعت خطابه السياسي كانت تتسق وسمات الخطاب السياسي الإسلامي عموما ولاسيما أن السلطة الدينية والديوية قد اندمجتا في الإسلام⁽²⁾.

لذلك فإن "ظاهرة طغيان الآية القرآنية أو الحديث النبوي في الخطاب السياسي، باعتبارهما الإطار المرجعي الأساسي، بل ويكاد يكون الأوحد في ظاهره- لم تكن مجرد إحالة من الخطاب السياسي إلى النص الديني، بل كان الخطاب السياسي يبدو دينيا في عمقه، وإن خرج عن الأصل الديني، كان عليه أن يؤول ويحور ويغير لتبرير غائية الخطاب السياسي"⁽³⁾.

وامتدت أيضا فاعلية الموضوع الديني لبقية الموضوعات الأخر- كما سنقف عندها لاحقا- ليشكل بذلك فضاء خصبا لتمفصل تلك الموضوعات. وأيا كان، فقد انبثقت عن الموضوع الديني معانٍ عدّة، أبرزها:

أولاً). توحيد الله (تعالى) وصفاته: إن من أولى المسلمات العقائدية والثوابت العبادية للدين الإسلامي والأديان السابقة عليه، التوحيد الذي كان وكد الرسل والأنبياء (ع) ما عاشوا، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾⁽⁴⁾.

ويكفي دلالة على منزلة التوحيد أن رسول الله (ص) حين سمع رجلا يقرأ الآية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾⁽⁵⁾. قال: ((والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن))⁽⁶⁾؛ لأن "التوحيد عمدة العقائد ورأس سنام الإيمان"⁽⁷⁾، وهو أصل من أصول الدين

(1) إكمال الدين، الشيخ الصدوق، قدّم له: محمد مهدي الخراسان: 97.

(2) ينظر: صحيح البخاري: 648-650، ومقدمة ابن خلدون: 250، والحسين سمو المعنى في سمو الذات، 346.

(3) سلطة النص، عبد الهادي عبد الرحمن: 86.

(4) الأنبياء/25. وهذه الآية من أي التوحيد، ينظر: تفسير الكشاف: 676/17.

(5) الإخلاص/1.

(6) صحيح البخاري: 1301.

(7) معالم أصول الدين، فخر الدين الرازي، تح: طه عبد الرؤوف: 75.

الخمس⁽¹⁾، ويمثل الجانب النظري للدعوة الإسلامية القائمة أساساً على فكرة التوحيد بدلاً من تعدد الآلهة⁽²⁾.

وقد تناول الإمام الحسين (ع) قضية التوحيد باهتمام بالغ، إذ استغرقت حيزاً واضحاً في أدبه؛ فأسهمت نصوصه على اختلاف أنواعها الأدبية في إرساء معالم التوحيد، وفتح كثير من مغاليقه ودفع الشبهات والالتباس عنه. تقدمت الخطب في هذا المضمار بقية الأنواع الأدبية تلك، تردفها الرسائل، ثم الأدعية، فيما جاءت الأحاديث الفنية بأقل المساحات.

ومما ينبغي الإشارة إليه، أن من مظاهر الاضطراب التي تفشت في العصر الأموي ظهور فرق دينية متعددة، كالخوارج والقدرية والجبرية وغيرها، إذ نشأت تلك الفرق بفعل معتقدات دينية وسياسية مختلفة، وعوامل أممية متشابكة، حتى أصبحت السمة الطاغية لتلك التيارات المتناحرة انحسارها في خندق خطاب مغلق لا يعترف كل منها بالآخر ولا تعتمد لغة الحوار⁽³⁾.

وقد كانت قضية التوحيد من أبرز القضايا التي خاضت فيها تلك التيارات، الأمر الذي أوجب عليه (ع) ممارسة تكليفه الشرعي في التصدي لتلك التيارات ومحاولة تقويمها على وفق محمول الإسلام العقائدي، وتوعية المسلمين وتحذيرهم من الانزلاق في غياهب أهوائها، فقد كان الإمام (ع) وأئمة أهل البيت (ع) جميعهم "يحافظون على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي ويحافظون على أن لا يهبط إلى درجة تشكل خطراً ماحقاً، وهذا بقدر ممارستهم جميعاً دوراً إيجابياً فعالاً في حماية العقيدة وتبني مصالح الرسالة والأمة"⁽⁴⁾.

مقدمة/الخطبة وتوحيد الله (تعالى) وصفاته: من بصماته (ع) في الدفاع عن هذا المفهوم، ما روي عن ابن عباس أنه بينما كان يحدث الناس، إذ قام إليه نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس تفتي في النملة والقملة؟ صف لي إلهك الذي تعبد، فأطرق ابن عباس إعظاما لقوله، وكان الحسين (ع) جالسا ناحية فقال: إليّ يا ابن الأزرق، فأجابه ابن الأزرق، قائلاً: لست إياك أسأل!!! قال ابن عباس: يا ابن الأزرق إنه من أهل بيت النبوة وهم ورثة العلم⁽⁵⁾! فأقبل نافع نحو الحسين، فقال له (ع): "يا

(1) ينظر: مئة المنان في الدفاع عن القرآن، السيد محمد صادق الصدر: 84.

(2) ينظر: سلطة النص: 78.

(3) للاطلاع على تفاصيل أحوال تلك الفرق، ينظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، تح: لجنة إحياء التراث العربي، إجمالاً، والملل والنحل، إجمالاً، وفجر الإسلام: 241، 277، 285، على سبيل المثال، والفن ومذاهبه في النثر العربي: 78-79، وفي تاريخ الأدب، طه حسين: 450/2.

(4) أهل البيت تنوع أدوار ووحدة الهدف: 144.

(5) ينظر: ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 157، وبحار الأنوار: 297/4، ومستدرک الوسائل، حسين النوري الطبرسي: 261/17. (ونافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد) إليه تنسب الأزارقة أكبر فرق الخوارج، إذ كان رأسها وخطيبها وفقهها، وكانت هذه الفرقة تكفر ما عداها من الفرق، وقتل نافع سنة 65 هـ في الأهواز. ينظر: الفرق بين الفرق: 62-65، والملل والنحل: 111/1، والكامل في التاريخ: 623/3.

نافع إن من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس سائلا ناكبا عن المنهاج، ظاعنا بالاعوجاج، ضالا عن السبيل، قائلا غير الجميل"⁽¹⁾.
ثم قال (ع) "يا ابن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه وأعرفه بما عرف به نفسه: لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منتقص يُؤخَد ولا يبعَض، معروف بالآيات، موصوف بالعلامات، لا إله إلا هو الكبير المتعال"⁽²⁾. ولما فرغ (ع) من كلامه، بكى ابن الأزرق وقال: يا حسين ما أحسن كلامك؟⁽³⁾.

ولا ريب في أن السياق الديني الثقافي الذي نشأ فيه نص الإمام (ع) أمدَّ النص بقيم معرفية وتربوية مضاعفة، فضلا عن أثر السياق في إضاءة النص والكشف عن معناه، فنافع بن الأزرق هو أحد خصوم الإمام (ع)، إذ كان يكفر مذهب أهل البيت (ع) والمذاهب الأخر جميعها، ثم إن الإمام (ع) لم يكن مقصودا بالسؤال الذي طرحه نافع، ولكن تلك المسوغات كلها لم تحل دون تصديده لمسؤوليته الدينية في الدفاع عن الدين؛ لأن واجب الإمامة الشرعي عنده (ع) في الحفاظ على سلامة العقيدة، ولاسيما التوحيد، يسمو على الخلافات الاجتماعية ومعاييرها جميعها.
والحق أن إشارة عبد الله بن عباس إلى الإمام (ع) بقوله: (إنه من أهل بيت النبوة وهم ورثة العلم) إنما هي إشارة صريحة إلى الإطار المرجعي الديني لأهل البيت (ع)، وإشادة تاريخية بمنزلة الإمام الحسين (ع)؛ وهذا كله أخرج نافعا ودفعه نحو الإمام.

وعمد (ع) في الشطر الأول من خطابه إلى تنفيذ ما كان يظنه نافع صوابا، فالسائل - فيما يبدو - كان يستعمل القياس في دينه، إذ كان يصف الله (جلّ ثناؤه) ويقارنه بأشكال حسية، لذلك قال (ع): (يا نافع إن من وضع دينه على القياس...) [قائلا غير الجميل]. ومن خلال صيغة الخطاب، نلاحظ أن الإمام (ع) أراد أن يعمم خطابه على الجميع، لأجل تحذيرهم من الانجرار خلف الضلالة.
وبعدها انتقل إلى الشطر الآخر ليجعل منه جوابا للسائل وبرهانا على الحكم السابق أيضا، ف"لكل كلام جزءان جوهریان، هما عرض الحالة ثم البرهنة

(3) ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 157، وينظر: المجالس السنية: 40/1، وبحار الأنوار: 297/4، ومستدرك الوسائل: 261/17. و(القياس) من قايست بين شيئين إذا قدرت بينهما، أي قدره على مثاله. ينظر: لسان العرب: مادة (ق ي س). و(القياس): هو الحكم على معلوم بمثل الحكم الثابت لمعلوم آخر لاشتراكهما في علة الحكم. ينظر: معالم الدين، العاملي: 447، و(ناكبا): مائلا. ينظر: كتاب العين، مادة: (ن ك ب). و(ظاعنا): السائر أو الماشي. ينظر: لسان العرب: مادة (ظ ع ن). وقد تواترت الأخبار عن إنكار أهل البيت (ع) للقياس في الدين، فعن الإمام جعفر الصادق (ع) قال: "إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدتهم المقاييس من الحق إلا بعدا وإن دين الله لا يصاب بالمقاييس". أصول الكافي: 76/1.

(2) ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 158، وينظر: المجالس السنية: 40/1، وبحار الأنوار: 297/4، ومستدرك الوسائل: 261/17.

(3) ينظر: ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 157-158.

عليها⁽¹⁾، وقد اختار أن تكون مادة جوابه في وصف الله تعالى من كتابه العزيز، إذ قال: (يا بن الأزرق أصف إلهي بما وصف به نفسه [...] هو الكبير المتعال).

في هذا النص يبدو واضحاً أن الإمام ضمن كلامه آيات قرآنية عديدة منها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾⁽⁴⁾.

وأحسب أن اقتصار جواب الإمام على معاني الآيات القرآنية التوحيدية، إنما يحمل في طياته مقاصد تربوية إسلامية تجنب المسلمين الخوض في أوصاف الله تعالى خارج مفهوم القرآن الكريم، ف﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾⁽⁵⁾، زيادة على أن كتاب الله يمثل النص المقدس عند الفرق الإسلامية جميعها، وبالمحصلة سيجعل للجواب موضوعية تتحقق من خلال عمق الدلالة وجلالة الوصف وتعظيم الحال، فيكون لذلك بالغ الأثر في نفس المتلقي.

ومن سمات نص الإمام (ع) أن كانت الألفاظ فيه راقية، والجمل فيه قصيرة تنساب بهدوء مشعة بدلالات الرفق بالمخاطب على الرغم من جفافه، وكل ذلك مما تقتضيه الأنواع الأدبية ذات الطابع الديني الوعظي⁽⁶⁾.

كما نلاحظ أن الإمام (ع) قد صاغ النص على وفق لغة أدبية ترشحت بقيم صوتية خاطفة، خالية من القيم الصورية؛ لكونها لا تنسجم وحقيقة موضوع التوحيد، الذي يعتمد لغة واضحة تعتمد الدقة والمنطق والاستدلال.

وقد طبع النص بسمة الاقتصاد اللغوي، ولا سيما إذا ما قيس بحجم المهمة التي نهض بها، وكل ذلك قد حددته طبيعة السياق الذي ورد فيه النص، فالإمام (ع) قد خبر نفس المتلقي ومستوى إدراكه، وكان ملماً بطريقة استمالاته، مقدراً سعة أفق توقعاته، التي لها الأثر الأساس في التلقي⁽⁷⁾، وهكذا كيف (ع) خطابه بما يوائم استعداد المتلقي وتوقعاته الأنفة مشفوعاً باقتدار لغوي وفكري.

ولنا أن نعجب من حال المتلقي، فقد كان زاهداً في خطاب الإمام (ع) قبل سماعه وما إن انتهى الخطاب حتى انقلب باكياً مستحسناً قوله (ع) مستصوباً رأيه، وهذا يُعد أبرز علامات النجاح للمتحدث.

ولم يكن أصحاب المقاييس فقط هم من تصدى الإمام (ع) للرد على مذهبهم، إذ تصدى أيضاً للرد على مذهب المشبهة، فالمشبهون لا يقلون خطراً على عقيدة

(1) النقد الأدبي الحديث: 136.

(2) الأنعام/103.

(3) البقرة/186.

(4) الرعد/9.

(5) الصافات/159-160.

(6) ينظر: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 127.

(7) ينظر عن سمة أفق التوقعات: مناهج النقد المعاصر: 149.

التوحيد من سابقهم "ذلك أن إثبات الله مرئياً يقتضي كونه في جهة ومتحيزاً في المكان" (1) وهذا بلا شك من معاني الكفر بمكان.

لذلك انبرى (ع) يحذر الناس من أصحاب هذا المذهب وأفكاره التي تسعى إلى هدم العقيدة ونخر صلب الإسلام، فالمشبهون خارجون عن الدين؛ لأنهم سلكوا سبيل الذين كفروا من أصحاب التوراة والإنجيل...، وبهذه الأحكام بدأ (ع) خطبته محذراً الجميع على اختلاف اتجاهاتهم الولائية، إذ قال (ع): "أيها الناس! اتقوا هؤلاء المارقة الذين يشبهون الله بأنفسهم، يضاھون قول الذين كفروا من أهل الكتاب، بل هو الله ليس كمثله شيء" (2).

ومهما تدرج الإنسان في مراتب العلم والفكر، فإن الوهم مصيره إذا ساقته نزعة الفردية في تصوير الله تعالى ورسم صفاته؛ "لأنه لا يوصف بشيء من صفات المخلوقين، وهو الواحد الصمد، ما تصور في الأوهام فهو خلافه" (3). فالله سبحانه "به توصف الصفات لا بها يوصف، وبه تعرف المعارف لا بها يعرف، فذلك الله لا سمي له سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" (4).

الرسالة وتوحيد الله (تعالى) وصفاته: لعل من أخطر المسائل الكلامية الشائكة التي هددت عقيدة التوحيد، مسألة القدر، إذ اشتجر الخلاف بين المسلمين حول القدر منذ فجر التاريخ الإسلامي، وسموا أصحاب هذا المذهب بالقدرية (5).

ويبدو أن الحيرة والالتباس في مسألة القدر قد تعمقت واستفحلت حتى تمكنت من شخصيات إسلامية يعدّها المجتمع الإسلامي عيون المعرفة، فهذا حسن البصري- الذي طبقت شهرته الآفاق وشغل بعلمه ومنزلته مساحات عريضة من المؤلفات الدينية فضلاً عن المؤلفات التاريخية والأدبية- يبعث برسالة إلى الإمام (ع) يستفهمه عن مسألة القدر، فيجيبه (ع) بقوله: "اتبع ما شرحت لك في القدر مما أفضي إلينا أهل البيت، فإنه من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد كفر، ومن حمل المعاصي على الله عز وجل فقد افترى على الله افتراء عظيماً" (6).

(1) الاتجاه العقلي في التفسير، نصر حامد أبو زيد: 190. و(المشبهة) صنفان، صنف شبه ذات الباري بذات غيره، وآخر شبه صفاته (عز وجل) بصفات غيره. وكل صنف منهما قد افترق إلى أصناف شتى، ينظر: الفرق بين الفرق: 214.

(2) تحف العقول: 173، وينظر: بحار الأنوار: 301/4. و(المارقة): هم الخارجون عن الدين، ينظر: كتاب العين: مادة (م ر ق). وفي الصدد نفسه سئل الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) عن المشبهة فأجاب: "فاعلم رحمك الله أن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله جل وعز، فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه". أصول الكافي: 122/1.

(3) تحف العقول: 174.

(4) م.ن: 174.

(5) ينظر: فجر الإسلام: 269. و(القدرية): فرقة من فرق المسلمين ترى أن الإنسان له القدرة على كسبه وعلى أفعاله جميعها. فسلطة العقل هي التي تُسيّر أمور البشر وتمكنه من معرفة الحسن والقيح، وليس لله في ذلك صنع ولا تقدير. أشهر رؤوس هذه الفرقة معبد الجهمي وغيلان الدمشقي. ينظر: الفرق بين الفرق: 94، 96، على سبيل المثال، وفجر الإسلام: 27، 282، وتاريخ الأدب العربي- العصر الأموي: 446. وكان حسن البصري يذهب إلى أن الإنسان حر الإرادة. ينظر: الطبقات الكبرى: 123/7. وعن مصير القدرية، يقول الإمام علي (ع): "ما خلا أحد من القدرية إلا خرج من الإيمان". ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الصدوق: 213.

(6) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا (ع): 408، وينظر: معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (عليهم السلام): 46/2، وبحار الأنوار: 123/5.

يبدو أن صيغة الفقرة الأولى في مقطع النص المتقدم (اتبع...) [أهل البيت] تنبئ عن دلالات متعددة؛ أهمها أن صيغة الفعل (اتبع) توحى بوثوق الإمام (ع) من مصادر إمامته التي اعتمدت بها نفسه، ومن وثوق الآخر به أيضاً، كما أنها تعكس حرصه (ع) على إنقاذ المتلقي، ومن خلاله إنقاذ الذين يرون في القدر، ولا سيما أن قوله (ع) جاء مشفوعاً بمائزة تفرّد بها أهل البيت (ع)، بوصفهم ورثة العلم عن جدهم المصطفى (ص) إذ قال: (مما أفضي إلينا أهل البيت). والفقرة الأولى من النص، تشير إلى علم الإمام (ع) بمذهب حسن البصري ورأيه في القدر، فكأنما أراد أن يقول للبصري: اترك ما أنت عليه واتبع ما شرحت.

ويمكن أن يكون موقع الفقرة ذاتها في الأصل في نهاية الجواب، يؤيد ذلك الدلالة الزمنية للجملة (شرحت...)، فضلاً عن أن فك هذا الجزء من بنية النص لا يخل بالمعنى لبقية الأجزاء، ويمكن أن يكون الإمام الحسين (ع) قد شرح لحسن البصري هذه القضية في وقت سابق أيضاً.

ومهما يكن، فقد قرر (ع) في أول جوابه مصير من لا يعتقد بمسألة القدر؛ وهو الكفر، ثم التفت إلى مفهوم آخر يقع مقابل مفهوم القدرية من حيث الاعتقاد والمذهب، إذ قال: (ومن حمل المعاصي على الله عزّ وجل...)، وقد تبنت فرقة الجبرية (1) هذا المفهوم. ولعل الكلام على رأي هاتين الفرقتين في أن واحد أجدى نفعا للمتتبع وأدعى لاستحضار أسباب تتبّعه لحيثياتهما، فضلاً عن أن طبيعة الموضوع تتطلب إبراز التقاطع بين مفهوم هاتين الفرقتين بغية الخروج بصورة تنسم بالوضوح والشمولية. ولم يختلف حكمه (ع) على الجبرية عن سابقتها القدرية؛ لأنها: (افترت على الله افتراء عظيم). قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (2).

وبعد ذلك يقيم (ع) الأدلة على أحكامه، ويفتح ما استغلق حول هاتين المسألتين (الاختيار والجبر) من خلال فك الخيوط المتشابكة وكشف الضبابية عنهما، إذ تابع قائلاً: "إن الله تبارك وتعالى لا يطاع بإكراه، ولا يعصى بغلبة، ولا يهمل العباد في الهلكة، ولكنه المالك لما ملكهم، والقادر لما عليه أقدرهم، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم صادا عنها مبطناً، وإن ائتمروا بالمعصية فشاء الله أن يمتنّ عليهم فيحول بينهم وبين ما ائتمروا به، فعل، وإن لم يفعل فليس هو حاملهم قسراً، ولا كلّهم جبراً بتمكينه إياهم بعد إعداره وإنذاره لهم واحتجاجه عليهم طوقهم ومكنهم، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما إليه دعاهم، وترك ما نهاهم عنه من شيء غير تاركه" (3).

(1) الجبرية: فرقة من فرق المسلمين تقول بالإجبار والاضطرار إلى الأعمال وإنكار الاستطاعات كلها. وتسمى أيضاً بالجهمية نسبة إلى جهم بن صفوان أحد رؤوسها. ينظر: الفرق بين الفرق: 199، وفجر الإسلام: 272. وينسب القاضي عبد الجبار منشأ مقولة (الجبر) إلى معاوية بن أبي سفيان، إذ يقول: "أول من قال بالجبر وأظهره معاوية، وأنه أظهر أن ما يأتيه (أي من الأفعال) بقضاء الله، ومن خلقه، ليجعله عذراً فيما يأتيه ويوهم أنه مصيب فيه، وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر، وفشا ذلك في ملوك بني أمية. ينظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، تح: توفيق الطويل وآخر: 104/8. وورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) في هذا الصدد قوله: "وإن الحق القول بين القولين لا جبر ولا تفويض". معاني الأخبار: 319/2.

(2) الصف: من 7.

(3) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا (ع): 408-409.

ولا خلاف في أن الجبر والتفويض في السلوك الإنساني موضوع محور حوله خلاف فكري طال واستطال بين المسلمين، وبحكم طبيعة الموضوع الفلسفية والكلامية فإن الجواب عنه يتطلب قدرا كبيرا من التفصيل والشرح، لكن الإمام(ع) اكتفى من ذلك بأسطر قليلة، زيادة على أن الجواب لم يتكئ- أو كاد - على القيم الصورية، ولعله قد عوّض عن ذلك من خلال انتقاء الجمل ذات البناء المحكم، وجعل الفكرة تتشكل على وفق رسم هندسي تتوازي خطوطه وتتقاطع بحسب قانون السببية والنمو العضوي للنص الذي بلغ من دقة توالد معانيه وتلاحم أجزائه أن يكون من العسير اجتزاء عباراته إذا ما كانت هناك محاولة للاكتفاء بجزء من النص لاستيفاء المعنى.

ورسالة البصري له(ع) تعد إشارة صريحة لمرجعية الإمام المعرفية. ولا ريب في أن المستوى المعرفي للمتلقي⁽¹⁾ (الحسن البصري)، وثقته العلمية بالمصدر⁽²⁾ (الإمام الحسين(ع)) فضلا عن وضوح الإجابة وعمق دلالاتها، ذلك كله أسهم وبإيجابية كبيرة في قوة التوصيل بين طرفي الإرسال.

ومن خلال استقراء ما تقدم من نصوص الإمام(ع) في التوحيد، نلاحظ أن النص ينتج في بدايته حكما خطيرا وكلاما عميقا يحدد مصير المتلقي الذي يخالف منابع التوحيد الأصيلة، ويتبع ما يسوغه إليه المذهب المتبع، وهذا النهج في نصوصه(ع) - فضلا عن معانيه المعروفة- يجعل المتلقي في حالة توتر وقلق وإدهاش تحفره على التركيز في فعل التلقي.

سبحان/الدعاء وتوحيد الله(تعالى) وصفاته: لما كان الدعاء جوهر العبادة⁽³⁾، فلا خلاف في أن تنزيه الله وتوحيده خطوة أولى على طريق العبادة، وهذا ما تجلّى في أدعية الإمام(ع) عموما على اختلاف مساحته في الدعاء - ولا سيما تلك الأدعية التي أنشئت خالصة في توحيد الله وتسبيحه؛ منها دعاؤه(ع): "سبحان الرفيع الأعلى، سبحان العظيم الأعظم، سبحان من هو هكذا ولا يكون هكذا غيره، ولا يقدر أحد قدرته، سبحان من أوله علم لا يوصف وآخره علم لا يبيد، سبحان من علا فوق البريات بالإلهية، فلا عين تدركه ولا عقل يمثله، ولا وهم يصوره، ولا لسان يصفه بغاية ما له من الوصف، سبحان من علا في الهواء، سبحان من قضى الموت على العباد، سبحان الملك المقتدر، سبحان الملك القدوس، سبحان الباقي الدائم"⁽⁴⁾.

سبحان/الحديث الفني وتوحيد الله(تعالى) وصفاته: في معنى آخر من معاني التوحيد يوجز(ع) طبيعة العلاقة العادلة التي انتهجها الله تعالى مع خلقه جميعا في مسألة التمكين والتكليف، إذ تنزهت تلك العلاقة من كل قسر وجبر، وهذا ما ورد في أحد

(1) عن أثر المعرفة عند المتلقي وفاعليتها في التوصيل، ينظر: مستقبل الشعر وقضايا النقدية: 44.

(2) لمعرفة تأثير المتلقي بالصدق الذي يتميز به المصدر(الباعث)، ينظر: الأدب الإسلامي- المفهوم والقضية: 207، 348، 350 على سبيل المثال.

(3) ينظر: الدعاء عند أهل البيت(ع): 16.

(4) الدعوات، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت573هـ)، تح: عبد الحليم عوض الحلي: 98، والصحيفة الحسينية: 65، وأدعية الإمام الحسين: 67- 68.

أحاديثه الفنية، إذ جاء فيه: "ما أخذ الله طاقة أحد إلا وضع عنه طاعته، ولا أخذ قدرته إلا وضع عنه كلفته"⁽¹⁾.

ومما يحسن الالتفات إليه أن الحضور الطاغي لمفهوم التوحيد في نصوص الإمام(ع) المتقدمة وحته المستمر على التفهم، والسعي لتخمير فكرة التوحيد في عقل من غمضت عليه أسرارها، لا ينفصل عن طبيعة رسالته(ع) في توصيل المبادئ الإلهية للآخرين من جهة، ولا عن طبيعة المرسل من جهة أخرى بوصفه إماما يمارس واجب الإمامة. فقد تمكن أن ينفذ عن مسألة التوحيد ما غبر معالمها من عثير الرامحين في فنائها؛ ليوضح تلك القضية العقائدية الخطيرة، ويحدد كيفية تفسيرها، فيتكشف المنهج والطريق وترسم العلاقة الحقة بين إرادة الله سبحانه وإرادة خلقه.

فإن برع(ع) في التصدي لقضية تتعلق بأصل من أصول الدين؛ فلا غرو أن يتصدى لقضية أخرى تتعلق بفرع من فروع الدين؛ وهي قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثانياً). الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اهتم الإسلام بشأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اهتماما كبيرا، بوصفه الفرع الذي بدونه لا يقوم الأصل، فهو سور الدين وحصنه المنيع؛ ولذلك فقد شكل معلما بارزا في الهوية الإسلامية، وعمودا خطيرا من أعمدة الإسلام المعرفية.

تجلى ذلك الاهتمام من خلال عشرات الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽²⁾، ومنه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽³⁾، إذ جعل الله تعالى خير الأمة كلها مشروطا بالتزامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر⁽⁴⁾.

كما جاءت أحاديث المصطفى(ص) بهذا الصدد شاهدا آخر على جوهرية القضية وأصالتها، من ذلك قوله(ص): ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))⁽⁵⁾.

ولعمق المسألة وارتباطها بمصير الإسلام والمسلمين شرع الدين الإسلامي لها شروطا محددة، وأخرى للقائم بها، وعين مصاديق تطبيقها وطبيعة العمل بها

(1) تحف العقول:175.

(2) من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ آل عمران/104، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الأعراف/157، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الحج/41، وينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: مادة (أ م ر) على سبيل المثال.

(3) آل عمران/110.

(4) ينظر: معاني القرآن:1/158، ومجمع البيان في تفسير القرآن:2/807.

(5) صحيح مسلم:42.

واستحقاقاتها وثوابها⁽¹⁾، وصار من المعلوم أن "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الجميع"⁽²⁾.

والإمام(ع) بلا شك، يتقدم الجميع – ما خلا أسلافه- في تحمل هذا الواجب والاهتمام به، فمن الإشارات العميقة لذلك أنه كان ملازماً لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وقت مبكر من حياته، عالماً بدقائقها ملماً بأركانها، إذ يروى أن: "الحسن والحسين مرّا على شيخ يتوضأ ولا يحسن، فأخذا بالتنازع، يقول كل واحد منهما: أنت لا تحسن الوضوء، فقالا: أيها الشيخ! كن حكماً بيننا يتوضأ كل واحد منا سوية، ثم قالا: أينما أحسن؟ قال: كلاكما تحسان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدكما"⁽³⁾.

وحرصت الشريعة الإسلامية على أن يكون دعائها "على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التي بينها القرآن الكريم وطبقها النبي(ص)"⁽⁴⁾، فمن تلك الوسائل أن ينماز الداعي إلى فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – في أغلب مراتبه- بالسلاسة واللين، فالداعي: "رفيق فيما يأمر ورفيق فيما ينهى"⁽⁵⁾.

وهذا ما جسده الحسنان(ع) على وفق صورة معبرة عن إدراك وسائل تلك الفريضة وكيفياتها؛ إذ تجلّى من خلالها الحرص على مشاعر الآخر والرفق في التعامل معه، وهذا التجسيد قد اضطلع عنصر الحوار به، فقد أنمى وطور الموقف على نحو منع من إهدار العامل المعنوي للمتلقي وعدم ممارسة سلطة معرفية بإزائه، وجعله مسهما في عملية الاستكشاف الذهني.

ولعل الشيخ قد تنبه على تطابق وضوء الإمامين(ع) فقال: (كلاكما تحسان الوضوء) وهذا أمر لا يتوقع خلافه، زيادة على معرفته بنسبهما الكريم: (... أمة جدكما)، ذلك كله خلق للنص سياقاً تعليمياً دينياً، حفّز المتلقي لأن يعلن اعترافه بخطأ وضوئه: (هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن)، وكذلك امتنانه من جميل صنعهما(ع): (ببركتكما وشفقتكما)، ومما يزيد في أهمية معروفهما(ع) أن الصلاة تبطل ببطلان الوضوء كما هو معلوم.

وبالنتيجة قد استطاعا(ع) إحداث التأثير في المتلقي الذي انطوى عليه عنصر الحوار في النص وتثبيت الدلالة لديه، وهذه نتيجة متوقعة لمحاولة حاذقة للإحاطة بمجرى العملية: (وقد تعلم الآن منكما وتاب على يديكما)، وبهذا حقق النص توصيلاً نوعياً.

ومن المعلوم أن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل في الإمامة؛ ولذلك حفل أدبه(ع) بالعديد من النصوص التي تمحورت حول تلك المسألة بشكل

(1) للاطلاع على تفصيل ذلك، ينظر: تفسير الكشاف: 187/4-188، والفتاوى الميسرة، السيد السيستاني: 362-394.

(2) الفتاوى الميسرة: 364.

(3) مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني(ت588هـ)، تحقيق وفهرسة: د.يوسف البقاعي: 452/3، وينظر: العوالم، عبد الله البحراني: 100/16، وبحار الأنوار: 319/43.

(4) الأدب الإسلامي- المفهوم والقضية: 351.

(5) الخصال، الصدوق: 19/1.

مباشر. ولا ندقق في القول حين نقرر أن نصوصه تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشكل مباشر وغير مباشر، ولكن توخينا لدقة التصنيف في الموضوع سنتناول ما هو مباشر وصريح من نصوصه.

وقد تقدمت خطبه (ع) على بقية الأنواع الأدبية في شغل حيز كبير من مساحة هذا النوع من الموضوع الديني، تلتها الرسائل وبفارق ملحوظ، فيما جاءت أحاديثه الفنية متقدمة على أدعيته التي امتلكت المساحة الصغيرة المتبقية.

مقدمة = الخطبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: جاء في إحدى خطبه (ع) ما يحض الناس على القيام بالمعروف وإنكار المنكر، والاعتبار بمصير الأمم الغابرة التي زهدت في هذه الفريضة، إذ خطب قائلاً: **"اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أوليائه من سوء ثنائه على الأحرار، إذ يقول: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ وقال: ﴿لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *"** (1).

ثم يوضح (ع) سبب موقف الله عز وجل من علماء الأديان السابقة الذين كفروا على لسان نبي الله داود (ع) ونبي الله عيسى (ع) (2)، فيقول: **"وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهاهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون، والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخْشَوْنِي﴾"** (3). فغياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتسبب في تقشي الفساد بأشكاله كلها والانحراف بأنواعه كلها بين صفوف الأمة وذلك كله يوجب لعنة الله تعالى وسخطه على الأمة.

بعد ذلك سلط الإمام (ع) الضوء على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بوصفه الفريضة التي تؤسس لفرائض الدين الإسلامي جميعها، مبتدئاً بآية قرآنية تدل على هذا المعنى: **"وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه لعلمه بأنها إذا أديت وأقيمت، استقامت الفرائض كلها هيئها وصعبها"** (4).

وقد اتسمت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتشمل ما جاء به الإسلام جميعه في مواردته العديدة من تشريع وقيم كتلك التي تحكم العقيدة الإسلامية والعلائق الإنسانية؛ ولهذا لم تتقيد تلك الفريضة بجانب معين من جوانب الحياة "وذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعاء إلى الإسلام مع ردّ المظالم، ومخالفة الظالم، وقسمة الفیء والغنائم، وأخذ الصدقات من مواضعها ووضعها في حقها" (5).

(1) تحف العقول: 169، وينظر: بحار الأنوار: 79/100. والنصان القرآنيان في: المائدة/63، و78-79.
(2) لتبيين حال رهبان الأديان السابقة وأحبارها وحال الذين لعنهم الله في الزبور والإنجيل، ينظر: تفسير الكشاف: 304/6، ومجمع البيان في تفسير القرآن: 357/3-358.
(3) تحف العقول: 169. والنص القرآني في: المائدة/من 44.
(4) تحف العقول: 169. والنص القرآني في: التوبة/من 71.
(5) تحف العقول: 169.

ولا يخفى على المستقري أن الإمام(ع) اعتمد النص القرآني لتفعيل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سياق اجتماعي سياسي، إذ كان هدفه منصبا على إبراز مفهومات معينة وأسس مهمة لهذا المبدأ تنبثق من طبيعة الأفكار الواردة في سياق السور القرآنية التي تعنى بهذا الشأن سعيا منه لتعميق دلالات المبدأ وتدعيم التواصل بينه وبين الجمهور.

﴿الرسالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر﴾ كما مارس(ع) فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال الكلمة فقد مارسها من خلال الموقف الذي تطلب أعلى مراحل الإجراء والعمل؛ مرحلة التغيير بقوة الثورة، فد"العامل الأساس في ثورة الحسين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"(1)، وقد أعلن(ع) ذلك في عدة بيانات منها ما جاء في رسالته إلى أخيه محمد بن الحنفية: "إني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا مفسدا ولا ظالما"(2).

وبعد أن دفع(ع) عن نهضته- باطراد متصاعد الخطورة- أي شك يصيبها أو غموض يكتنفها أو إرجاف يتصنعه المرجفون، نصّ على أسباب ثورته وغاياتها: "وإنما خرجت أطلب الإصلاح في أمة جدي محمد(صلى الله عليه وآله) أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد(صلى الله عليه وآله)"(3).

ومن خلال النص وسياقه الاجتماعي التاريخي، نلاحظ حرصه على كتابة مبادئ ثورته بخط يده، فقد كان بوسعه أن يقولها شفاها لأخيه محمد بن الحنفية. ولا يخفى ما للسياق المذكور من تأثير في اختيار قناة التوصيل(4)، إذ يراد لهذه الوصية أن تبقى وثيقة ثورية خطيرة تضح مفاهيم التحرر على مر العصور للمجتمع الإنساني، إذ "إن الطريقة الفريدة التي اختارها الحسين(ع) لبقاء الثورة، كانت هي ربط الثورة بمبادئ الحق الثابتة، وإنها واصلت الطريق في هذا الاتجاه المختار إلى النهاية بروح تضحية فريدة"(5).

وقوله(ع): (أطلب الإصلاح) تشديد على أن حركته "هي حركة إصلاح دينية، وابتداء مسيرة إسلامية تتجه نحو هدف معين، وغاية يتحقق فيها للمسلمين أعظم عوامل الظفر"(6). وقد قرن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بسيرة جده محمد(ص) تشديدا منه على خلو الفريضة من أي محمول سلبي قد يعلق بها.

ثم تابع رسالته قائلا: "فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق"(7). ونلاحظ في هذا المقطع أنه قال: (فمن قبلني بقبول الحق) ولم يقل: فمن قبلني لشرفي، ومنزلتي في المسلمين، وقرابتي من رسول الله(ص)، وإن كانت تلك مقومات فاعلة في سبيل

(1) الإمام الحسين شمس لن تغيب: 91.
(2) مقتل الحسين، الخوارزمي: 273/1، وينظر: المجالس السنية: 57/1، والوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين(ع): 46. وأشرا: فرحا، ينظر: لسان العرب: مادة (أ ش ر).
(3) مقتل الحسين، الخوارزمي: 273/1.
(4) لمعرفة أثر السياق، ينظر: نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث: 167 على سبيل المثال.
(5) الأبعاد المستوحاة من ثورة الحسين، محمد علي جواد: 60.
(6) مع الحسين في نهضته، أسد حيدر: 156.
(7) هذه التهمة جاءت في: الفتوح: 234/5، وينظر: مقتل الحسين، المرقم: 139.

الحق، إلا أنها لا ترقى وحدها لأن تكون بديلة عن الحق، بل قرن قبوله بقول الحق، فهذا داع من دعائه، وحين يقبل الناس داعي الحق فإنما يقبلونه لما يحمل إليهم من الحق والخير لا لنفسه، وفي هذا تعال وتسام عن التفاخر القبلي الذي كان رأس مال كل زعيم سياسي أو ديني في عصره⁽¹⁾.

ثم ذكر الاحتمال الثاني وهو رد دعوته، وقرن موقفه بالموقف القرآني، تأسيا بقوله تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾⁽²⁾، وبتلك المعاني ختم الإمام(ع) وصيته، إذ قال: "وَمَنْ رَدَّ عَلَيَّ هَذَا أَصْبِرَ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْقَوْمِ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ"⁽³⁾.

١٠٠٠ = الحديث الفني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: الصبر عند الإمام(ع) نوعان- وهما يكشفان عن أمره(ع) بالمعروف ونهيه عن المنكر- الأول: صبر على الباطل، والآخر: صبر عن الحق، كما ورد في أحد أحاديثه الفنية: "اصبر على ما تكره فيما يلزمك الحق، واصبر عما تحب فيما يدعوك إليه الهوى"⁽⁴⁾.

١٠٠٠ = الدعاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: صرح الإمام الحسين(ع) أنه محب للمعروف كاره للمنكر. جاء في أحد أدعيته: "اللهم إني أحب المعروف وأكره المنكر"⁽⁵⁾، وهكذا ظل طوال حياته وفيما لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ظلت هي وفيه له من خلال حضورها المتجدد في سفره الخالد.

ولم تتوقف همة الإمام(ع) في التعامل عند أصول الدين وفروعه وفروضه وواجباته، بل ارتقت إلى مراتب الاستحباب والعرفان، كالزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

ثالثاً. الزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة: حرص الإسلام على إنماء الجانب الروحي للمسلم؛ لتتحقق له سمة جليلة في التفرد النوعي عن بقية المخلوقات، وصولاً إلى مراتب الكمال الإنساني، بغية تمكينه من النهوض بمهامه الدينية والدينيوية على وفق ما خطه الشارع المقدس، وإعداده إعداداً سليماً للحياة الآخروية.

ولعل زهد المسلم في الدنيا هو واحد من أشهر آليات السمو الروحي، والقرآن الكريم، وإن لم ترد فيه لفظة الزهد صراحة إلا في آية واحدة جاءت في موضع ذم⁽⁶⁾، كان "منبعاً لرواد الحياة الروحية الإسلامية"⁽⁷⁾ من خلال تناوله لمعاني الزهد

(1) ينظر: ثورة الحسين وظروفها الاجتماعية وآثارها السياسية: 174، وخطب الإمام الحسين(ع) على طريق الشهادة: 111، والخطابة العربية في عصرها الذهبي: 152، والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 114.

(2) لقمان/من 17.

(3) الفتوح: 34/5، وينظر: مقتل الحسين، المقدم: 139.

(4) نزعة الناظر وتنبيه خاطر: 85، وينظر: موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع): 920/2.

(5) مقتل الحسين، الخوارزمي: 270/1، وينظر: مقتل الإمام الحسين أو واقعة الطف: 133.

(6) قال تعالى: ﴿وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَأَنَّهُ مِنْ الرَّاهِدِينَ﴾. يوسف: 20، وينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة (ز ه د). والزهد والزهد هو الشيء القليل، والزاهد في الشيء الراغب عنه والراضي منه بالتزهد أي القليل. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن الكريم، العلامة الراغب الأصفهاني، تج: صفوان عدنان داوودي: مادة (ز ه د): 384.

(7) شعر الزهد في العصر العباسي، د. عبد الستار محمد ضيف: 15.

في آيات متعددة فـ"القرآن قد برع في وصف الموت والحساب والقيامة وأهوالها المفجعة حتى بلغ الذروة"⁽¹⁾. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾⁽³⁾، وقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾⁽⁴⁾.

ولما كان الرسول المصطفى(ص) "زاهد الأمة الأول"⁽⁵⁾ إذ جسّد الصورة المثالية الأولى للزهد الإسلامي، فلا غرو أن يحض المسلمين على هذا النمط السلوكي العبادي، لما فيه صلاح أحوالهم وفلاح عاقبتهم؛ فقد كان(ص) يوصي المسلمين بأن يتخذوا من الدنيا دار انتقال لا دار استقرار، في أحاديث كثيرة منها: ((كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل))⁽⁶⁾.

وقد كان الإمام علي(ع) أزهد أهل زمانه بعد النبي(ص)، فعن عمر بن عبد العزيز قال: "أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب"⁽⁷⁾، وله(ع) في الزهد أحاديث كثر، منها: "الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والتورع عن المحارم"⁽⁸⁾. وكذلك أمضى الحسين(ع) الزهد بوصفه منهج أبائه وسلوكهم في حياتهم، حتى صار ملمحا بارزا في شخصيته.

وانطلاقا من عدّ الكلاباذي(ت) مَوْلَانَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي نَجْمٍ (هـ) الإمام الحسين(ع) من أئمة التصوف⁽⁹⁾، أرى أن هناك خلطا بين مفهوم الزهد عند أهل البيت(ع) ومفهوم التصوف بشكل عام عند كثير ممن تناولوهما، متكئين على أن نشأة التصوف كانت في الأصل ممتزجة بمفهوم الزهد الإسلامي⁽¹⁰⁾، فإن كان الزهد هو القناعة باليسير من الدنيا، فالتصوف هو التجرد التام من الدنيا والاتحاد مع الله⁽¹¹⁾. ومن الباحثين من يرى أن "التصوف شيء والزهد شيء آخر، حقا أن كل متصوف زاهد، ولكن ليس كل زاهد متصوفا"⁽¹²⁾. ولعل الصوفيين أنفسهم كانوا سببا رئيسا في هذا الخلط؛ لأنهم عزوا طريقتهم إلى أهل البيت(ع) ولاسيما أمير المؤمنين علي(ع) "حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف، ليجعلوه أصلا لطريقتهم ونحلتهم، رفعوه إلى علي(رض)"⁽¹³⁾، ولأن شيوخ التصوف كانوا يبحثون عن شخصيات عارفة لله

(1) الشعر الصوفي، عدنان حسين العوادي: 119.

(2) الملك/من 2.

(3) الشعراء/88.

(4) الحديد/من 20.

(5) تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي: 370.

(6) صحيح البخاري: 1144.

(7) الكامل في التاريخ: 350/3، وينظر: كشف الغمة: 162/1.

(8) شرح نهج البلاغة: 183/6.

(9) وقد انسحبت قضية التصوف على أغلب أهل البيت(ع)، ينظر: التعرف على مذهب التصوف، الكلاباذي: 27.

(10) ينظر: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: 21/2، والشعر الصوفي: 159، والتصوف الإسلامي، تور أندريه: 64.

(11) ينظر: اصطلاحات الصوفية، كمال الدين القاشاني، ضبطه وعلق عليه: موفق فوزي الجبر: 13، 22، 88، 212 على سبيل المثال، ومعجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 228.

(12) تاريخ الأدب العربي- العصر الأموي: 446.

(13) مقدمة ابن خلدون: 524، وينظر: الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل مصطفى الشبيبي: 34.

عابدة ليتخذوها قدوة لهم، فوجدوا أهل البيت(ع) في طليعتها، وساعد على ذلك أن كبار شيوخهم رأوا كرامات ومعجزات مدهشة لأهل البيت(ع)(1).

وما زال الصوفية على اختلاف طرائقهم وانتماءاتهم يعتقدون أنه ما "من طريقة صوفية إلا وفي سندها علي بن أبي طالب"(2).

وهكذا اصطبغت تلك العلاقة بصبغة الصوفية وظلت حاضرة في أذهان الأدباء وغيرهم، ولاسيما المحدثين، فعليّ -عندهم- هو إمام الشيعة وهو إمام الصوفية(3).

ولا غرو، فقد سرى هذا الاعتقاد إلى أحد المؤلفات المعاصرة التي تناولت شخصية الحسين(ع) بإيجاز، ومن عدة جوانب، فقد أفرز في أحد فصول الكتاب مبحث تناول فيه الإمام(ع) بوصفه شخصية صوفية(4)، مع أن المتصوفة "لا يرون الخروج على الولاة بالسيف وإن كانوا ظلمة"(5) فنهجهم -إذا- نهج استسلامي!

من هنا، فإن مفهوم الزهد عند أهل البيت(ع) هو بلا شك يمثل مفهوم الإسلام للزهد الذي "يجري على سنة القصد ويمضي على مذهب الاعتدال"(6).

وصفة القول: إن عنوان الطريقة الصوفية بشخص أهل البيت(ع) كانت بغية تأصيلها والتسبيب لها، وهو ما سعى إليه الصوفية، إذ أنشأوا علاقة من طرفهم تضخمت مع مرور الزمن على حساب الطرف الآخر في مفهوم عدد كبير من الباحثين الإسلاميين.

والنظر في أدب الإمام الحسين(ع) يبين أن الزهد استغرق مساحة ملحوظة في ذلك الأدب، وقد تصدرت الخطب مساحة هذا النوع، تتلوها الأحاديث الفنية، وبعدها الأدعية ثم الرسائل.

الخطبة والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة: إن من أبرز معاني الزهد التي وردت في أدب الإمام(ع) هو الوعظ الديني، إذ زحرت خطبه بالحض على أخذ القناعة من الدنيا، والسعي للآخرة، والتفكير بالموت، وفرع يوم القيامة، والتوجه إلى الله تعالى. ومن ذلك ما جاء في إحدى خطبه(ع): "يا ابن آدم! تفكر وقل: أين ملوك الدنيا وأربابها، الذين عمّروا خرابها، واحتفروا أنهارها، وغرسوا أشجارها، ومدّنوا مدائنها! فارقوها وهم كارهون، وورثها قوم آخرون، ونحن بهم عما قليل لاحقون"(7) ثم تابع قائلاً: "يا ابن آدم اذكر مصرعك، وفي قبرك مضجعك، وموقفك بين يدي الله تعالى، تشهد جوارحك عليك، يوم تزل الأقدام، وتبلغ القلوب الحناجر، وتبيض وجوه وتسود وجوه، وتبدي السرائر ويوضع الميزان للقسط"(8). بعدها

(1) ينظر: الاحتجاج: 205/2 على سبيل المثال، وكشف الغمة: 6/3، والتصوف وحب أهل البيت(ع) (مقال في شبكة المعلومات)، علي الكوراني العاملي.

(2) مفتي حلب يفجر قضية مظلومية أهل البيت(ع) على منبر الجمعة (مقال في شبكة المعلومات).

(3) ينظر: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: 22/2، ومشكلة الموت عند الصوفية، د. مهدي محمد إبراهيم: 374.

(4) ينظر: الإمام الحسين قبس من نور: 57-59.

(5) صفوة الصفوة، ابن الجوزي: 65/4.

(6) مشكلة الموت عند الصوفية: 369.

(7) إرشاد القلوب: 74/1، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 13.

(8) إرشاد القلوب: 74/1.

يختتم كلامه بقوله: "يا ابن آدم أذكر مصارع آبائك وأبنائك كيف كانوا وحيث حلوا، وكأنك عن قليل قد حلت محلهم"⁽¹⁾.

افتتح الإمام (ع) النص بنداء للبشرية (يا ابن آدم)، إذ شحنه ببعد (زمكاني) واسع، اعتقاداً بتحقيق معاني النص، ومناسبته للأجيال المتعاقبة وبمساحات رحبة. فالباعث يعي، بحسب مستويات متعددة، وفي مختلف المراحل التاريخية، صنف المستقبلين الذي يتوجه إليهم بخطابه⁽²⁾.

وقد دعا (ع) إلى التأمل والعودة إلى الماضي لتقصي مصير الملوك والأثرياء الراحلين، من خلال محاولته دفع المتلقي لإقامة حوار ذهني داخلي مع ذاته، بغية تجنب المباشرة، وإسهامه في تلمس الحقائق، فضلاً عن إمضاء هدف تربوي في ترويض النفس، باعتمادها مبدأ المحاسبة الذاتية.

ثم يمضي النص في استعراض سيرة هؤلاء الملوك، وأضرابهم في الدنيا، وسجل أعمالهم الكبيرة التي بدأت من الخراب وانتهت بتمصير الأمصار وإقامة المدن (عمرؤا خرابها... ومدنوا مدائنها)، إذ كشفت عن ذلك فقرات متواشجة متوازنة، تميزت بتجانس صوتي، يميل الإيقاع فيها إلى البطء المتتابع، ربما ليتماشى مع معاناة الدنيا ومراحل تعميرها.

ولا شك في أن اختيار الملوك وأشباههم في النص دون غيرهم، إنما جاء بوصفهم أنموذجاً دنيوياً متضخماً ليعتبر من تجربتهم بقية أفراد المجتمع. وبعد أن صنع أصحاب الدنيا ما صنعوا، كانت المحصلة أن (فارقوها وهم كارهون... لاحقون). ونلاحظ في فقرات تلك المحصلة تنامياً عضوياً على وفق تسلسل زمني خاضع للإرادة الإلهية، فينتهي بالفناء الذي سيلحق قريباً بالأحياء (الباعث والمتلقي)، ولعل الإيقاع الصوتي المتسارع الذي وشحت به الفقرات الأخيرة جاء متسقاً مع سرعة زوال الحياة.

ثم ينتقل النص إلى مقطع آخر: (يا ابن آدم أذكر مصرعك...) إذ يمثل تطويراً فكرياً بدأ في المقطع الأول، فكأن هذا المقطع الجديد ابتداءً من حيث انتهى الأول، فقد عاد النص من جديد يتنامى عضوياً ويتسلسل زمني آخر يتجه إلى ما بعد الموت، ليذكر بمصرع الإنسان ثم انتقاله إلى القبر ثم موقفه بين يدي الله للحساب حتى يصل قرار الجزاء بعد أن (يوضع الميزان للقسط).

وذلك كله يمثل صلب الموضوع المراد توصيله الذي استهدف كبح جماح النفس البشرية، وحضها على العزوف عن التضخم الدنيوي الزائف من خلال التذكير بقضية المصير المحتوم.

ونلاحظ أن النص المتقدم قد اعتمد كلمات ذات دلالات أشد وطأة؛ لتسبب أغوار النفس البشرية، فتثير الرعب والفرع لدى المتلقي حتى يبلغ مرحلة الترقب والحذر في قابل الأيام، مستثمراً دقة التوظيف لنصوص قرآنية متعددة، نهضت بمساحة واسعة من معانيه، فكان النص بهذا القياس شديد الدلالة على موضوعه كما كان شديد الدلالة على صاحبه.

(1) م. ن: 74/1.

(2) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقارنة بنيوية تكوينية، محمد بنيس: 339.

بعدها يصل النص إلى مقطعه الأخير(يا ابن آدم أذكر مصارع آبائك وأبنائك [...]) حلت محلهم) ليذكر بأن مجيء الموت لا يقتربن بعمر معين، بل يدهم البشر جميعهم على حين غرة، في محاولة لتقصير أمل الإنسان في الحياة وتحفيزه إلى التأهب والاستعداد للموت بقلب مطمئن.

وجاءت المعاني المتقدمة جميعها بعد تكرار صيغة النداء(يا ابن آدم)، وهذا التكرار إنما هو نهج خطابي إسلامي عريق، وهو "تكرير خفيف مقبول يؤكد المعنى ولا يثقله"⁽¹⁾، زيادة عما فيه من حض على امتثال الأمر واجتناب النهي⁽²⁾، فكأنما يريد الخطيب أن يوقظ جمهوره ليتوقف معه عقلا ووجدانا⁽³⁾.

وواضح أن النص جاء على وفق سياق ديني وعطي تميز بخفة الصنعة وبساطة الأداء، وتلك سمة مشتركة بين الزهاد بعامة⁽⁴⁾.

وقد تميز النص بوحدة الموضوع وهو التذكير بالفناء المحتوم لأجل تزهيد الناس في الدنيا؛ الأمر الذي جعل أجزاء الخطاب مترابطة فيما بينها ليؤثر إيجابيا في الفائدة المتحققة من خلال منح المتلقي فرصة أكبر في صب الاهتمام على موضوع واحد⁽⁵⁾، من حيث إنه من الممكن أن يكون "الاستطراد والترهل من أسباب الإبطاء في العملية التواصلية"⁽⁶⁾.

ولا ريب في أن كربلاء يوم الطف كانت عنوان الزهد وفنائ الأرحب، إذ برز الزهد بأجلى صورته وأوسع معانيه، ففيما زهد الإمام وأصحابه بدنياهم كلها من أجل الدين، زهد أعداء الإمام بالدين من أجل دنياهم فقد "ضحى بنو حرب بالدين يوم كربلاء، فيوم كربلاء يوم الحسين بن علي بن أبي طالب وأصحابه"⁽⁷⁾.

ولم يثنه (ع) تشبث أعدائه بالدنيا من أن يضطلع بمسؤوليته حيالهم إذ كانت معاني الوعظ تتركز في تنفير الناس من الدنيا والانقطاع عن فتنها ليكون ذلك سمة أكيدة لخطب كربلاء جميعها إلا خطبته الأخيرة عندما يؤس من إصلاحهم إذ قال: "تبا لكم أيتها الجماعة وترحاً..."⁽⁸⁾. ومن ذلك قوله: "الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها من حال إلى حال"⁽⁹⁾، وقال (ع) في خطبة أخرى: "عباد الله اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر [...]" ف﴿تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁰⁾.

إن من يتفحص تلك المواعظ في الزهد ويتأمل معانيها يشعر وكأن الإمام (ع) لا نصيب له في غير الزهادة ولا شغل له بغير العبادة، ويكاد ينسى جهاده البطولي

- (1) النثر الفني في القرن الرابع الهجري: 61/1.
- (2) ينظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين: 125.
- (3) ينظر: النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي: 211.
- (4) ينظر: النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي: 217.
- (5) ينظر: التوجيه الأدبي: 35، والأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، حبيب يوسف مغنية: 379.
- (6) التوازن في فكر العقاد (مقال في شبكة المعلومات)، د.حسن بن فهد الهويمل.
- (7) الكامل في اللغة والأدب: 13/4.
- (8) ينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: 155.
- (9) مقتل الحسين، الخوارزمي: 357/1.
- (10) ينظر: زهر الآداب: 100. والنصان القرآنيان في: البقرة/ من 197، وآل عمران/ من 130.

الملحمي. والجمع بين الزهد والشجاعة هو واحدة من سمات الإمامة التي عُرف بها أهل البيت كما هو معلوم، فهم (ع) يرون في الزهد عملاً إيجابياً لتنشئة المجتمع الصالح، وليس انسلاخاً من الواقع وهروباً من مواجهته كما شاع عند كثير من الناس.

ولنا أن نتأمل موقفه (ع)، وهو بين الأسنة والرماح حين سأله أحد أصحابه أن يصلي معه صلاة الظهر، فأجابه (ع): "ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين! نعم هذا أول وقتها"⁽¹⁾، ثم قال: "سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي"⁽²⁾، ولم يكف الأعداء عنهم، ولكنه (ع) أقام صلاة الظهر صلاة الخوف مع من تبقى من أصحابه⁽³⁾.

وهكذا زهد (ع) وأصحابه بحياتهم مرة أخرى لإقامة فرائض الإسلام حتى في أرباب الأوقات وأشدّها رعباً؛ تمسكاً بتعاليم السماء وإبرازاً لماهية نهضته وأهدافها. وفي الوقت الذي كان (ع) يوصي في مواضعه باتباع التقوى وطاعة الله تعالى، والزهد في سبيله، فقد كان ينهى عن الرياء، وعصيان الله تعالى والطمع في الدنيا، ومن ذلك ما ورد عنه في إحدى خطبه: "فإياك أن تكون ممن يخاف على العباد من ذنوبهم ويأمن من العقوبة من ذنبه، فإن الله تبارك وتعالى لا يخذع عن جنته ولا ينال ما عنده إلا بطاعته إن شاء الله"⁽⁴⁾.

وهكذا انمازت "مواظب الحسين بغناها الفكري الإسلامي في التمييز بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والحق والباطل، وكانت تدخل نفس الإنسان فتسبر غورها"⁽⁵⁾.

﴿الحديث الفني والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة﴾: معلوم أن من معاني الزهد حسن التوكل على الله، وقد حفل أدب الإمام (ع) بهذا المعنى، إذ ورد عنه في أحد أحاديثه الفنية قوله: "إن العزّ والغنى خرجا يجولان، فلقيا التوكل فاستوطنا"⁽⁶⁾. وهذا النص يصوّر مدى ملازمة التوكل لعزة المؤمن وغناه المعنوي، وكأن تلك العناصر قد صهرت في بوتقة إسلامية واحدة.

ومن الإشارات الدقيقة لمعنى التوكل، جوابه (ع) عندما قيل له: "إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، فقال (عليه السلام): "رحم الله تعالى أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله تعالى له لم يتمن غير ما اختاره الله عزّ وجلّ له"⁽⁷⁾.

وواضح أن النص المتقدم في الوقت الذي ينبئ عن درجة زهد الصحابي الجليل أبي ذر وشغفه بالآخرة، فإن النص أيضاً يبرز رسم الخطوط المنهجية للزهد السليم

(1) تاريخ الطبري: 439/5، وينظر: الكامل في التاريخ: 524/3.

(2) تاريخ الطبري: 439/5.

(3) ينظر: م. ن: 441/5، والملهوف على قتلى الطفوف: 165.

(4) تحف العقول: 171.

(5) الإمام الحسين بن علي (ع) سيد الشهداء: 357.

(6) مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، حسن النوري الطبرسي (ت 1320 هـ)، تح: مؤسسة آل البيت (عليهم

السلام) لإحياء التراث: 218/11، وينظر: موسوعة الإمام الحسين (ع): 892/2.

(7) إحقاق الحق: 591/11.

عند الإمام (ع)، إذ جاءت كلماته مشحونة بعمق الفكرة التي استطاعت أن تحقق الأرضية الرصينة للزهد من خلال ضخ مفهوم الرضا والقناعة الأكيدة لكل ما يختاره الله تعالى للمؤمن من بلاء أو رخاء، فكل ما يأتي من الله حسن.

ومن معاني الزهد أيضا أن يكون العبد متقلبا بين الخوف والرجاء، فقد قيل للإمام (ع) كيف أصبحت يا ابن رسول الله؟ فأجاب: "أصبحت ولي رب فوق، والنار أمامي، والموت طالبي والحساب مُحْدِق بي، وأنا مرتهن بعلمي، لا أجد ما أحب ولا أدفع ما أكره، والأمور بيد غيري، فإن شاء عذبي، وإن شاء عفا عني، فأني فقير أفقر مني"⁽¹⁾. ولا يخفى في أن السياق الوعظي للنص ندب الإمام (ع) لأن يشحن كلماته بقيم تصويرية تأملية لينطوي جوابه على أسرار فنية نفسية، في محاولة موفقة لمنح مفاصل النص تجسيما وهيئة وإكسابه حضورا حسيا يدفع المتلقي لأن يعيش حالة الباث ذاتها التي ظهر فيها أسيرا لرحمة الله تعالى أولا وأخيرا وصحيفة أعماله. وتلك الهيئة تمثل القيمة المحورية التي يهدف النص إلى طرحها أمام المتلقي ليكشف بنفسه ما وراء تلك الأحداث من دلالة ومعنى؛ وهذا هو الإمتاع الجمالي للنص.

الرسالة والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة: لم يبتعد مفهوم رسالته الجوابية كثيرا عن المعاني السابقة، إذ راسله رجل يسأله عن خير الدنيا والآخرة، فكتب إليه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإنه من طلب رضى الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس"⁽²⁾، فالنص يشير إلى أن معيار التوكل السليم رضا الله تعالى وليس رضا الناس بسخطه تعالى، فأغلب الناس تستوخم الحق ولا تستعذبه: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾⁽³⁾، والعبد الذي يحسن التوكل يحسن الله تعالى تكفله، "فالإسلام يفهم التوكل بأنه الاعتماد على الله بعد الأخذ بالأسباب"⁽⁴⁾.

الدعاء والزهد في الدنيا والترغيب في الآخرة: معلوم أن الدنيا بغرورها والآخرة بنقائها لا يسعهما قلب واحد، فما أن تحل إحداها حتى ترحل الأخرى، ولذلك لا يكون الزهد في الدنيا إلا رغبة في الآخرة، فهما متلازمان لا ينفصلان، حتى أن وجود أحدهما أمانة لوجود الآخر.

وهذه العلاقة بين الزهد والآخرة ومعانيها، قد حفل بها أحد أدعيته (ع)، إذ قال: "اللهم ارزقني الرغبة في الآخرة حتى أعرف صدق ذلك في قلبي بالزهادة مني في دنيائي، اللهم ارزقني بصرا في الآخرة حتى أطلب الحسنات شوقا، وأفر من السيئات خوفا يا رب"⁽⁵⁾.

(1) الأمالي: 487، وينظر: بحار الأنوار: 116/78.

(2) معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (عليهم السلام): 45/2.

(3) المؤمنون/من: 70.

(4) شعر الزهد في العصر العباسي: 177.

(5) معالي السبطين، محمد مهدي الحائري: 213/2، وينظر: القمقام الزخار والصمصام البتار، فرهاد بن عباس القاجاري، تعريب وتحقيق: محمد شعاع فاخر: 270/2.

وهكذا نلاحظ أن السياق هو الذي حدد طبيعة نصوص الإمام(ع) من أن تكون ذات صبغة تقريرية أو فنية أو كليهما في نص واحد، وأيا كان فقد امتلكت خطاباته الدينية قابلية عالية في التوصيل؛ وذلك: "لقابلية العلامات للتنبؤ بمعناها"⁽¹⁾. ومهما رصدنا أشكال تجليات ظاهرة الزهد في النصوص المتقدمة فإنها جميعا تشترك في مساحة واحدة تبعث بإشارات حية، تخلص إلى وجوب قهر وازع الهوى، لكي لا تكون الدنيا الفانية همنا ومبلغ علمنا، فالحرص عليها والانغماس في شهواتها ينتج مجتمعا ماديا تتضاءل فيه الروحانية وتتفشى فيه الأنانية، مع غلبة فكرة الرحيل الأبدي إلى الآخرة على نبض تلك المساحة المشتركة.

خاتمة: قد لا يخلو من الفائدة أن نقول في ختام المبحث أن الموضوع الديني في أدب الإمام الحسين(ع) استطاع أن يحقق إطارا مرجعيا فاعلا في العلوم الدينية والمعرفية، من خلال تحميل نصوصه طاقات وفيرة من الخصوبة والنماء والسمو، إذ ارتكزت تلك النصوص على رصيد حافل بالمفردات القرآنية وعلى علوم آبائه بوصفه(ع) أطروحة مطابقة لمفاهيم أسلافه. وقد أثر سياق النص في تحديد اعتماد التنظير وحده أو التطبيق أو كليهما في توصيل المعنى والدلالة للمتلقي.

(1) نظرية التلقي، روبرت هولب، تر: د. عز الدين إسماعيل: 310.

المبحث الثالث الموضوع الاجتماعي

شرّع الإسلام منهاجاً متكاملًا لتربية الفرد المسلم بوصفه نواة للمجتمع ولبنة في بنائه، يشغل هذا المنهج مع أول نبض في عروق الإنسان ليرسم له المسار القويم طوال حياته ولا يزهد في صحبته حتى يخترم الموت أيامه.

فلو "تتبعنا آيات القرآن الكريم، وأحاديث السنة النبوية، لوجدنا الجانب الاجتماعي يأخذ أهمية ومكانة بعد العقيدة مباشرة في كثير من الآيات والأحاديث طيلة الفترة التاريخية للتشريع الإسلامي"⁽¹⁾. ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَعُلُوهُ* ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ* ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ* إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ* وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾⁽²⁾.

وفي معان اجتماعية آخر وردت أحاديث نبوية شريفة؛ منها قوله (ص): ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))⁽³⁾.

ولما كان "الأدب مؤسسة اجتماعية، أداته اللغة، وهي من خلق المجتمع"⁽⁴⁾، صار جلياً أن "الأدب والاجتماع وجهان لحقيقة واحدة هي الطبيعة البشرية"⁽⁵⁾.

ولعل الأدب واحد من أبرز قنوات توصيل المعاني الإسلامية الاجتماعية وغيرها عند أهل البيت (ع)؛ لذلك دأب الإمام الحسين (ع) إلى ولوج كنه الذات البشرية وطبيعتها وسعى سعياً جاداً لنشر الفضائل الاجتماعية، إذ كان "داعياً حثيثاً لضرورة التغيير الاجتماعي نحو الأفضل"⁽⁶⁾، فهو "امتنياز اجتماعي كبير"⁽⁷⁾.

من هنا، تضمن أدب الإمام الحسين (ع) دلالات اجتماعية؛ أهمها:

أولاً:- قضاء حوائج الناس: شدد الدين الإسلامي على مد يد العون للفرد الاجتماعي الذي تصيبه فاقة أو تعتوره شدة، فقد جاءت نصوص دينية كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ منها قوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾⁽⁸⁾، ومنها أيضاً ما ورد عن الرسول المصطفى (ص): ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى))⁽⁹⁾.

(1) دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائق (رسالة ماجستير)، أحمد عبد الرزاق: 64.

(2) الحاققة/30-34.

(3) صحيح البخاري: 28 (كتاب الإيمان).

(4) نظرية الأدب: 119.

(5) أسطورة الأدب الرفيع: 53.

(6) الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري: 399.

(7) الملحمة الحسينية: 132/1.

(8) الإنسان: 28.

(9) صحيح مسلم: 1001 (باب تراحم المؤمنين)، وقال (ص): ((من خرج في حاجة مؤمن فالله ضامن له الجنة)). مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام- معجم مفهرس للحكم النبوية، القاضي ناصح الدين الأمدي: 81، وجاء عن الإمام جعفر الصادق (ع): "ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله: عليّ ثوابك ولا أرض لك بدون الجنة".

ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: منتخبان مختاراً.

وإذا كان "أكثر الاتجاهات شيوعاً في موضوع العلاقة بين الأدب والمجتمع دراسة الأعمال الأدبية كوثائق اجتماعية، على افتراض أنها صور للحقيقة الاجتماعية الواقعية"⁽¹⁾، فإن أدب الإمام الحسين (ع) تمكن أن يكشف عن عنايته بحاجات الناس وإغاثة الملهوفين، وحرصه على الاستجابة لهم. وقد تجلت تلك المعاني من خلال خطبه (ع)، إذ كانت أكثر الأنواع الأدبية بروزاً، تعقبها الأحاديث الفنية والأدعية ثم الرسائل.

الخطبة وقضاء حوائج الناس: من بديع خطبه (ع) التي دعت إلى قضاء حوائج الناس، ما ورد عنه: "يا أيها الناس نافسوا في المكارم وسارعوا في المغامر ولا تحتسبوا بمعروف لم تعجلوه، واكسبوا الحمد بالنجح ولا تكتسبوا بالمطل ذمماً، فمهما يكن لأحد عند أحد صنعة له رأي أنه لا يقوم بشكرها فإله له بمكافأته فإنه أجزل عطاء وأعظم أجراً. واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم فلا تملوا النعم فتحور نقماً"⁽²⁾.

تفصح مقدمة الخطبة عن صورة للحضّ الشديد على عمل الخير والاجتهاد في طلبه وعلى وفق سياق اجتماعي ديني، حتى لكان المتلقي يتخيل حال المسلمين وهم في زحام وتدافع تجاه عمل البرّ والفضيلة.

وهذه الصورة هي ما تنبئ عنها أفعال الأمر: (نافسوا، وسارعوا، واكسبوا) التي تبعث على التحميس والتثويب وإثارة المشاعر واجتذاب النفوس إلى الاستجابة⁽³⁾، وهذا الانفعال مرده إلى خصوصية الموضوع، فـ"اختلاف الموضوع يستتبع اختلافاً في منهج الخطبة من حيث حرارة الجمل وانفعالها، أو هدوؤها ولينها حسبما توحى بتلك طبيعة الموضوع"⁽⁴⁾.

وهكذا بدا العنصر العاطفي واضحاً في انسياقه من أول وهلة، سعياً منه (ع) لمنح النص سلطة ضاغطة على المتلقي وكشف الأبعاد الاجتماعية لفعل الخير الذي يشكل هيمنة واضحة على مرجعية التفكير الإسلامي.

ومثلما دعت الأفعال السابقة في النص إلى فعل الخير، نهت أفعال أخرى عن خلاف ذلك، إذ انمازت تلك الأفعال: (لا تحتسبوا، لا تكتسبوا) بإيقاع صوتي متجانس، يختلف عن الإيقاع الصوتي المتجانس لأفعال الأمر المتقدمة، وقد قيل: "تغير النغمة قد يتبعه تغير في الدلالة"⁽⁵⁾.

ثم نلاحظ بعد ذلك أن النص بدأ يتنامى عضوياً من خلال مد أو اصر بين المعاني المتقدمة وإحدى مقارباتها ذات الدلالة الاجتماعية، التي تخلص إلى عدم اعتماد معيار المكافأة الدنيوية في بذل الخير بل انتظار مكافأته سبحانه؛ لأنه (أجزل عطاء وأعظم أجراً)، ولهذا فإن "عمل المعروف المطالب به ليس مجرد عمل خير بل عدم توقع الجزاء الاجتماعي عليه وهذا هو أرفع مستويات المنافسة والمسارة"⁽⁶⁾.

(1) نظرية الأدب: 131.

(2) كشف الغمة: 221/2-222، وينظر: المجالس السنية: 36/1، ولواعج الأشجان: 17.

(3) ينظر: الأدب في عصر النبوة والراشدين: 108، والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 127.

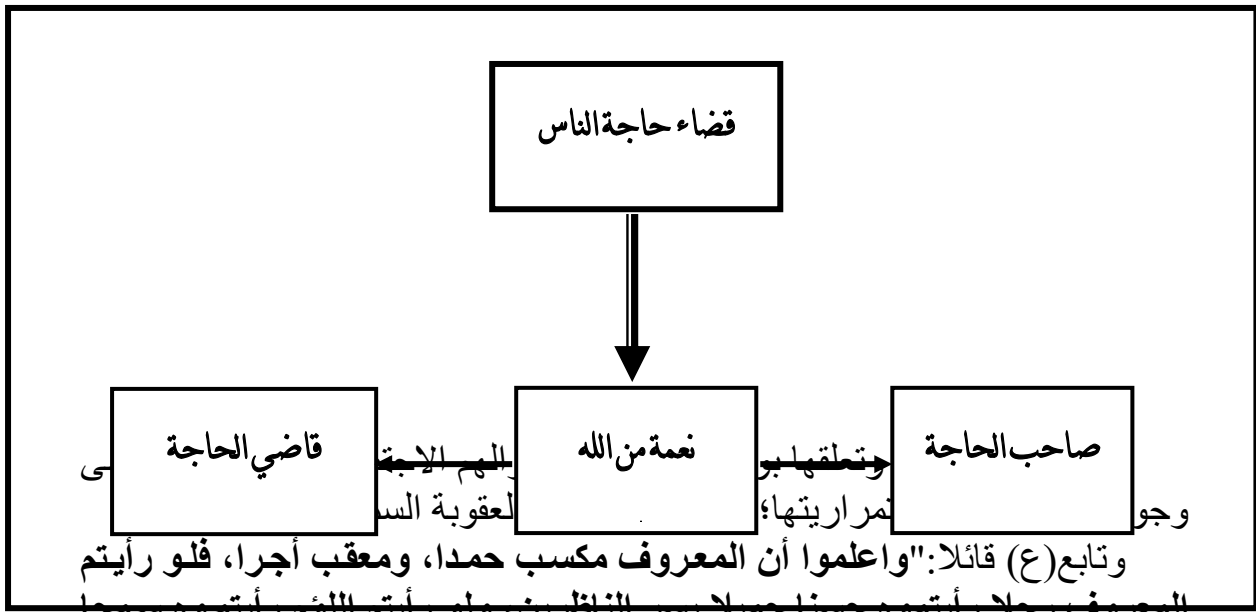
(4) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه: 127.

(5) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس: 47.

(6) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 310.

وبعدها يستمر التنامي العضوي للنص حتى يدخل صميم الفكرة الرئيسة (واعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عليكم)، فقضاء حوائج الناس تمثل تحديا لاتجاه قراءة النص ورسم مسار المعنى الذي لا يستجيب للاتجاه الأحادي لمسير النعمة، المعلوم نحو المحتاج فحسب، بل شدد على أهمية الاتجاه المسكوت عنه غالبا؛ وهو الاتجاه المعاكس لمسير النعمة، الأول الذي يتجه صوب قاضي الحاجة.

وبهذا استطاع النص أن يحيط نفسه بمؤشرات مضيئة تدفع المتلقي إلى استدعاء الخطاب الغائب سريعا والخروج من ربة التصور المعلوم عند عامة المجتمع، ويمكن تعميق الدلالة المتقدمة، بالمخطط الآتي:



يشكل هذا المقطع من النص نموا عضويا يحوم حول الفكرة الرئيسة في الخطبة لعرضها على وفق سياق اجتماعي، إذ "إن التجاوب النفسي بين الخطيب والمستمعين شرط أساس في التأثير بكلامه" (2).

وإذ مارس النص- فيما تقدم- عملية إقناع السامع من خلال جعله بين سدانة الثواب ومطرقة العقاب، فإنه جنح إلى عملية استمالة المتلقي، ولاسيما أن الاستمالة تأتي بعد الإقناع وتعمل على إيجاد باعث الاستجابة لدى المستقبل (3).

وقد تجلت تلك الاستمالة من خلال تقديم صورة فنية افتراضية للمعروف التي جسدت المعروف بهيئة رجل حسن جميل، ونقيض ذلك كان مع اللؤم فنفرت منه، وبهذا خلق النص قوة مزدوجة لدفع المتلقي نحو تسيير الخير ومحبة.

(1) كشف الغمة: 221/2-222.

(2) المنطق: 362.

(3) ينظر: التوجيه الأدبي: 43.

ويستمر النص بالنمو الدائري ليشكل تكثيفا ضوئيا تحلق حول مركزه، إذ قدم صور مباشرة متتابعة عن الجود والبخل والعفو والتواصل تختزن في مضمونها معاني الإيثار ونبذ الذات، إذ جاء في الخطبة: "أيها الناس من جاد ساد ومن بخل رذل، وإن أجود الناس من أعطى من لا يرجو، وإن أعفى الناس من عفا قدرة، وإن أوصل الناس من وصل من قطعه"⁽¹⁾.

ويتحف النص المعنى السابق بصورة فنية استدلالية: "والأصول على مغارسها تسمو"⁽²⁾، وتهدف هذه الصورة إلى تأطير العلاقة بين قضاء حوائج الناس وعدم توقع الجزاء أو التقدير من الآخرين، وذلك لأن "كمال النفس الإنسانية إنما يحصل بتوجهها إلى الله تعالى"⁽³⁾.

ثم يواصل النص بتفصيل معطيات قضاء الحوائج واستحقاقاتها الدنيوية والآخروية: "فَمَنْ تَعَجَّلَ لِأَخِيهِ خَيْرًا وَجَدَهُ إِذْ قَدِمَ عَلَيْهِ غَدًا وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالصَّنِيعَةِ إِلَى أَخِيهِ كَافَأَهُ بِهَا فِي وَقْتِ حَاجَتِهِ، وَصَرَفَ عَنْهُ بِلَاءَ الدُّنْيَا مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ، وَمَنْ نَفَسَ كَرْبَةً مُؤْمِنٌ فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ كَرْبَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ" (وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)"⁽⁴⁾.

وهكذا ختم (ع) خطبته بهذه المقاطع التي توجت بمفهوم قرآني عن المحسنين. ومن اللافت أن اعتماد فقرات النص على أكثر من سياق داخلي في تشكيل بنيته المحكمة وما يتبعها من اختزال أو رسم لتفصيلات الحدث، إنما ينطوي على أسرار فنية ونفسية تظل على صلة بطبيعة الأفكار الاجتماعية التي يروم النص عرضها أمام المتلقي، كما سعى النص إلى جعل المتلقي أمام إمكانات متعددة ليكتشف بنفسه ما يكمن خلف الأحداث من دلالة ومعنى.

ويرصد المتنوع بشكل موسع تجليات دلالة أن يكون قضاء الحاجة خالصا لوجه الله تعالى، لتشمل أغلب نصوص الإمام (ع) الاجتماعية التي تحرص على عدم عنونة عمل الخير أو حصر فاعليته في أطر ضيقة، بل يراد له أن يُحَلِّقَ في مدارات اجتماعية فسيحة.

((الحديث الفني وقضاء حوائج الناس: لعل ظاهرة تحجيم فعل البرّ وعنوانته هي من الأدواء الاجتماعية المتفشية منذ القدم، التي دعا الإمام (ع) إلى معالجتها وتقويمها؛ فمن دلالة تلك المعاني، ما ورد عنه في أحد أحاديثه الفنية، إذ قال رجل عنده: "إن المعروف إذا أسدي إلى غير أهله ضاع. فقال الحسين (ع): "ليس كذلك، ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر، فتصيب البرّ والفاجر"⁽⁵⁾، فكما أن غزارة الأمطار تعم الأخضر واليابس، كذلك ينبغي للمعروف أن يشمل الجميع من غير أن يستقطب البرّ دون الفاجر.

(1) كشف الغمة: 2/222.

(2) م. ن: 2/222.

(3) التكمال في الإسلام، د. أحمد أمين: 1/86.

(4) كشف الغمة: 2/222. والنص القرآني في: آل عمران/134.

(5) تحف العقول: 174، وينظر: بحار الأنوار: 117/78، وأعيان الشيعة: 1/620.

وهكذا يشع النص بدلالات إنسانية رحبة، فمثلما سعت تلك الدلالات لعضد الخير والصبر في نفس المسلم قليل المؤونة، كذلك اجتهدت لتحول دون تعميق الشر في ذات المنحرف البائس لتدفع به نحو الصواب.

ولا ريب في أن الإمام(ع) إنما ينطلق بهذه المفاهيم والرؤى من تعاليم الإسلام السمحاء⁽¹⁾، فالدين الإسلامي "دين يهتم بشؤون الفرد والمجتمع وإيجاد حياة سعيدة للجميع إلى حد بعيد، حتى جعل ذلك من صلب الدين وواقعه، وعُدَّ ذلك من أفضل العبادات"⁽²⁾.

وقد حقق الجانب النفسي أو الروحي حضوراً طيباً في عدد من نصوصه (ع) الاجتماعية الآخر، التي تعنى بتلبية حوائج الناس، وإلى ذلك أشار في حديثه: "صاحب الحاجة إن لم يكرم وجهه عن سؤالك فأكرم وجهك عن رده"⁽³⁾.

ولا يخفى في أن لحظة شروع السائل (صاحب الحاجة بصورة حقيقية) بطلبه إلى المسؤول تحدث جوا فيه جانب من التوتر النفسي الضاغط على الطرفين، فالسائل يعاني مرارة السؤال وحرارته، والآخر تتصارع بين جنبيه: شعوره بما يكابده السائل في مسألته، ونزوعه الفطري في التمسك بما لديه. وما أن ينتصر العامل المعنوي على نظيره المادي حتى تتسرب الشحنات الوجدانية من ذلك الجو الضاغط، فيتكشف، ليصنع ذلك العطاء صنع الغيث في التربة الكريمة، بدلاً من أن يترك آثاراً نفسية سلبية فيما لو هيمن العامل المادي على ذلك الموقف.

تبين مما مر أن أثر السياق النفسي للنص كان فاعلاً في ترسيخ ظاهرة تلبية حوائج الناس لدى المتلقي، استناداً إلى أن "الدين الإسلامي يوصي بالتوازن بين جانبي الحياة المادي والروحي تحقيقاً للتوافق النفسي وتكامل الشخصية"⁽⁴⁾.

ويلتفت (ع) في نص آخر إلى علاقة سببية في عملية قضاء الحوائج قلماً يلتفت إليها الآخرون، إذ يقول في حديثه مع معاوية بن أبي سفيان: "مَنْ قَبْلَ عَطَاءِكَ فَقَدْ أَعَانَكَ عَلَى الْكُرْمِ"⁽⁵⁾. فبدلاً من أن ينفرد العون باتجاه صاحب الحاجة وحده – كما هو متداول – فإن النص يكشف عن اتجاه خبيء للعون يتجه نحو قاضيه، الذي لا يتمكن من إتمام عملية العطاء من دون قبول الآخر، كما يشدد النص على أهمية عدم رد العطاء السليم، وقبوله إسهماً في تدعيم سبيل المعروف.

ويبدو أن النص استطاع كسر أحد المسلمات المعرفية الاجتماعية، بمعنى كسر أفق الانتظار للمتلقي (معاوية) وتوسيع دائرة القراءة للعطاء، وفي الوقت الذي يبرز فيه النص قدرة الإمام(ع) على اقتناص المواقف الاجتماعية وتحميلها طاقات جديدة ذات خصوبة وعمق، فإنه يبرز أيضاً سعيه إلى إيجاد موازنة اجتماعية تحول دون تضخم أحد طرفي معادلة العطاء على حساب الآخر (صاحب الحاجة)، وربما لم تخل

(1) عن رسول الله(ص) قال: ((اصطنع الخير إلى مَنْ هو أهله وإلى مَنْ هو من غير أهله، فإن لم تصب مَنْ هو أهله فأت أهله)). عيون أخبار الرضا(ع): 38/2.

(2) التكامل في الإسلام: 88/1.

(3) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 83، وينظر: بحار الأنوار: 357/71، وكلمة الإمام الحسين(ع)، حسن الشيرازي: 127.

(4) علم النفس الديني: 343.

(5) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 83، وينظر: بحار الأنوار: 357/71، وكلمة الإمام الحسين(ع): 127.

تلك المحاولة من مسحة سياسية يوحي بها السياق الاجتماعي السياسي المقتضب الذي ورد فيه النص.

((الدعاء وقضاء حوائج الناس: هناك حاجات ليس إلى سبيلها انقضاء، ومنها استمطار السماء، والمطر نبض الحياة وبخاصة في العصور المتقدمة، والله تعالى لم يجعل للإنسان عليه من سبيل عند احتباسه سوى أفراد قلائل انمازوا بدرجات سامية عنده جلّ وعلا، ومن أبرزهم الحسين(ع) بوصفه إماماً، والإمام "يجب أن يكون أفضل أهل زمانه" (1)، فقد لبي(ع) طلب المسلمين في الاستسقاء، فلبى الله تعالى دعاءه الذي جاء فيه: "اللهم أسقنا سقياً واسعة وادعة عامة، نافعة غير ضارة تعم بها حاضرننا وبادينا وتزيد بها رزقنا وشكرنا. اللهم اجعله رزق إيمان وعطاء إيمان، إن عطاءك لم يكن محظوراً. اللهم أنزل علينا في أرضنا سكناها، وأنبت فيها زينتها ومرعاها" (2).

تميز هذا الدعاء بشموليته وسعته، إذ ورد فيه: (واسعة، عامة، حاضرننا وبادينا) زيادة على دقته وتشديده في كلماته: (وادعة، نافعة، غير ضارة)؛ وذلك لأن "المطر ربما جاء في غير إبان الزراعات، وربما جاء والتمر في الجُرن، والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة" (3). وقد نبّه(ع) في نهاية النص إلى أن استجابة الله تعالى لحوائج المسلمين تتطلب شكراً وأفضل الشكر الإيمان به جلّ وعلا.

((الرسالة وقضاء حوائج الناس: كان الشعراء ممن لُيِّت حوائجهم عند الإمام(ع) فقد كتب إلى أخيه الإمام الحسن(ع) يجيبه في موضوع إعطاء الشعراء: "أنت أعلم مني بأن خير المال ما وقى العرض" (4).

يشع هذا النص بإشارات صارمة إلى الواقع المعيش، فالنص يذكر ذلك في سياق إمضاء حقيقة اجتماعية قائمة، وهي أن رجوع العصبية القبلية إلى عهدا الجاهلي أو أشد، قد عمل على تفشي الهجاء عند الشعراء إذ أمدّ بنو أمية ذلك اللهب بالوقود وزادوه اشتعالاً مما تأصل في نفوس العرب حب الفخر والمباهاة (5).

ولعلّ الدلالات المتقدمة تتساق مع ما ذكره(ع) في موضع آخر عندما أجزل في عطاء شاعر مدحه، فليّم على ذلك، فأجاب: "أتراني خفت أن يقول: لست ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ولا ابن علي بن أبي طالب! ولكني خفت أن يقول: لست كرسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ولا كعلي(رضي الله عنه)، فيُصدّق، ويُحمل عنه، ويبقى مخلداً في الكتب، محفوظاً على السنة الرواة" (6). وهذا النص إنما يمثل استشرافاً دقيقاً للمستقبل ووصفاً موضوعياً لواقع الحال.

(1) العقائد الإسلامية، محمد الحسيني الشيرازي: 175.

(2) عيون الأخبار: 303/2، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 49-50.

(3) البيان والتبيين: 228/1، و(الجُرن): موضع التمر الذي يجفف فيه. لسان العرب: مادة(ج ر ن).

(4) كشف الغمة: 223/1، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين: 105، وبلاغة الإمام الحسين بن علي(ع): 58/1.

(5) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، طه أحمد إبراهيم: 38.

(6) زهر الآداب: 98/1، وينظر: العمدة، ابن رشيق: 172/2.

وتأسيسا على ما سبق، فإن المراد بـ(العرض) في رسالته(ع) الجوابية المتقدمة "ليس هو(الناموس) إذ ليس بين المسلمين من يخال أن ينال من عرض أهل بيت الرسالة، بل المراد به(العرض السياسي) الذي استهدفه من(آل محمد) الأمويون"(1)، فكانت مبادرته(ع) قطعاً معنوياً لألسنة الشعراء والمستغلين لهذا المنبر الشعبي الفاعل، وتقليلاً من فرص استغلالهم ووقوفهم على أبواب الحكام(2).

وتحسن الإشارة إلى أن رسالته(ع) تلك، أنتجت مفاهيم عدّة؛ منها: رغبة الإمام الحسن(ع) بإبراز مكانة أخيه الحسين(ع)، وبيان العلاقة الراقية بينهما، وهذا يتجلى من خلال رصد عبارة: (أنت أعلم مني...)، فإن لذلك "حظاً من اللطف تاماً ونصيبياً من الإحسان وافراً والله أعلم حيث يجعل رسالاته"(3)، زيادة على قدرة الإمام(ع) على ملازمة الواقع من خلال تقويمه لخطورة جانب الدعاية، الذي يمثله الشاعر وأثره في تفكير المجتمع ورؤيتهم، ولاسيما أن الشاعر آنذاك كان يشكل أخطر منظومة إعلامية متحركة.

ومسألة عودة الهجاء إلى أغراض الشعراء، وتفشيهِ، إنما تمثل إشارة واضحة إلى تصدع اجتماعي مبكر لثقافة المجتمع المسلم الفتية؛ ذلك المجتمع الذي لم ينقطع عهده بالرسول إلا عقوداً قليلة، وما تستبطنه هذه المسألة من أدواء اجتماعية كثيرة استتبعَت غياب العدل الاجتماعي وهجر القيم الخلقية في المجتمع؛ الأمر الذي تقدم أسباب اغتراب الإمام الحسين(ع).

ثانياً:- الاغتراب في أدب الإمام الحسين(ع): وردت في القرآن الكريم إشارة إلى أحد ملامح الاغتراب وشدة وطأته على ذات الإنسان، إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (4)، وزيادة على تأكيد المعنى المتقدم، انصب اهتمام عدد من أحاديث المصطفى(ص) على إبراز مفاهيم أخر للاغتراب؛ من ذلك مفهوم الوحدةانية، أو قلة عدد المسلمين المخلصين للدين، إذ ورد عنه(ص) في هذا الصدد: ((بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ غريباً، فطوبى للغرباء)) (5)، فالإسلام "كان في أول أمره كالغريب الوحيد الذي لا أهل له عنده؛ لقلة المسلمين يومئذ وسيعود غريباً كما كان أي يقل المسلمون في آخر الزمان فيصيرون كالغرباء، فطوبى للغرباء، أي الجنة لأولئك المسلمين" (6)، وإنما خصهم تعالى بنعمة الجنة، لصبرهم على أذى أعداء الدين الإسلامي وحفاظهم عليه(7). ولا غرو، فالمؤمن السائر إلى الله غريب بين أولئك الذين اتبعوا نزواتهم وأهواءهم، فهو غريب؛ لفساد دينهم، غريب في تمسكه بالسنة؛ لتمسكهم بالبدع،

(1) الحسين(ع) سماته وسيرته، محمد رضا الجالي: 95.

(2) م. ن: 95.

(3) كشف الغمة: 223/1.

(4) النساء/من 66، وينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: 108/3 - 109.

(5) صحيح مسلم، كتاب الإيمان: 72.

(6) لسان العرب: مادة (غ ر ب).

(7) ينظر: لسان العرب: مادة (غ ر ب).

غريب في اعتقاده؛ لفساد اعتقادهم، غريب في صلاته؛ لسوء صلاتهم، غريب في طريقه؛ لضلالة طرقهم وفسادها⁽¹⁾.

و"كان ما تنبأ به الرسول(ص) أن يكون، إذ لم ينقض زمن طويل حتى عاد الإسلام مغتربا من جديد، وأول مظاهر الشعور بالاغتراب ظهرت نتيجة الحزن على أهل البيت"⁽²⁾، وعلى أساس من الحزن كان "حزن الاغتراب على مصائيرهم ومصائر محبيهم"⁽³⁾، ولذلك يجيء اغتراب الإمام الحسين(ع) نتيجة متوقعة للأحداث التي حصلت في صدر الإسلام والعصر الأموي.

وقبل أن ننطلق في إبراز تجليات الاغتراب الاجتماعي عنده(ع)، يحسن بنا أن نشير إلى مفهوم الاغتراب الاجتماعي بالمعنى الإسلامي- فهناك عدة أنواع من الاغتراب تسمى بمسمياتها منها: الاغتراب العاطفي، والاغتراب الاقتصادي، والاغتراب الفكري، وغيرها مما يقع خارج دائرة البحث⁽⁴⁾- فعلى الرغم من أن مصطلح الاغتراب عموما يكاد يكون غامضا لا تحده قوانين صريحة⁽⁵⁾، يمكن الاعتماد على ما تقدم في الاقتراب من مفهوم الاغتراب في ضوء المنهج الإسلامي، والتعامل معه على أنه: "اغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، واغتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل، فالغرباء قاوموا الحياة ومغرياتها بطريقة إيجابية(سلبية) فقهروا السلطتين سلطة الحكام وسلطة النفس"⁽⁶⁾.

وإذا ما اعتمد المتتبع الدقة والموضوعية في عرضه لمفهوم الاغتراب السابق، على نصوص الإمام الحسين(ع) فسيلمس بوضوح أنه جاهد النظام الاجتماعي غير العادل بطريقة إيجابية تضحوية. بمعنى آخر، إن اغترابه كان اغترابا إيجابيا، والاغتراب الايجابي يحصل "حين يسلم الإنسان ذاته إلى المجتمع ويضحى بها في سبيل الوصول إلى هدف نبيل يخدم الآخرين وهو اغتراب ضروري"⁽⁷⁾.

ولما كان الاغتراب يشكل ظاهرة يمكن رصدها ودراستها في أنماط الحياة جميعها⁽⁸⁾ فإنه لا بد له أن ينفذ إلى الأدب؛ لأن "الأدب ظل المجتمع"⁽⁹⁾، فهو يعبر عن الذات الإنسانية التي تعيش مع الجماعة واقعها الاجتماعي⁽¹⁰⁾؛ ولذلك حقق الاغتراب أثرا فاعلا في الأدب، كما هو أثره في أدب الإمام الحسين(ع)، إذ حازت خطبه المساحة الأوسع في الكشف عن اغترابه، تعقبها الرسائل، فالأحاديث الفنية ثم الأدعية.

(1) ينظر: مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين ، ابن قيم الجوزية: 199-200، والاغتراب في تراث صوفية الإسلام، د. عبد القادر موسى المحمدي: 58.

(2) الاغتراب في تراث صوفية الإسلام: 59.

(3) الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود: 151.

(5) للتوسع، ينظر: مدارج السالكين: 201 على سبيل المثال، والاغتراب في الشعر العراقي، محمد راضي جعفر: 50، والغربة والحنين في شعر السياب، د. صالح علي حسين الجميلي: 258.

(5) ينظر: الاغتراب الاجتماعي في شعر صدر الإسلام(رسالة ماجستير)، حسن صالح سلطان: 9.

(6) الاغتراب في الإسلام، فتح الله خليف: 88.

(7) الاغتراب في شعر أحمد الصافي النجفي، وفاء عبد الأمير هادي الصافي: 6.

(8) ينظر: الاغتراب، د. أحمد العدوانى: 5، والاغتراب في شعر أحمد الصافي: 12.

(9) النقد الأدبي، أحمد أمين: 276.

(10) ينظر: دراسات في النقد الأدبي: 5/2.

مقدمة = الخطبة واغتراب الإمام الحسين (ع): من خطبه في هذا المنحى، خطبته التي خطبها عند قبر أخيه الإمام الحسن (ع)، الذي استشهد مسموماً⁽¹⁾، جاء فيها: "رحمك الله أبا محمد! إن كنت لتباصر الحق مظانه، وتؤثر الله عند مداحض الباطل في مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معازم الدنيا بعين لها حاقرة وتقبض عليها يدا ظاهرة الأطراف نقية الأسرّة بأيسر المؤونة عليك"⁽²⁾، ثم واصل كلامه (ع) بقوله: "ولا غرو وأنت ابن سلاله النبوة ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة ونعيم، أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الأسى عنه"⁽³⁾.

من البين أن هذا النص التأبيني جسد نمطا واقعيا ينسجم وواقع الإمام الحسن (ع)، إذ ذكر جانباً من مناقبه وسجاياه وصبره العظيم على مفاتن الدنيا وغرورها، وحلمه الواسع عن مكر أعدائه، وهو مع ذلك كله في سلامة من دينه، وقد نهضت بتلك المعاني المتقدمة، عبارات النص المشرقة التي انمازت بتواشجها وتطعيمها بصور ذات إثارة فنية نحو (مداحض الباطل، نقية الأسرّة، ورضيع لبان الحكمة)، ولعل تلك السمات الفنية التي طبعت النص عوضته عن فقدانه للعنصر الإيقاعي، وكشفت- باستشهاد الإمام الحسن (ع) عن نقصان عدد الأفراد الذين يبعدون بوجودهم جزءاً مهماً من شبح الاغتراب. ومن هنا فلا شك في أن فقدان الإمام الحسين (ع) لآخر أحبته من أهل الكساء (ع) وبقائه وحيداً في التصدي لتلك الأوضاع الاجتماعية العصبية، سيضاعف من وقع المصيبة ويدفعه لاستحضار ألم فراق أهله الراحلين عنه، فيتسرب إلى نفسه الشعور بالاغتراب.

ولا غرو، فتلك حقيقة أمضاها والده الإمام علي (ع) حين قال: "فقد الأحبة غربة"⁽⁴⁾، زيادة على اشتغال النص على عبارات التوديع مشفوعة بألفاظ ذات دلالات اغترابية: (السلوة، والأسى)، ساعدت في توصيل الشعور بالاغتراب⁽⁵⁾. ولم تُنسب مصيبتة بأخيه (ع) من أن يلتفت إلى الحاضرين في آخر خطبته ليشركهم في دعواته: (أعظم الله لنا ولكم الأجر عليه...) عرفانا لموقفهم وتنمية للحس الجمعي في المجتمع.

والأوضاع الاجتماعية المتردية التي تصدى لها بعد رحيل أخيه (ع)، كانت جمة؛ تطرق (ع) إلى جانب منها في إحدى خطبه، يصف فيها حال الناس، فهم: "بين مُستعبد مقهور وبين مُستضعف على معيشتهم مغلوب، يتقلبون في الملك بآرائهم ويستشعرون الخزي بأهوائهم اقتداء بالأشرار وجرأة على الجبار"⁽⁶⁾. وأما السلطة الحاكمة، ورموزها، فهم "بين جبار عنيد وذئ سطة على الضعفة شديد،

(1) ينظر: تاريخ اليعقوبي: 156-157، والكامل في التاريخ: 402/3.

(2) عيون الأخبار: 338/2، وينظر: جمهرة خطب العرب: 139/2، وأدب الحسين وحماسه: 30-31. و(مداحض) من الدَّحْض وهو الزلق أو المزلة، ينظر: كتاب العين: مادة (د ح ض)، و(الأسرّة): جمع سرار، وتعني خطوط باطن الكف، ينظر: لسان العرب: مادة (س ر ر). و(تقبض) في الأصل (تقيض).

(3) عيون الأخبار: 338/2-339.

(4) نهج البلاغة، شرح محمد عبده: 449.

(5) للتوسع في معرفة ألفاظ الاغتراب ودلالاتها، ينظر: الاغتراب في الشعر العراقي: 71.

(6) تحف العقول: 170، وينظر: بحار الأنوار: 69/100.

مطاع لا يعرف المبدئ المعيد⁽¹⁾. وبهذا قسّم (ع) المجتمع إلى طبقتين: الأولى مستعبدة؛ وهم السواد الأعظم، والأخرى متجبرة؛ وهم الملوك وأعوانهم. ويبدو أنه ليس هناك طبقات أخر – أو تكاد- مستقلة بسماتها ونهجها من شأنها أن تشكل ظاهرة صحية في المجتمع؛ ولذلك يستغرب الإمام (ع) من حال مجتمعه، إذ تابع خطبته، متعجبا لذلك: **"فيا عجباً وما لي لا أعجب والأرض من غاش غشوم ومتصرف ظلوم وعامل على المؤمنين بهم غير رحيم"**⁽²⁾.

وهذا التعجب يشير إلى اغتراب معمق عن البنية الاجتماعية السائدة التي ارتضت واستسلمت لأن يكون سلب حقوق الفرد ومصادرة رأيه وإهدار حرّيته، ثقافة لها، و"انتهاك الإنسان لحرية نفسه وحقوقه أشد خطورة عليه من انتهاك الآخرين لحقوقه"⁽³⁾.

وأحسب أن لتسويغ الإمام (ع) لنفسه الحق في أن يعجب (ما لي لا أعجب)، أثره العميق في تزويد المتلقي بصورة تعكس واقع المجتمع السوداوي آنذاك، وبعده السحيق عن النظرة الاجتماعية المثالية للإسلام.

والتعارض بين الفرد والمجتمع لا يتعمق إلا عندما يبلغ الحال شكله الأدنى⁽⁴⁾، وهذا التعارض قد شكل أثراً في اغترابه (ع)⁽⁵⁾.

الرسالة واغتراب الإمام الحسين (ع): لا شك في أن تمكن القيم الجاهلية وأعرافها الاجتماعية من نفوس النظام السياسي الأموي، يرسخ الاعتقاد بأن المبادئ الإسلامية الجديدة ونظمها لما تدلف بعداً إلى أغوار الضمير وعمق القناعات بالفكر الإسلامي. ومن شواهد ذلك، رسالة الإمام (ع) الجوابية لمعاوية بن أبي سفيان الذي بعث برسالة إلى الحسين (ع) يلومه على تزوجه من جاريته، فكتب (ع): **"أما بعد، فقد بلغني كتابك، وتعييرك إياي بأنّي تزوجت مولاتي وتركت أكفائي من قریش، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف، ولا غاية في نسب؛ وإنما كانت ملك يميني، خرجت عن يدي بأمر التمسث ثواب الله تعالى، ثم ارتجعتها على سنة نبيه (صلى الله عليه وسلم)، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة، ووضع عنا به النقيصة، فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر مآثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية"**⁽⁶⁾.

ولا يخفى أن الواقع السياسي الذي عاصره الإمام (ع) قد ألقى بظلاله على الواقع الاجتماعي، وهذا ما تكشف عنه رسالة معاوية التي أنشئت بفعل أسباب اجتماعية تزاوجت بأخرى سياسية مضمرة، ولهذا فقد اكتسبت مثل هذه النصوص أهمية وحيوية في أدب الإمام (ع). وقد استطاع وبانسبابية أن ينسب فعله في التزويج إلى السنة النبوية الشريفة، وزاد فعله شرفاً حين قرنه بطلب الثواب؛ وهذا وحده يكفي لإفحام الخصم.

(1) تحف العقول: 170.

(2) م.ن: 170.

(3) حقوق الإنسان عند الإمام الحسين (ع) (مقال)، جريدة الأحرار، ع 86: 4.

(4) ينظر: البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان غولدمان وآخرون، راجع الترجمة: محمد سبيلا: 20.

(5) عن أثر التفاوت بين الواقع المعيش والنظرة المثالية في اغتراب الأديب، ينظر: الأدب العربي في كربلاء، د. عبود جودي الحلبي: 211-212.

(6) زهر الآداب: 101/1، وينظر: جمهرة رسائل العرب: 22/2.

ولعل الإحساس الذي تملك السلطة الأموية بعدم مشروعية سلطانهم، دفعهم بوعي أو بغير وعي إلى الاهتمام باقتناص مواقف اجتماعية يرونها بحسب قيمهم أنها سلبية؛ طمعا بإحراز موقف أو تغطية لمفارقات معينة، أو سعيا لتحقيق اختراق في مساحة الإمام(ع) الشخصية؛ إضعافا لرصيده الاجتماعي.

وبناء على ما تقدم نلاحظ أن الإمام(ع) ينطلق إلى معالجة الظاهرة الاجتماعية من واقع النص الديني- وهذه أحد ملامح الاغتراب الإيجابي لديه- بخلاف النظام السياسي الذي ينطلق من أعرافه الاجتماعية إلى النص الديني الذي يُشكل عندهم مرجعا تابعا لمرجعيات ثقافية أخرى، وليس مرجعا رئيسا متبوعا في الأحوال كلها، كما هي ثقافة أهل البيت(ع).

وصفوة القول: إن نصّه(ع) المتقدم هو تجسيد لمفهوم الإسلام الذي يمثل قفزة خارج المفاهيم السائدة، التي يبدو أنها ما زالت تكتفّ الأفكار الإسلامية وتمارس حيالها سلطة عرفية، فـ"الروح القبلية كانت هي السائدة في العصر الأموي، وهي التي أعطت حكم بني أمية طابعا قبليا سافرا"(1).

وهكذا فقد كانت للأوضاع السياسية التي أحاطت بالإمام(ع)، بصمة جليلة في اغترابه؛ فالاغتراب في أحد جوانبه، ينشأ "نتيجة لمعاناة الإنسان مشكلات عصره وأزماته، ووعيه واكتشافه للتناقضات التي تسود المجتمع، دون أن يكون قادرا على إصلاح الوضع المغلوط، بسبب القهر السياسي"(2)، ولذا "تحسب الغربية الاجتماعية وجهها مباشرا من وجوه الاغتراب السياسي؛ لأنها تتصل اتصالا وثيقا بالظروف السياسية وتقلبات الأحداث"(3)، وكذلك "تسهم العوامل الموضوعية والنفسية في إبراز الجوانب الاجتماعية للظاهرة السياسية، والوجوه السياسية للظاهرة الاجتماعية"(4).

وفي ضوء ما تقدم نجد أن الظاهرة الاجتماعية يمكن أن تكون متعددة الماهيات، وثورته(ع) في الواقع واحدة من الظواهر الاجتماعية متعددة الماهيات؛ ذلك أن العوامل التي أثرت في نشوئها متعددة، إلا أن العنصر الاجتماعي يبقى شديد البروز فيها(5)، فإصلاح المجتمع هو جوهر ثورته، وهو يؤكد ذلك بقوله: "إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي"(6).

وابتدأت رحلة الإصلاح حينما قرر(ع) الرحيل عن مدينة جدّه المصطفى(ص) مع أهله وأصحابه، والانفصال عن موطنه تحت جناح الظلام نحو مكة المكرمة وهو يقرأ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(7). ولا مندوحة من تقرير أن رحيله(ع) بفعل تلك الظروف السياسية التعسفية، وعلى تلك الحال، كان كفيلا بأن يحرك مشاعر الاغتراب في روحه، فـ"الارتحال

(1) الخطابة العربية في عصرها الذهبي: 134.

(2) ابن باجة وفلسفة الاغتراب، محمد إبراهيم الفيومي: 72.

(3) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز جاسم: 97.

(4) م: 97.

(5) ينظر: ثورة الحسين وظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية: 173.

(6) مقتل الحسين، الخوارزمي: 273/1.

(7) ينظر: تاريخ الطبري: 343/5، والإرشاد: 294. والنص القرآني في: القصص/22.

بعث بها إلى أخيه محمد بن الحنفية: "أما بعد، فكأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تنزل والسلام"(1).

الحديث الفني واغتراب الإمام الحسين(ع): مما لا ضبابية فيه أن السلطة الأموية مارست حيال الإمام(ع) أشد أنواع الخنق الاجتماعي والنفسي، وقد تجلّى هذا الأمر في نصوص عدّة؛ منها حديثه الفني الذي أوضح فيه لأحد محبيه، أسباب إقدامه على الثورة، جاء فيه: "يا أبا هرة إن بني أمية أخذوا مالي فصبرت وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله يا أبا هرة لتقتلني الفئة الباغية وليلبسهم الله ذلاً شاملاً وسيفا قاطعاً"(2).

ومن الواضح أن النص انماز بقوة التشخيص وإدانة النظام بدرجة عالية، فالنص يشع بشعوره(ع) بالقهر والاستلاب وكبت الحريات وغياب العدل الاجتماعي. وهذه الظواهر العدمية كلها صنعت أسباباً منتفخة كمنت خلف ثورته(ع)، وانفجرت حين طُلب منه مبايعة يزيد بن معاوية، وهي الأسباب ذاتها التي تسببت في اغترابه؛ لأن "الإنسان مغترب طالما هو مستغل"(3)، ولهذا فإن "نموذج الغريب ونموذج الثائر يعيشان معا جنب إلى جنب"(4)، ليكون الاستغلال قاسماً مشتركاً بينهما.

وأما طلب دم الإمام(ع) وقتله، فلا شك في أنها محاولة سلطوية لحجب فاعليته(ع) بوصفه مرجعية دينية اجتماعية من خلال عملية(شخصنة) الفكر، التي هي نزعة طاغوتية بدائية، فالجسد معادل موضوعي(5) للفكر في حسابات القامعين؛ ففي تصورهم أن تصفية الجسد تعني تصفية الفكر، والقتل هو البديل عن النقص الفكري.

وعموماً فإن تدرج النص في ذكر دوافع الاغتراب من سلب الأموال إلى شتم الأعراض وصولاً إلى إراقة الدماء وتأكيداً من خلال تكرار المعنى ليس إلا عملية رسم دوائر للاغتراب، شكل القتل فيها بؤرتها الاغترابية الحادة.

الدعاء واغتراب الإمام الحسين(ع): كان لتلاشي المعايير الاجتماعية الإسلامية والإنسانية عند ساسة المجتمع آنذاك، بما صير رحيل الإمام(ع) عن حرم جدّه(ص) أمراً واقعاً، أبلغ الأثر في نفسه(ع)، وهذا المعنى قد حمله عدد من أدعيته. جاء في أحدها: "اللهم إنا عترة نبيك محمد(صلواتك عليه وآله)، قد أخرجنا وأزعجنا وطرّدنا عن حرم جدّنا وتعدّت بنو أمية علينا، اللهم فخذ لنا بحقنا وانصرنا على القوم الظالمين"(6).

(1) دلائل الإمامة، الطبري: 77.

(2) الفتوح: 279/5، وينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 324/1، ومثير الأحزان: 50.

(3) مقدمة في نظرية الأدب: 54.

(4) الشعر العربي المعاصر، عز الدين إسماعيل: 399-400.

(3) المعادل الموضوعي: مصطلح أدبي صاغه: بت.س إليوت، وعرفه بقوله: "إن السبيل الوحيد للتعبير عن الوجدان في الفن هو إيجاد معادل موضوعي، أو بعبارة أخرى، إيجاد مجموعة من الأشياء، أو موقف، أو سلسلة من الأحداث، لتصبح قاعدة لهذا الوجدان بنوع خاص، حتى إذا ما اكتملت الحقائق الخارجية والتي لا بد وأن تنتهي إلى خبرة حسية، تحقق الوجدان المراد إثارتته". ينظر: الشعر العربي المعاصر، د. الطاهر أحمد مكي: 90.

(6) مقتل الحسين، الخوارزمي: 337/1، وينظر: لمعة من بلاغة الحسين(ع): ص ٢٢٢.

فإخراج الإمام(ع) وإزعاجه وطرده والتعدي عليه لهي أسباب كفيلة باغترابه؛ ولذلك فإن هذا النص ببساطة أسلوبه ومباشرة المعنى، إنما يمثل قطعة مقدودة من نفسه المعذبة، تمور بما يعتصر قلبه من آهات وهموم؛ وهذا يعني أنه "يتعامل مع العبارة بمقدار ما تحققه من فائدة توصيلية إلى الجمهور، وليس بما تفرضه المعايير الاجتماعية التي تصاحبها الحذقة إلى الجمهور والتخيل الموهوم"(1).

وقد تفتق الشعور بالاغتراب عنده(ع) يوم الطف، ولا سيما بعد استشهاد ولده عليّ الأكبر(ع)؛ إذ جاء في دعائه بهذه الفاجعة: "قتل الله قوما قتلوك يا بُني! ما أجراًهم على الرحمن، وعلى انتهاك حرمة الرسول! على الدنيا بعدك العفا"(2).

ولا يخفى أن الاغتراب- هنا- كامن في فقد أعز الأحاب والالاف، يستتبعه فقدان مذاق الحياة واشتهائها، فالمتلقي يستشعر من دعائه وبخاصة قوله: (على الدنيا بعدك العفا)، أن هناك شعوراً عاطفياً طاغياً في نفسه(ع) يجهد أن يلتمس طريق الانعتاق من العالم المحيط؛ ومثل هذا الشعور يبرز حين يبأس الإنسان من الحياة أو يبلغ عدم التكيف مع تركيبة البنية الاجتماعية درجة لا يمكن معها أن يتحقق انسجام ولو بدرجة متدنية.

ولا ريب في أن هيمنة النظام الحاكم وطغيانه كانت تتم من خلال عوامل القهر السياسي والإذعان الاجتماعي وتزييف الوعي، ومن ذلك الإجهاز على كل حركة أو ثورة ترمي إلى الخلاص من الواقع المرير الذي يفضي بطبيعة الحال إلى قلة أنصار الثورة لحساب السلطة المتجبرة، وشحة عدد الأنصار من أول عوامل الاغتراب الاجتماعي(3).

ومن هنا كان الإمام(ع) ينادي يوم كربلاء: "واغربتاه واقلّة ناصراه"(4) وفي موضع آخر في كربلاء، نادى(ع): "هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟ هل من معين يرجو ما عند الله في إعانتنا؟"(5). فمن جملة دلالات هذه النداءات، هو الشعور بالاغتراب نتيجة فقد الأنصار، و"الشعور بالفقد يستلزم أدوات النداء والاستغاثة والندبة"(6).

وهكذا عاش الإمام(ع) مغتربا واستشهد مغتربا، ليصنع من ذلك علامة استفهام كبرى لا يقوى المتلقي حين يلتمس لها الإجابة إلا الإقرار بأهمية العدل الاجتماعي واليقين بحريات الشعوب والتضحية في سبيلها.

خاتمة: في ختام الموضوع الاجتماعي نلاحظ أن الإمام حاكم عدداً من مشكلات الواقع الصعبة بظلالها الاجتماعية كافة، إذ شكلت تلك المحاكمة حفراً في الواقع الصعب. ولا شك في أن توظيف الأدب لمعالجة الواقع الاجتماعي يحفز قدراته(ع)

(1) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 133.

(2) تاريخ الطبري: 446/5، وينظر: الإرشاد: 374.

(3) ينظر: الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي: 99.

(4) أسرار الشهادة، الفاضل الدربندي: 426، وينظر: معالي السبطين: 43/2.

(5) الفتوح: 131/5، مقتل الحسين، الخوارزمي: 36/2-37.

(6) مظاهر الغربة النفسية في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي: 249.

في التواصل الجمعي لمجتمعه؛ بغية غرس القيم الاجتماعية الإسلامية التي من شأنها أن تنتج توازنا اجتماعيا ينعم المسلم من خلالها بالسعادة والأمان، زيادة على تحصين الفرد وبث المنعة في نفسه والأنفة من القبول بإهدار حريته وحقوقه.

مدخل

لا يخفى أن قضية التشكيل الجمالي تمثل عمق الأدب، وأخطر سماته التي تؤكد صدارة انتمائه إلى الفنون الجميلة، فمن خلال هذه القضية يمكن الكشف عن القدرة الفنية والإبداع التصويري والأداء التعبيري الأصيل لأدب ما.

إن ما ورثناه من حديث الباحثين القدماء عن الجمالية، الذي يكاد يكون زادنا الفكري الوحيد إلى الكشف عن أسرار الفن، لا يتجاوز مفاهيم الجمال الأدبي ولا يتخطاها إلى ما استجد من مفاهيم جمالية حديثة⁽¹⁾، حتى عدّ "النقد العربي كل حكم جمالي صدر عن عمل أدبي"⁽²⁾.

وإذا كان (الإيقاع والصورة) - بحسب المعايير الفنية الموروثة - يشكلان أبرز عناصر الفن لما يمتلكان من حساسية شعرية وإحياءات نفسية "بوصفها البديل العتيد لمقولة الذائقة الجمالية"⁽³⁾، فإن عنصر (اللفظ والبناء) - أو عنصر (التعبير) بوصفه مادة اللغة - لا يقل أهمية وبروزا عن صاحبتيه، ولا سيما أن اللغة "كينونة اجتماعية- إنسانية تولد من خلال تأصلات نصية عميقة واستشراف أساليب متباينة واكتشاف علاقات كثيرة"⁽⁴⁾، فضلا عن أن اعتماد التعبير في قضايا معينة أحيانا، ومن دون إشراك الصورة الفنية، يكون أدق في توصيل الحقائق وأبلغ في استقرار النتائج، فالمهم هو التعبير عن التجربة تعبيراً أصيلاً "حتى يكون مصدر قوتها هو ما تحتوي عليه من جمال مصدره الأصالة الفنية"⁽⁵⁾ فحسب، لا أن يكون تشكل تلك التجربة بموجب ما تقتضيه معايير اجتماعية زائفة أو تقييمات فنية متهيكلّة متهاكمة.

وإخلاص المبدع لتجربته ألفيناه - مثلما نعتقد - عند الإمام الحسين (ع) كما تبوح نصوص أدبه بذلك.

واعتمادا على ما سبق ارتأينا أن نؤسس قضية التشكيل الجمالي في الأدب الحسيني على قضيتين سيشكلان مادة مبحثي هذا الفصل؛ وهما:

أولاً: قضية التعبير.

ثانياً: قضية الشاعرية.

(1) ينظر: الجمالية عبر العصور، آتيان سوريو، تر: د. ميشال عاصي: 6 (في المقدمة).

(2) الأسس الجمالية في النقد العربي - عرض وتفسير ومقارنة، د. عز الدين إسماعيل: 146.

(3) الخطاب الشعري الحدائث والصورة الفنية، عبد الإله الصانع: 9.

(4) التحليل النقدي والجمالي للأدب، د. عناد غزوان: 11.

(5) النقد الأدبي الحديث: 307.

المبحث الأول

قضية التعبير

مدخل: يتألف التعبير الفني من لفظ أو ألفاظ يتشكل منها الخطاب الأدبي المعبر عن الأفكار بطريقة غير اعتيادية، إذ يمثل عنصر الإيحاء فيه سمة جليلة، فالتعبير الذي نتغيا معانيه- هنا- هو اللفظ المجسد لظاهرة فنية في سياق ما، وهو- أيضا- أدوات ووسائل يعتمد إليها المبدع لتحقيق أثر من آثاره⁽¹⁾.

ويستمد التعبير فاعليته من خلال البناء التركيبي الذي يشكله؛ "ولهذا يشكل النسيج النحوي للغة الشعرية جزءا كبيرا من قيمتها الداخلية"⁽²⁾، ولا يحقق هذا النسيج شاعريته إلا بمصاحبة القناة الدلالية، ف"دراسة الخطاب من وجهة تركيبية تقضي حتما إلى اكتناه دلالاته؛ لأن التركيب متى افتقد الدلالة افتقد قيمته"⁽³⁾، ومتى زاغ عن سياقه ضلت دلالاته.

والتراكيب التعبيرية التي اعتمدها الإمام(ع) في نصوصه الأدبية اتسمت بأسلوبية تنبئ عن تميز واضح - كما سنرى- تبيح لنا القول بشاعرية تلك التعبيرات، واضطلاعها الدائم بإشباع الحاجات الفنية للمتذوق، والتأثير فيه⁽⁴⁾. وبغية الكشف عن الصيغ التعبيرية التي وظفها(ع) في نصوصه، سنقف عند أهم الأساليب المكونة لها، وهي:

أ. اللغة والأسلوب: تشكل اللغة أبرز سمة إنسانية ثقافية تعبر عن تفكير البشر ومشاعره فهي "أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁽⁵⁾، ولذا تعد اللغة "الظاهرة الأولى التي ينبغي الوقوف عندها عندما نتحدث عن الأدب"⁽⁶⁾؛ لأنها الركيزة الأساس "في كل عمل فني يستخدم الكلمة أداة للتعبير"⁽⁷⁾، والكلمة "مادة الأديب"⁽⁸⁾. واللغة أداة "التواصل بين الناس والمحافظة على الروابط الاجتماعية بواسطة قناة المشافهة أو قناة المكاتبة"⁽⁹⁾. وبمعنى أوسع "هي جسر الوصل والتواصل بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأشياء، باعتبارها أداة تفصل بين طرفين، تظل قابليتها لأن تتوحد بالإنسان وبالأشياء قابلية مفتوحة على الدوام، قابلية لا يمكن لها أن تتغلق أبدا وإلا انتهت الحياة"⁽¹⁰⁾.

(1) ينظر: المعجم الأدبي: 71.

(2) قضايا الشعرية، رومان ياكبسون: 82.

(3) شعر صلاح عبد الصبور- دراسة أسلوبية(رسالة ماجستير)، أنسام محمد راشد: 109.

(4) ينظر: أثر اللسانيات في النقد الأدبي الحديث، توفيق الزبيدي: 72.

(5) الخصائص، ابن جني، تح: د. عبد الحميد هندawi: 87/1.

(6) الأدب وفنونه، محمد مندور: 20.

(7) الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين إسماعيل: 124.

(8) نظرية الأدب: 223.

(9) الأصول، د. تمام حسان: 347.

(10) سلطة النص: 81.

ولما كان الأدب في واحد من معانيه يمثل ظاهرة اجتماعية جمالية، لذا فإن العناية في الأدب ليست متوجهة نحو المضمون فحسب وإنما متجهة أيضا وبإلحاق أكبر نحو الطريقة أو الأسلوب اللغوي الذي يؤدي به ذلك المضمون إذ يراد للمفردات في الأدب أن تكون قوية التعبير لكي نستطيع الإبانة عن تجارب الباعث وتوصيلها وتفهمها للآخرين⁽¹⁾، وطريقة تشكل مفردات اللغة في التعبير عن مكنوناتها تكشف عن أسلوب الباث. وبتعبير آخر، تكشف عن "طريقة التفكير والتصوير والتعبير"⁽²⁾، لدى الباث. فالأسلوب "هو التفرد لكن شريطة أن يتضمن هذا التفرد الكثرة أي تنوع العناصر"⁽³⁾.

ولعل الكشف عن طرائق التعبير والتفكير والتنوع في توصيل الدلالة لدى المبدع يتجسد في تراكيب الجمل بمساحة أكبر منها في الألفاظ المفردة، إذ "تزداد درجة كثافة الإحالة الرمزية في اللغة إذا انتقلنا من مستوى الألفاظ المفردة إلى مستوى التركيب المنتج للدلالة، الدلالة على مستوى التركيب هي التي تعد إطارها المرجعي- والتفسييري في نفس الوقت في مجمل منطوقه"⁽⁴⁾.

وقد انماز الأدب الحسيني بثرائه اللغوي ولاسيما على مستوى تراكيب الجمل وتنوعها تبعا لتنوع طرائق التعبير المقرونة بتنوع السياق وتعدد غايتها وطرائق توصيلها. ومن ذلك:

1- الاستفهام: من تلك الأساليب التي اعتمدها الإمام(ع) في بناء نصوصه، أسلوب الاستفهام "ولكون الاستفهام طلب ما في الخارج أو تحصيله في الذهن ألزم ألا يكون حقيقيا إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام"⁽⁵⁾، والحال أن أسلوب الاستفهام في الأدب الحسيني يكاد يكون استفهاما غير حقيقي في المواضع جميعها التي جاء فيها، وتلك المواضع اشتملت عليها الخطب أولا والأدعية ثانيا لما يحققه من فضاء حوار. فيما خلت الأحاديث الفنية والرسائل- أو كادت- من هذا الأسلوب. فمن أمثلة أسلوب الاستفهام في الخطب ما جاء في كلامه(ع): "هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من معين يرجو الله في إغاثتنا؟ هل من معين يرجو ما عند الله في إغاثتنا؟"⁽⁶⁾.

لعل المفهوم الظاهري للنص المتقدم يتمحور حول استغاثة الإمام(ع) ونداءاته لعسكر الأعداء من أجل الذب عنه وعن نسائه وأطفاله، مع أن الحسين(ع) عمد إلى إخبار الناس الذين رافقوه من مكة إلى كربلاء بأحوال أهل الكوفة ونكتهم للبيعة وخيرهم بين الانصراف عنه أو البقاء معه، مع ملاحظة أنه (ع) شدد على الانصراف حتى مع أقرب الناس إليه، واتضح ذلك من خلال الخطب التي تقدمت في البحث، فضلا عن أن نداءه هذا يأتي بعد أن وقع السيف بينهم وأخذ أهله وأصحابه

(1) ينظر: قواعد النقد الأدبي: 35-36.

(2) الأسلوب، أحمد الشايب: 45.

(3) الحوارات الكاملة، أدونيس: 71.

(4) النص والسلطة والحقيقة: 98.

(5) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: 308.

(6) الفتوح: 131/5، وينظر: مقتل الحسين، الخوارزمي: 36/2-37.

جميعاً، فكيف إذا تتفق تلك المعاني؟ يرى الباحث أن أسلوب الاستفهام (هل) - هنا - قد خرج عن معادله اللغوي المألوف وشحن بأبعاد بعيدة الغور؛ ففضلاً عما يحققه هذا النداء من إلقاء الحجة على الأعداء، لكي لا يتوسلوا بعد هذا النداء بأعذار واهية تسوغ لهم عدم نصرته (ع)، فإن الذين صرّفهم في الطريق لم يكونوا مستعدين للشهادة، والذين استصرخهم من الأعداء إنما استصرخهم ليمكنهم من الانتصار على الذات، على الأنا المستحكمة في نفوسهم، فالحسين (ع) "كان يطلب أنصاراً يقتلون معه وليس أنصاراً ينقذونه من الموت" (1)، ولا سيما أن الإمام (ع) استثمر حشداً من الألفاظ الوجدانية لمدّ النص بطاقات إيحائية تهز المتلقي لحدوث الارتباطات الروحية التي تثيرها تلك الألفاظ المسبوقة بـ (هل) الاستفهامية، إلى جانب أن من شأن طلب الناصر أن يؤلّد الناصر ويؤجده "خلال الأجيال ليكون محباً للحسين (ع) سائراً في طريقه، مضحياً في سبيل دينه" (2). وبالنتيجة إيجاد أنصار يلبون دعوته (ع) دعوة الحق في كل زمان ومكان في وجه الظلم والطغيان.

واعتماداً على ما سبق يمكن أن نقرأ النص بعيداً عن دلالاته الصريحة التي تتقاطع ودلالاته الضمنية التي اكتنز النص بها؛ تلك الدلالات المانحة لهوية النص الأدبية، إذ "تزداد أدبية النص كلما ازدادت قدرته على إنتاج الدلالة الضمنية" (3). ومما جاء في أدعيته من أسلوب الاستفهام، قوله (ع): "ماذا وجد من فُقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟" (4).

عند قراءتنا النص نلاحظ انشطاره إلى تركيبين متعادلين بنائياً، ولكنهما متفاوتان عظيم التفاوت في الامتداد الفضائي الدلالي لكل منهما، بفعل ما توحى به كل من علامتي الاستفهام المتصدرة في الكلام، فعلامة الاستفهام الأولى (ماذا) استطاعت أن تمد بفضاء جملتها و(تعملقه) من خلال ما توحى به من هول الإنسان الذي يفقد علاقته بالله تعالى، على عكس ما نستشعره من علامة الاستفهام (ما الذي) إذ حجمت فضاء دلالتها و(قزمت) معانيه حين أوحى لنا بأن العلاقة مع الله تعالى تغني عن جميع ما يمكن أن يفقده الإنسان. وهكذا نلمس أن التجربة الشعورية لا تخرج إلى الوجود، إلا بألفاظ خاصة وبأسلوب معين، محدثة الأثر المقصود تركه في مشاعر الآخرين (5).

ومما تقدم يمكننا القول إن أسلوب الاستفهام أثرى النصوص الحسينية دلالياً، إذ أسهم بشكل فاعل في إبراز ما كان يرمي إليه الإمام (ع).

2- النداء: ومن تلك الأساليب التركيبية في أدب الإمام (ع)، أسلوب النداء، الذي تفتش في الأدعية بصورة مركزة؛ لكون الأدعية نداء في وجوها جميعها، وتأتي بعدها الخطب لما تثيره من حوار مع المخاطب.

(1) الملحمة الحسينية: 121/1.

(2) أضواء على ثورة الإمام الحسين (ع)، السيد محمد محمد صادق الصدر: 91.

(3) النقد الثقافي - قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبدالله الغدامي: 71.

(4) إقبال الأعمال: 633.

(5) ينظر: العمل الأدبي، حسن الشيرازي: 21.

فمن أسلوب النداء ما جاء في أحد الأدعية: "يا دائم يا ديموم، يا حي يا قيوم، يا كاشف الغم، يا فارج الهم، يا باعث الرسل، يا صادق الوعد، اللهم إن كان لي عندك رضوان وودّ فاغفر لي، ومن اتبعني من إخواني وشيعتي، وطيب ما في صلبى برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين"⁽¹⁾.

إن توزيع أدوات النداء في النص السابق قد جاء بقصدية وجمالية تنم عن وعي خاص وذوق جمالي في التعامل مع هذا الأسلوب، فالنص بدأ بتكرار (يا) النداء وعلى سياق واحد حاملاً معاني المدح لله تعالى وممزوجاً بشعور الأسى بدلالة (الغم، والهم) وبعدها ينعطف النص بأداة نداء جديدة: (اللهم) ليشير إلى دلالة أخرى دلالة بنيت على المقطع السابق لتشكّل معادلاً دلالياً له، وهذا واضح بدلالة لفظة (اغفر) يعقبها - بعد ذلك - بثناء جديد مقرون بـ (يا) مرة وبالصلاة على النبي وآله الطيبين ليجعل طلب الحاجة يتوسط الثناء الأول والثناء الآخر؛ وفي هذا من آداب الدعاء ما لا يخفى على كل مستقر.

ومن أساليب النداء ما جاء في أحد خطب كربلاء، حينما دنا منه القوم فركب راحلته ثم نادى بأعلى صوته دعاء يسمعه جلّ الناس الذين حضروا: "أيها الناس، اسمعوا قولي، ولا تعجلوني حتى أعظكم بما ألحق لكم عليّ"⁽²⁾، ثم قال: "أيها الناس، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض"⁽³⁾.

نلاحظ من معاينة النصين السابقين حرص الإمام (ع) على توصيل كلامه للناس عن طريق امتطاء راحلته مرة ورفع نبرة صوته أخرى زيادة على توسله بحرف النداء (يا) الذي "يستعمل لنداء البعيد إذا أرادوا أن يمدوا أصواتهم للشيء المتراخي عنهم، والإنسان المعرض عنهم"⁽⁴⁾. وبهذا نلمس أثر أسلوب النداء في تركيب خطابات الإمام (ع) المختلفة والتنبيه على ما ابتغى بيانه.

3- الأمر: ومن أساليب الأدب الحسيني الطلبية الآخر، أسلوب الأمر، إذ تميزت الأدعية والخطب أيضاً في هذا الصدد؛ للأسباب المتقدمة ذاتها.

فمن أسلوب الأمر الدال على الطلب، ما ورد في أحد الأدعية: "اللهم إليك أقبلنا موقنين ولبيتك الحرام آمنين قاصدين فأعنا على منسكنا وأكمل لنا حجنا واعف اللهم عنا فقد مردنا إليك أيدينا وهي بذلة الاعتراف موسومة اللهم فأعطنا في هذه العشية ما سألناك واكفنا ما استكفيناك فلا كافي لنا سواك"⁽⁵⁾.

لا يخفى أن كل فعل أمر ورد في الدعاء وما تبعه من أفعال أمر آخر، إنما جاءت على طريقة الطلب والتوسل، ولتأكيد هذه الآداب في مخاطبة الخالق (جل ثناؤه)، فقد جاءت مسبوقة بصيغة النداء: (اللهم) التي شكل وجودها ولادة فقرة أو جملة أمرية طلبية توسلية.

(1) مهج الدعوات: 23.

(2) تاريخ الطبري: 424/5.

(3) م. ن: 425/5.

(4) الكتاب، سيبويه (ت 180 هـ)، تج: عبد السلام محمد هارون: 230/2.

(5) إقبال الأعمال: 631.

ومما جاء من أسلوب الأمر في الخطب، ما وجدناه في إحدى خطبه (ع):
"أوصيكم بتقوى الله وأحذرکم أيامه وأرفع لكم أعلامه فكأن المخوف قد أفد بمهول
وروده [...] فبادروا بصحة الأجسام في مدة الأعمار"⁽¹⁾.

والملاحظ أن أسلوب الأمر غالبا ما يكون بصيغة الجمع، مما يفعل روح الجماعة والمشاركة في المجتمع، إلى جانب خروجه -غالبا- إلى معاني الطلب.

(4)- النهي: خالط أسلوب النهي أسلوب الأمر في عدد من نصوصه (ع) ولا سيما في الأدعية والخطب، إذ جاء في أحد الأدعية: "اللهم [...] فلا تخلني من رعايتك ولا تخرجني من عنايتك ولا تقعدني عن حولك ولا تخرجني عن مقصد أنال به إرادتك واجعل على البصيرة مدرجتي وعلى الهداية محجتي"⁽²⁾.

وفي النص المتقدم - كما في غيره من النصوص- يحصل تضافر بين عمل أسلوب الأمر وأسلوب النهي بمعنى أن الأمر بالمعروف هو معروف والنهي عن المنكر هو معروف أيضا، وهذه النصوص غالبا ما تصور انفعالات الداعي ومشاعره حول موضوع معين؛ لأن هذه الألفاظ والتراكيب تتشكل في البنية الشعرية من خلال التجربة الذاتية للمبدع التي يظهر فيها الجانب الشعوري والانفعالي⁽³⁾.

وقد جاء عدد من خطبه (ع) مشتملا على أسلوب النهي متضافرا مع أسلوب الأمر أيضا زيادة على اشتمال عدد منها على نصوص قرآنية تبرز هذا التمازج بين الأسلوبين المتقدمين كما في قوله: "أيها الناس اسمعوا قولي، ولا تعجلوا حتى أعظمكم [...] وإن لم تعطوني النصيح من أنفسكم، فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ"⁽⁴⁾.

وواضح أن أسلوب النهي حينما يكون مسبقا أو مشفوعا بأسلوب الأمر فإن ذلك يفضي إلى (تبئير) المعنى في ذهن المتلقي لما يحدثه من تكثيف نصي يحفز المتقبل للولوج إلى "فضاء معرفي يرفض كل محاولات التدجين وعمليات التسطيح أو الاحتواء السياسي والإيديولوجي"⁽⁵⁾. بتعبير آخر إضاءة الحقائق ودفع التشويش والحيلولة دون محاولات التدليس.

(5)- الحذف: ومن الظواهر الأسلوبية في الأدب الحسيني، ظاهرة الحذف التي من شأنها أن تزيد من تفاعل المتلقي مع النص من خلال إسهامه في تتبع دلالة الكلمات المحذوفة، ومن فوائده "التوسع في الدلالة الإيحائية، ويتمثل في فتح أبواب التخيل، والاحتمال على مصاريعها أمام المتلقي ليفيد منه بحسب خبرته ويتخيل من الصور،

(1) تحف العقول: 171.

(2) مهج الدعوات: 68.

(3) عن أثر تنوع الألفاظ والتراكيب في الحالة الشعورية، ينظر: الصورة الشعرية في شعر عبيد الأبرص- دراسة في المنبع الحسي والعقلي، د. فايز عارف: 10.

(4) الإرشاد: 339-340. والنص القرآني في: يونس/ من 71.

(5) نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د. حسين خمرى: 10.

والمعاني بحسب ما يتمكن أن يوحي النص، وينسجم معه فيستمتع في تصور الدلالة الإيحائية⁽¹⁾.

من ذلك ما جاء في أحد رسائله الجوابية: "بل هو الله الصمد الذي لا من شيء ولا في شيء ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها ومنشئ الأشياء بقدرته"⁽²⁾. فالحذف هنا حذف المبتدأ جوازا تقديره: (هو مبدع الأشياء [...]) وهو منشئ الأشياء). ويمكن أن نعد الإضمار من الحذف حينما لا يذكر ما يعود إليه الضمير، ومن ذلك ما تضمنه أحد أدعيته (ع) الذي دعا به على الأعداء يوم الطف: "اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف [...] فاتهم غرّونا وكذبونا وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا"⁽³⁾، إذ نلاحظ الضمير (هم) في (عنهم) و(عليهم) قد حل محل المحذوف (أهل الكوفة). وتسويغ الحذف جاء لكونه معلوما لدى الجميع، وفيما لو ذكر المحذوف لأحدث تطويلا وترهلا في النص.

ونلاحظ كذلك في قوله: (غرّونا وكذبونا وخذلونا) حذف ما يعود عليه الضمير، والاكتفاء بذكر الضمير الواقع هنا موقع الفاعل. وهذا الحذف - بلا شك- يثري النص فنيا وأسلوبيا. ومن أدلة أهمية هذا الحذف أنه شكل ظاهرة "من الظواهر الأسلوبية اللافتة في البيان القرآني"⁽⁴⁾، زيادة على ما يحدثه من جذب عناية المتلقي إلى الحدث⁽⁵⁾. ولعل هذا الأسلوب كشف عن قيمة التذوق الجمالي، وسمة الاقتصاد اللغوي الإيجابي في النصوص الحسينية، ورشاقة فقراتها.

6- التقديم والتأخير: ومن الظواهر الأسلوبية الأخر، ظاهرة التقديم والتأخير، إذ اعتمدها (ع) في خطابه لأسباب كثيرة؛ منها ما جاء أحيانا لبيان أهمية أو إحداث أثر موسيقي أو لإحداث توازن وما إلى ذلك من الأمور التي تقتضيها فنية التعبير وجلب انتباه المتلقي.

فمن أمثلة ما جاء من التقديم والتأخير، ما اشتمل عليه أحد أدعيته (ع): "إلهي أخرجني من ذل نفسي واقهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي بك أنتصر فأنصرني وعليك أتوكل فلا تكلني وإياك أسأل فلا تخيبني وفي فضلك أرغب فلا تحرمني"⁽⁶⁾. فكما هو واضح فقد تقدم المفعول به أو متعلقاته على الفعل والفاعل (بك أنتصر، وعليك أتوكل، وإياك أسأل، وفي فضلك أرغب) والتقديم هنا لإبراز العناية والاهتمام.

ومن أمثلة التقديم والتأخير كذلك، ما جاء في إحدى خطبه، إذ قال: "يا ابن آدم اذكر مصرعك، وفي قبرك مضجعك"⁽⁷⁾. فمن خلال معاينة النص يظهر تقديم الجار

(1) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: 129.

(2) التوحيد: 89.

(3) الملهوف على قتلى الطفوف: 157.

(4) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- دراسة قرآنية لغوية وبيانية، د. عائشة عبد الرحمن: 240.

(5) ينظر: م.ن: 242.

(6) إقبال الأعمال: 633.

(7) إرشاد القلوب: 74/1.

والمجورور (في قبرك) على ما يتعلقان به (مضجك)، وهذا التقديم حصل - كما أحسب - للفت العناية إلى الموت، وإلى الرحيل عن الدنيا. والسمة البارزة لهذا الأسلوب كشفه عن التمكن اللغوي الفني الذي انمازت به خطاباته (ع).

ومن خلال استقرائنا لألفاظ الإمام (ع) عبر هذا البحث، وجدناها ألفاظاً عربية مأنوسة دانية المعنى خالية من التنافر والغموض تشربت بألفاظ القرآن الكريم وكلمات المصطفى (ص) وكلمات أبيه علي بن أبي طالب (ع)، والباحث - بالقياس إلى عدد نصوصه (ع) - لم يهرع كثيراً إلى المعاجم اللغوية على الرغم من أنها تبتعد عنا زمانياً من حيث ولادتها بأكثر من ألف وأربع مئة سنة، ولهذا نعتقد بوضوحها بشكل أكبر في عصرها نتيجة تماهياها مع لغة ذلك العصر.

وقد تفاوتت أطوال جمل الإمام (ع)؛ فمنها ما كانت قصيرة كما في أحد أحاديثه الفنية: "الصدق عز، والكذب عجز، والسر أمانة، والحوار قرابة، والمعونة صداقة، والعمل تجربة، والخلق الحسن عبادة، والصمت زين، والشخ فقر، والسقاء غنى، والرفق لب" (1)، ومنها ما كانت طويلة، ومن ذلك ما جاء في أحد الأدعية: "غير أني أشهد بجدي ومهدي ومبالغ طاقتي ووسعي وأقول مؤمناً موقناً الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فيكون موروثاً" (2).

وأحياناً يكون الطول في الجملة نتيجة تركيب النص البنائي المتكرر، كما في دعائه (ع): "اللهم من آوى إلى مأوى فأنت مأوي، ومن لجأ إلى ملجأ فأنت ملجأ" (3).

ومهما يكن، فإن السياق واستيفاء الفكرة وطريقة العرض والتأثير في المتلقي كلها تكمن خلف تباين أطوال الجمل في الأدب الحسيني. ويتضح مما سبق أن جمالية اللغة تتكئ في أحد جوانبها الفنية على عناصر تركيبية أسلوبية، منها أساليب إنشائية طلبية فضلاً عن الحذف والتقديم والتأخير والتنوع في أطوال الجمل ووضوح العبارة وإشراقها وما لذلك من تعميق المعنى وتمتين التواصل.

ب. الاقتباس والتضمين والتناس: للقران الكريم أثر كبير في الأدب العربي (4)، إذ توغل في أنواع أدبية عدة وزاد في أهميتها بعدما كان الشعر وحده يمثل جل مصدر عنايتهم (5)، فكتاب الله تعالى: "أكثر النصوص في التاريخ إلهاماً وتأويلاً" (6)، وإلى جانبه أحاديث المصطفى (ص)، وقد أثرا في الأدب بطرائق متعددة، أبرزها

(1) تاريخ البعقوبي: 172 / 2.

(2) إقبال الأعمال: 626.

(3) مهج الدعوات: 68.

(4) ينظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي: 46.

(5) ينظر: الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام: 76-77.

(6) سلطة النص: 71.

الاقتباس، الذي يحصل حينما "يُضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث، لا على أنه منه" (1).

* **الاقتباس:** تجلت ظاهرة اقتباس النصوص القرآنية والحديثية في الأدب الحسيني، إذ نشأ الحسين (ع) في كنف جدّه المختار (ص) سمّاعاً للقرآن (2)، لم يفترق (ع) عنه حتى آخر ساعات حياته، التي بعث فيها أخاه العباس (ع) إلى القوم يستمهلهم تلك الليلة، قائلاً: "ارجع إليهم، فإن استطعت أن تؤخرهم إلى غدوة وتدفعهم عند العشية لعننا نعلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهو يعلم أنني قد كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار" (3).

ومن أجل تجنب الخوض في مفهوم الاقتباس وما جرى عليه من خلط وتجاوزات طالت واستطالت، وتماهيا مع طبيعة النصوص الحسينية، ارتأينا أن نرسم للاقتباس اتجاهين؛ الأول: الاقتباس النصي، والثاني: الاقتباس التنصيصي. **أ// الاقتباس النصي:** وفيه يُضمّن الباث تعبيره نصاً قرآنياً أو حديثياً من غير الإشارة إلى أنه نص قرآني أو نص حديثي. والنصوص الحسينية التي انطوت على ذلك كثيرة، تقدمتها الخطب ثم الأدعية فيما جاءت الرسائل والأحاديث الفنية بالجزء اليسير إذ قاربنا العدم.

ويبدو أن كثرة عدد الخطب وطريقة تشكل بنيتها فضلاً عن تركيزها على الوظيفة الانفعالية (الإفهامية) بمقتضى عملها، جعل لها الصدارة في هذا الصدد، ولعل تتابع بقية الأنواع الأدبية التنازلي جاء بفعل فقدانه لواحدة أو أكثر من سمات الخطب المتقدمة.

1- الخطبة والاقتباس النصي: من أمثلة الاقتباس النصي ما جاء في أحد خطبه (ع) في كربلاء: "أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري، وصدقتم قولي، وأعطيتموني النصف، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر، ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهَ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾" (4).

إن قراءة مكررة للخطاب تبرز لنا انتداب النص الحسيني لنصين قرآنيين وتوظيفهما بشكل دقيق و متمازج دلالة وتكثيفاً للمعنى، أسهما في توسيع فضاء النص وتنبيت علامات منبهة تسرع في وصول المتلقي وترشده إلى بؤرة النص التي احتضنت الرؤى الرسالية للإمام (ع)، وتجنبه في الآن ذاته من الانحراف إلى دلالات غير مقصودة في الخطاب (5).

(1) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني: 342.

(2) ينظر: فن الخطابة وتطوره عند العرب: 225.

(3) تاريخ الطبري: 417/5.

(4) تاريخ الطبري: 424/5. والنصان القرآنيان في: يونس/ من 71، والأعراف/ 196 على التوالي.

(5) ينظر: الكشف: 400/9، و 469/11.

ولا ينقص من وحدة النص محاولة تكرار النظر إليه، بل إنه يوحى عندها بتدفق شعوري وإحساس عميق بما كان يجري فعلا في ساحة كربلاء وما تكنه نفوس الأعداء، فالقيمة الشعورية للمبدع "تقدر بمدى اطلاعه على الواقع المختبئ خلف القشور والزيوف، والقيمة الشعورية للأدب تقدر بمدى كشفه عن ذلك الواقع"⁽¹⁾. وتلك الدقة في تصافر كلمات النص الحسيني ودلالاتها نجدها في نصوص آخر من ذلك ما جاء في خطبته الوعظية: "عباد الله! فلو كان ذلك قصر مرامكم ومدى مظنكم كان حسب العامل شغلا يستفرغ عليه أحزانه [...] فكيف وهو بعد ذلك مرتتهن باكتسابه مستوقف على حسابه لا وزير له يمنعه ولا ظهير عنه يدفعه ويومئذ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ أَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾، أوصيكم بتقوى الله، فإن الله قد ضمن لمن اتقاه أن يحوله عما يكره إلى ما يحب ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾"⁽²⁾.

2- الدعاء والافتباس النصي: ومن الاقتباس النصي ما ورد في أحد أدعيته (ع): "الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فيكون موروثا، ولم يكن له شريك في الملك فيضاده فيما ابتدع، ولا ولي من الدل فيرفده فيما صنع، سبحانه سبحانه سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وتفطرتا فسبحان الله الواحد الحق"⁽³⁾.

ومما هو واضح للقارئ أن مكان لفظة: (وتفطرتا) بعد الآية مباشرة وبما تملكه من تواشج دلالي ومكاني وإيقاعي مع لفظة الآية الكريمة: (لفسدتا) توحى وبكثافة بتعامل نوعي مع النصوص القرآنية وفهم معمق لمعانيه وانسجام عال برز في لغة النص وطبيعته، إذ "إن كل لغة تخلق فضاءها المكاني بطريقة تتناغم مع طبيعتها"⁽⁴⁾.

ولم ترد الأحاديث النبوية الشريفة بهذا النوع من الاقتباس في النصوص الحسينية.

ب// الاقتباس التنصيبي: وفيه يُضمن الباث تعبيره نصا قرآنيا أو حديثيا مع الإشارة إلى أنه نص قرآني أو حديثي.

1) الخطب والاقتباس التنصيبي: من الاقتباس التنصيبي ما جاء في إحدى خطبه (ع): "اعتبروا أيها الناس بما وعظ الله به أوليائه من سوء ثنائه على الأحزاب إذ يقول: ﴿لَوْ لَا يَنْهَاهُمْ رَبَّائِيُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمُ﴾ [...] وإنما عاب الله ذلك عليهم لأنهم كانوا يرون من الظلمة الذين بين أظهرهم المنكر والفساد فلا ينهاهم عن ذلك رغبة فيما كانوا ينالون منهم ورهبة مما يحذرون والله يقول: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ﴾ وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فبدأ الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة منه، لعلمه بأنها إذا أديت وأقيمت استقامت الفرائض كلها هيبتها وصعبها"⁽⁵⁾.

(1) العمل الأدبي: 20.

(2) تحف العقول: 171. والنصان القرآنيان في: الأنعام/من 158، والطلاق/من 3 على التوالي.

(3) إقبال الأعمال: 626. والنص القرآني في: الأنبياء/من 22.

(4) التشكيلان الإيقاعي والمكاني في القصيدة العربية الحديثة، د. كريم الوائلي: 70.

(5) تحف العقول: 169. والنصوص القرآنية في: المائدة/من 63، ومن 44، والتوبة/من 71 على التوالي.

نلاحظ من خلال تركيب النص وطريقة العرض والسياق الوارد فيه أن الخطاب موجه إلى عامة الناس. بتعبير آخر، راعى النص مستويات المتلقين الثقافية في أثناء توصيله لدلالات الأمر بالمعروف وأثار تركه، متخذاً من المقارنة بين حال الناس وما أمر به الله تعالى وسيلة للإقناع وأداة للتأثير، ولا سيما أن الغرض الرئيس من هذا النمط من الاقتباس "هو التدليل وإقامة الحجة، إذ تمثل النصوص القرآنية المصرح بذكرها شهادات وأدلة تؤكد حتمية الفكرة"⁽¹⁾ الواردة في النص الحسيني.

ومن أمثلة الاقتباس التنصيبي للحديث النبوي الشريف ما جاء في أحد خطبه أيضاً، وفيها ناشد الناس أن يقرأوا بفصائل أهل البيت (ع) قائلاً: "أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله فضله على جعفر وحزمة حين قال لفاطمة عليها السلام: زوجتك خير أهل بيتي، أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأكثرهم علماً؟ قالوا: اللهم نعم. قال: أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ((أنا سيد ولد آدم وأخي علي سيد العرب، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وإبناي الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة))؟ قالوا: اللهم نعم"⁽²⁾.

لا ريب في أن استنطاق المتلقي وضمان إجابته عن كل فقرة بعدما أسندت بنص حديثي، يعدان من أبسط أنواع التوصيل وأعقها في نفوس العامة، ولا سيما أن السياق التاريخي والثقافي للخطبة يتطلب ذلك.

(2) الدعاء والاقتباس التنصيبي: ومن شواهد الاقتباس التنصيبي ما جاء في أحد أدعيته (ع): "أجل ولو حرصت والعادون من أنامك أن نحصي مدى إنعامك سائلة وآفة لما حصرنه عدداً، ولا أحصيناه أبداً، هيهات أني ذلك وأنت المخبر عن نفسك في كتابك الناطق والنبأ الصادق ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ صدق كتابك"⁽³⁾. ولعل اعتماده (ع) كلام الله تعالى في دعائه ومناجاته، أدعى للاستجابة وأضمن لديمومة الاتصال، وأكثر إثارة للأجواء العبادية.

(3) الرسالة والاقتباس التنصيبي: ربما جعل الإمام (ع) بعض كتبه نصاً قرآنياً على سبيل الاقتباس التنصيبي وحسب، كما في رسالته الجوابية إلى يزيد: "﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾"⁽⁴⁾. ولعل هذا النص يؤكد متانة العلاقة بين الإمام (ع) والقرآن الكريم.

(4) الحديث الفني والاقتباس التنصيبي: ومن أمثلة ما جاء من اقتباس تنصيبي في الأحاديث الفنية - على قلتها في هذا الصدد - قوله (ع): "لولا معرفة حقوق الإخوان ما عرف من السيئات شيء إلا عوقب على جميعها، لكن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾"⁽⁵⁾.

واعتماداً على ما سبق يتضح أن الاقتباس التنصيبي لا يتطلب متلقياً نوعياً؛ لأنه يعتمد إجراءات توصيلية تقليدية مراعاة للسياق الذي ترد فيه.

(1) الصحيفة السجادية- دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، حسن غانم فضالة: 136.

(2) كتاب سليم بن قيس الهلالي: 792/2.

(3) إقبال الأعمال: 626. والنص القرآني في: إبراهيم/من: 34.

(4) ينظر: مقتل الحسين (ع)، الخوارزمي: 313/1. والنص القرآني في: يونس: 41.

(5) تفسير الإمام العسكري (ع): 321. والنص القرآني في: الشورى: 30.

* **التضمين:** أما التضمين هنا فهو جميع ما انطوى عليه الأدب الحسيني من أشعار وأمثال، وغير ذلك ما خلا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف⁽¹⁾.

وفي صدد تضمين الأدب الحسيني للشعر فإن المستقري يكاد يجده خلوا من الشعر، حتى شكل هذا الأمر ظاهرة أدبية في أدب الإمام (ع)، إذ لم أره يميل إلى الشعر حتى في أشد الحالات انفعالا وأخرج الأوقات الشعورية، ولا أرى سببا لذلك سوى نزعة الإمام (ع) إلى الخطبة والخطاب من دون الشعر معوضا ذلك بما يمتلكه من رصيد ثقافي مكن ينثال عليه حيث ما تطلب السياق أو الحال ذلك متخذاً منه أداة خطيرة لتحقيق أهدافه الرسالية.

أما الأمثال فقد كانت قليلة، من ذلك ما تضمنته إحدى خطبه: "يا أهل الكوفة! أنتم الأحبة الكرماء والشعار دون الدثار"⁽²⁾.

إن اشتغال الخطبة على مثل شائع معلوم الدلالة من شأنه أن يثري دلالاتها ويقرب غايتها ويفعل أثرها في المتلقي؛ "لأن المثل يختزل الحكاية التاريخية التي انبثق عنها قبل أن يصبح مدلوله عاما، ولما كانت حكاية المثل تتضمن شخوصا، فإن أغلب الأمثال تعنى برسم الأبعاد النفسية لشخص حكاية المثل، وكذلك إعطاء المثل مدلولاً عاماً لاحقاً يجعل منه غنيا بالأبعاد الإنسانية العامة تستجيب له الجماعة الإنسانية كلها"⁽³⁾.

وصفوة القول إن المثل كان محدود التأثير في الأدب الحسيني.

* **التناص:** جاء عدد من النصوص الحسينية على غير شاكلة ما تقدم، بمعنى أن هناك نصوصاً آخر قد امتزجت مع نصوص الإمام (ع) وذابت معها بشكل جعل من الصعوبة فصل تلك النصوص الوافدة، أو السرعة في تشخيصها، وهذا ما يطلق عليه (التناص)، وهي ظاهرة تفاعل النصوص فيما بينها، وتأثير هذا التفاعل في إنتاج الدلالة التي يحملها النص الذي يحتضن عملية التفاعل هذه⁽⁴⁾.

1= الخطبة والتناص: من أمثلة التناص في الأدب الحسيني ما جاء في إحدى خطبه التي تقدمت الأنواع الأدبية الأخرى في هذا الصدد: "اللهم أني أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وعلمتنا القرآن، وفقهتنا في الدين، وجعلت لنا أسماعاً وأبصاراً وأفئدة"⁽⁵⁾. فهذه العبارة مأخوذة مع شيء من التغيير من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾⁽⁶⁾.

ومن شواهد التنصيص أيضاً، ما ورد في إحدى خطبه (ع): "يا بن آدم! اذكر مصرعك، وفي قبرك مضجعك، وموقفك بين يدي الله تعالى، تشهد جوارحك عليك،

(1) للاطلاع على مفهوم التضمين، ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 344 على سبيل المثال.

(2) شرح نهج البلاغة: 186/3. و(الشعار): ما ولي شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب، و(الدثار): ما يُدثر به. وفي المثل: هم الشعار دون الدثار، يصفهم بالمودة والقرب. لسان العرب: مادتا (ش ع ر)، و(د ث ر). ومع شيوع المثل لم يعثر الباحث عليه في كتب الأمثال.

(3) نهشل بن حري حياته وشعره، عبد اللطيف شنشول دكمان: 156.

(4) ينظر: التناص، د. عبد النبي اصطياف: 51.

(5) تاريخ الطبري: 418/5، وينظر: أثر القرآن في الأدب العربي: 203.

(6) الأحقاف/ 26.

يوم تزل الأقدام، وتبلغ القلوب الحناجر، وتبيض وجوه وتسود وجوه، وتبدى السرائر ويوضع الميزان للقسط"⁽¹⁾.

فالنص السابق اعتمد في تركيبه ودلالاته على عدة نصوص قرآنية، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ رَأَيْنَا الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿وَنُضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾⁽⁵⁾. وفي استحضار هذا الكم من النصوص القرآنية وضغطها وضخها داخل النص - موضع الشاهد - وما أظهره النص من تواؤم وتعلق نصي كبيرين وما يتطلبه ذلك من استرجاع وموازنة ورصد من قبل الناص، كشف عن مدى تشرب ذهن المنتج وحافظته بعبارات القرآن ودلالاته.

ومن شواهد التناسل مع حديث نبوي شريف، ما تضمنته إحدى خطبه التي جاء فيها: "ومن نفس كربية مؤمن فرج الله عنه كرب الدنيا والآخرة"⁽⁶⁾. فهذا المقطع مأخوذ من حديث المصطفى (ص) - مع شيء من التغيير - إذ قال (ص): ((وَمَنْ فَرَجَ عَنْ مُسْلِمٍ كَرْبَةً فَرَجَ اللَّهُ عَنْهَا كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))⁽⁷⁾.

2 = الدعاء والتناسل: من أمثلة التناسل الآخر، ما جاء في أحد أدعيته (ع): "يا راد يوسف على يعقوب بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فهو كظيم، يا كاشف الضر والبلاء عن أيوب، يا ممسك يد إبراهيم عن ذبح ابنه بعد أن كبر سنه وفني عمره، يا من استجاب لزكريا فوهب له يحيى ولم يدعه فردا وحيدا، يا من أخرج يونس من بطن الحوت، يا من فلق البحر لبني إسرائيل فأنجاهم وجعل فرعون وجنوده من المغرقين"⁽⁸⁾.

فبمعينة النص يتجلى تناسله مع عدد كبير من النصوص القرآنية من سورة الأنبياء وغيرها، ولا يخفى أن من مظاهر انبناء هذا النص دلاليا هو توظيف العنصر القصصي وإدخال النص في سردية مقصودة تلونا للمعاني وتقريبا إلى ذهن المتلقي. 3 = الرسالة والتناسل: ومما جاء في الرسائل من تناسل، ما كتبه (ع) إلى معاوية: "ألست قاتل حجر، وأصحابه العابدين المخبتين الذي كانوا يستفطعون البدع ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"⁽⁹⁾.

فالنص المتقدم تناسل مع قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾⁽¹⁰⁾ وضمنه كلامه بطريقة انسيابية وكأنه من أصل نسيج النص.

(1) إرشاد القلوب: 74.

(2) الأحزاب/ من 10.

(3) آل عمران/ من 106.

(4) الطارق/ 9.

(5) الأنبياء/ من 47.

(6) كشف الغمة: 2/222.

(7) صحيح مسلم: 1102.

(8) إقبال الأعمال: 628.

(9) الإمامة والسياسة: 1/147.

(10) آل عمران/ من 104.

4= الحديث الفني والتناص: ومن الأحاديث الفنية التي انطوت على التناص قوله (ع): "شكرك لنعمة سائلة يقتضي نعمة أنفة"⁽¹⁾. وهذا الحديث مأخوذ من قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾⁽²⁾. والنعمة مقرونة بالشكر في كلا النصين. ولم يقتصر التناص في أدب الإمام (ع) على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، إذ كان لكلام أبيه علي بن أبي طالب (ع) أثر في أدبه (ع). جاء في الخبر أن الحسين بن علي (ع) حين تهادرت خطبه يوم كربلاء، صاح عمر بن سعد قائد الجيوش المعادية بأصحابه حينما رأى الانهيار باديا عليهم والسكوت متفشيا فيهم: "ويلكم، كلموه فإنه ابن أبيه، والله، لو وقف فيكم هكذا يوما جديدا لما قطع ولما حصر فكلموه!"⁽³⁾.

ومن شواهد تناص كلام الإمام الحسين (ع) مع كلام أبيه (ع)، ما جاء في إحدى خطب كربلاء يدعو أصحابه للانصراف بعد أن أطلعهم على واقع الحال: "إنه قد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإن الدنيا قد تنكرت وتغيرت وأدبر معروفها واستمرت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء"⁽⁴⁾.

وهذا النص سبقته نصوص للإمام علي (ع)⁽⁵⁾، تنطوي على المفردات والدلالات ذاتها؛ من ذلك قول الإمام علي (ع): "إلا وإن الدنيا ولّت حذاء، فلم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء اصطبتها صابها"⁽⁶⁾. وفي موضع آخر قال الإمام علي (ع): "ألا وإن الدنيا قد تصرمت، وأذنت بانقضاء، وتنكر معروفها، وأدبرت حذاء"⁽⁷⁾. ولا غرو إن تناص كلامهما (ع) أو تطابق، فهما بنية تفكير واحدة ومرجعية ثقافية واحدة.

ولا يقتصر التناص بطبيعة الحال على "حركة النصوص الأخرى فقط، بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصية كثيرة، فقد يكون التناص إيماء مباشرة أو غائمة، إلى عمل كامل أو متجزئ"⁽⁸⁾، ولكن النصوص التي يخوض فيها البحث هي نصوص دينية رفيعة عميقة العلائق بعيدة الغور، والسعي في هذا المجال قد يعرض البحث إلى انزلاقات مجهولة المصير، إذ يكون ضعف اطلاع الباحث وبساطة أدواته، أهم الأسباب التي لا تشجعه في الخوض بهذا الاتجاه.

ومهما يكن، فقد رأينا كيف أن الإمام (ع) استطاع توظيف النص القرآني والاستشفاف من معانيه والتحليق في مداره واستلهم شحنته الوجدانية وقدرته في التعبير، ليكون المصدر الأول في محاضنه الثقافية، فيما شكل كلام جدّه الرسول (ص) مصدرا ثانيا، وكلام أبيه مصدرا ثالثا، وربما شكلت بيئة الحجاز مصدرا رابعا في ثقافته بوصفها مفعلة للعلوم بالدرجة الأساس؛ لأن الإمام الحسين (ع) – وهكذا أهل البيت (ع) كلهم- لم يتعلمذ على يد شيوخ معرفة أو علماء كما هو حال

(1) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 80.

(2) إبراهيم/من 7.

(3) مقتل الحسين (ع)، الخوارزمي: 357/1.

(4) الملهوف على قتلى الطفوف: 138. و(حذاء) بمعنى مسرعة، و(صباية): بقية الماء في الإناء. ينظر: لسان

العرب: مادتا (ح ذ ا)، و(ص ب ب)

(5) ينظر: نثر الإمام الحسين (ع) (رسالة ماجستير)، ميثم قيس مطلق: 77.

(6) شرح نهج البلاغة: 251/3.

(7) م. ن: 263/3.

(8) الشعر والتلقي، د. علي جعفر العلاق: 133.

الشخصيات الدينية والأدبية عموماً، وإنما نهل من المصادر أنفة الذكر، والنشاط العلمي في مكة والمدينة جاء بوصفها أهم مراكز الحياة العلمية في ذلك العصر، يقصدها طلاب الحديث وطلاب الفقه وطلاب التاريخ وقد فاقت المدينة مكة في ذلك؛ لأن أشهر من أسلم من أهل مكة هاجر مع النبي (ص) إلى المدينة⁽¹⁾. وهكذا برزت هذه المرجعيات - ولاسيما القرآن - في أدبه (ع) وحققت حضوراً وأثراً جلياً لتكشف عن وعي وقصدية في التعامل ومواصلة في طريقة الأخذ.

ت. التكرار الدلالي: التكرار إجمالاً ظاهرة أسلوبية تؤدي وظائف جمّة، فالتكرار وإن كان يصدر عن أصل لغوي فإنه يتمرد عليه - غالباً - بمجرد الإفلات من فضائه المحدود الذي مارس بإزائه تحجيماً معنوياً؛ إذ يتخذ التكرار من واقع نموه الجديد وتضخم أثره عن طريق التمدد الإيحائي والضخ الشعوري أسباباً جوهرية لانفصاله، فالإكتفاء بالمعاني النحوية للتكرار يضيع فرص فهم النص بصورة أفضل؛ لأن الواو مثلاً - قد يتجاوز وظيفته النحوية (العطف) بين الجمل ليقوم بوظيفة أسلوبية في الكشف عن آثار متباينة وصور مختلفة تعمق حالة أو حالات معينة⁽²⁾.

لقد تنبه العرب على موضع التكرار في كلامهم وأهميته، بوصفه سنة من سننهم غايته التوصيل⁽³⁾، ولذلك نزل القرآن الكريم "بلسان القوم وعلى مذاهبهم ومن مذاهبهم التكرار"⁽⁴⁾، وبخاصة التكرار الدلالي (المعنوي) - موضع البحث - إذ شغل حيزاً كبيراً من حجم التكرارات القرآنية، معبراً عنه بطرائق مختلفة⁽⁵⁾، إذ "إن ظاهرة تكرار المعنى في جملتين مختلفتين اختلافاً بيناً من جهة اللفظ ظاهرة بارزة جداً في القرآن ونسبة تواترها أكبر بكثير جداً من نسبة تواتر التكرار لفظاً ومعنى"⁽⁶⁾.

والحال ذاتها ألفيناه في الأدب الحسيني، إذ حقق التكرار - بغض النظر عن تباين نسبه وكثافته توزيعه بين الأنواع الأدبية - حضوراً طاعياً فيه بشكل مميّز ذلك التكرار عن نظيره اللفظي.

ومن حيث التوزيع وجدنا أن الأدعية يندر أن تخلو من هذا النوع من التكرار، ثم جاءت بعدها الخطب، فيما جاءت الرسائل والأحاديث الفنية بالسهم الأخير من المساحة الكلية.

ولعل لهذا التباين في التوزيع أسبابه؛ فالتوسل والإلحاح هما من أبرز مظاهر الدعاء، وهذا الأمر يتطلب بطبيعته التكرار.

(1) ينظر: فجر الإسلام: 169.

(2) ينظر: منهج التحليل اللغوي في النقد الأدبي، د. سمير شريف ستيته: 243، 245.

(3) ينظر: صاحب في فقه اللغة العربية ولسان العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت 395هـ)، شرح وتحقيق: أحمد صقر: 341.

(4) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تج: أحمد صقر: 235.

(5) ينظر: الإطناب في القرآن الكريم (أطروحة دكتوراه)، وفاء فيصل اسكندر: 312.

(6) الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، منشورات كلية الآداب، جامعة منوبة، تونس، ط 1، 1421هـ - 1980م: 391/1 نقلاً عن: الإطناب في القرآن الكريم: 312.

أما الخطب فإنها تُعنى بالوظيفة الإفهامية بدرجة أعلى من بقية الأنواع الأدبية، إذ "إن هذه الوظيفة تعد المميز الأساس للخطب بشتى أشكالها وأصنافها، فهي الوظيفة المهيمنة على باقي الوظائف التي تشكل خطبة ما"⁽¹⁾.

ولما كانت الخطب قائمة أساسا على الإقناع والتوصيل، ولأن المتلقي حينما تتقطع عنه عملية التوصيل في فقرة من فقرات الخطبة لأسباب، فإن ذلك -غالبا- ما سيستمر معه إلى نهاية الخطبة لتماسك نصها وترابط أعضائها، والبات عادة لا يسترجع بث جزء أو أجزاء من نصه؛ لأن ذلك سيؤثر متلقين آخرين متواصلين، فلضمان التوصيل عموما، وتأكيد معاني النص، يمارس الباعث عملية التكرير الدلالي. في حين يكون الأمر في الرسائل مختلفا، فالمتلقي يمكن له أن يعيد قراءة النص بقدر ما يتطلب الأمر، فضلا عن وجود الرسول- في ذلك العهد- الذي يساعد في فك شفرات النص. بينما تحول بنية الأحاديث الفنية وسماتها -غالبا- من فاعلية التكرار فيها.

(1) الدعاء والتكرار الدلالي: مما جاء في أدعيته(ع) من تكرار دلالي، قوله(ع) في دعاء عرفة: "اللهم ما أخاف فأكفني وما أحذر فقتني وفي نفسي وديني فاحرسني وفي سفري فاحفظني وفي أهلي ومالي وولدي فاخلقني وفيما رزقتني فبارك لي وفي نفسي فذللني وفي أعين الناس فعظمني، ومن شر الجن والإنس فسلمني وبذنوبي فلا تفضحني وبسريرتي فلا تحزني وبعملي فلا تبسلني، ونعمك فلا تسلبني وإلى غيرك فلا تكني إلى من تكني! إلى القريب يقطعني! أم إلى البعيد يتجهمني أم إلى المستضعفين لي وأنت ربي ومليك أمري أشكو إليك غربتي وبعد داري وهواني على من ملكته أمري"⁽²⁾.

يعرب النص المتقدم عن تكرار معاني الأمان بوصفه أشد ما يحتاج إليه الإنسان بدلاله الألفاظ(أخاف، أحذر، احرسني، احفظني...)، وهذا الأمان المرجو جاء في مواطن عدة: في(نفسى ودينى وسفرى وفي أهلى ومالى وولدى ورزقى...). وقد صيغت معاني الأمان من خلال تكريرها بصيغ مختلفة ومعان موحدة ف"التكرار يعطي قيمة تعبيرية للجملة، وهي تأكيد هذه الحقيقة وتركيزها في ذهن المتلقي"⁽³⁾. وعندما يكاد يصل النص إلى نهايته تنفتح أمامه مديات حوارية أوسع بفعل ما منحه إياه أدوات الاستفهام مسبقة بالتفات حاد: (فلا تكني إلى من تكني) لتعطف به إلى تصعيد عاطفي أسهم الجو الحوارى الحاصل في إنضاج التجربة الشعرية وتكثيف أبعادها.

وفي الختام يعود(ع) ليربط خاتمة النص بأوله إذ يقول: (أشكو إليك غربتي وبعد داري) وهي تعادل دعاءه: (فاحرسني وفي سفري فاحفظني..).

والاغتراب هنا يمثل الذروة الدلالية للنص أو هو اختزال لمعاني النص، فجبل عرفة في مكة كما هو معلوم، والذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج يتطلب اغترابا

(1) وظائف اللغة عند رومان جاكبسون: 104.

(2) إقبال الأعمال: 627. و(تبسلني)، والتبسل: أخذ الشيء قليلا قليلا. لسان العرب: مادة(ب س ل).

(3) دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام)(أطروحة دكتوراه)، سمير داود سلمان: 160.

مكانيا في الأقل، وربما كان اغتراب الزاهد في الدنيا واحدا من المعاني التي يرمي إليها النص ولا سيما أنه جاء مقرونا بعبارة: (وهواني على من ملكته أمري). ومن أمثلة التكرار الدلالي في أدعيته أيضا: "اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك إياك أسأل العافية من كل سوء في الدنيا والآخرة"⁽¹⁾. وواضح أن النص تدور معانيه حول التسليم لله والرضا به وطلب الرحمة منه.

وفي نص آخر من أدعيته التي اشتملت عدّة مقاطع تكرارية، يقول: "يا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ورب جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ورب محمد خاتم النبيين وآله المنتجبين ومنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم ومنزل كهيعص وطه ويس والقرآن الحكيم"⁽²⁾.

فالمقطع الأول من النص يدور حول دعاء الله، إله الأنبياء آبائه (ع) السالفين، والمقطع الثاني حول دعاء الله، إله الملائكة الصالحين، والمقطع الثالث حول دعاء الله، رب محمد وآله (ص) وفي هذا المقطع تخصيص لآل الرسول (ص). فضلا عن التكرار الحاصل بين مقدمة النص (يا إلهي) و(آله المنتجبين). وفي المقطع الأخير حول دعاء الله، منزل الكتب السماوية.

2)) الخطبة والتكرار الدلالي: من أمثلة خطبه (ع) التي اشتملت على التكرار الدلالي، ما جاء في إحدى خطبه: "أيها الناس من جاد ساد، ومن بخل رذل وإن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه وإن أعطى الناس من أعفى عن قدرة، وإن أوصل الناس من وصل من قطعه"⁽³⁾.

ومن الجلي أن النص اعتمد تكرارات ضدية تتمحور حول الجود والسماحة مع ملاحظة أن الإمام (ع) استثمر قيما صوتية من خلال حرف المد (الألف) في (جاد وساد) ليضفي على اللفظتين هالة ومدا فضائيا فيشعر المتلقي بحجم السخاء الكرم، ونقيض ذلك اعتمده في بيان صفة الجبن (بخل رذل) وكأني بالإمام (ع) ينهر البخيل وفي هذا مد لشاعرية النص وعمق في التوصيل؛ ومن مثل هذا "عدت اللغة في بعدها الشعري مقياسا نقديا في الموازنة بين قدرات الشاعرية على التوصيل"⁽⁴⁾.

وفي نموذج آخر في هذا الصدد، جاء في إحدى خطبه: "يا ابن آدم، اذكر مصرعك وفي قبرك مضجعك بين يدي الله، تشهد جوارحك عليك، يوم تزل فيه الأقدام وتبلغ القلوب الحناجر، وتبيض وجوه، وتسود وجوه، وتبدو السرائر ويوضع الميزان للقسط"⁽⁵⁾.

لا شك في أن التكرار الدلالي –هنا- يحوم حول مصير الإنسان بعد الموت، أو هي مشاهد يوم القيامة، تمكن النص من خلال هذا النمط من التكرار، الكشف عنها وتوكيد معناها.

(1) مهج الدعوات: 199.

(2) إقبال الأعمال: 628.

(3) كشف الغمة: 222/2.

(4) مستقبل الشعر وقضايا نقدية: 43.

(5) إرشاد القلوب: 74.

(3) الرسالة والتكرار الدلالي: من أمثلة ما جاء من رسائل الإمام (ع) التي انطوت على هذا التكرار، قوله: "وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني؟ فإنما رقاءه الملاقون، المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الجمع، وكذب الغاؤون المارقون، ما أردت حرباً ولا خلافاً، وإنني لأخشى الله في ترك ذلك ومنك ومن حزبك، القاسطين المحليين حزب الظالم، وأعوان الشيطان الرجيم" (1).

وفي هذا النص يدور التكرار حول (وشاية) من الواشين ضد الإمام (ع) إلا أننا نلاحظ أن هناك زخماً من الألفاظ التي تشير إلى الجانب الشعوري والانفعالي وهي متلونة بمعاناته وتجربته مع السلطة الأموية.

(4) الحديث الفني والتكرار الدلالي: مما حوته الأحاديث الفنية من تكرار، ما جاء أحدها: "الأمين آمن، والبريء جريء، والخائن خائف والمسيء مستوحش" (2). إن العنصر الحامل للمعنى التكراري (الاستقامة) هو ما أكد عليه النص مستعيناً بالتساق الموسيقي للألفاظ الذي ميز بين الخير والشر. وبعد ذلك كله يتضح أن قصيدة التأثير في المتلقي ودوام التواصل، من أهم ما شغل تفكير الإمام (ع) في نتاجه الفني التكراري.

ث. الطباق والمقابلة السياقية: إن أصل الطباق والمقابلة هو "ترتيب الكلام على ما يجب فيعطي أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخراً، ويأتي في المواقف بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه" (3). والمقابلة أعم من الطباق (4)، ف"الطباق هو الجمع بين اللفظ وضده في الكلام، وإن المقابلة هي الجمع بين ضدين أو الجمع بين معنيين متضادين في الكلام" (5)، أي "إن بنية المقابلة تعد حالة مكثفة من مجموعة طباقات" (6)، والمقابلة السياقية – كما تشير تسميتها – لا يمكن رصد فاعليتها خارج فضاء سياقها، فللسياق أهمية جوهرية ألحَّ عليها بعض الدارسين، قائلاً: "ولكننا نريد الإلحاح على أننا لا ننتبين هذا النوع من المقابلات إلا في الإطار الذي تزرع فيه ولا نلمس قيمتها إلا بالرجوع إليه" (7).

وأياً كان فإن التقابل بمستوياته المعروفة يعد من وسائل اللغة الجمالية التي تسعى من خلال المقارنة بين حالتين إلى تمييز الظواهر الفنية وإبراز معطياتها الدلالية والشعورية.

وللتقابل حضور مناسب في الأدب الحسيني، إذ تجلّى من خلال الخطب التي اشتملت على الجزء الطاعي منه، فيما تبعت الخطب – عن بعد – بقية الأنواع الأدبية الأخرى، كانت الأدعية في مقدمتها ثم الرسائل والأحاديث الفنية اللذان تشاطرا –

(1) الإمامة والسياسة: 146/1.

(2) نزهة الناظر: 84.

(3) العمدة: 15/2.

(4) ينظر: خزنة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين بن حجة الحموي، شرح: عصام شعيثو: 129/1. والتقابل إجمالاً يعرف اليوم بالتضاد أو التشاكل أو الثنائيات أو التباين، ينظر: الإسلام والأدب: 135.

(5) خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي: 95.

(6) تكوين البلاغة، علي الفرّج: 311.

(7) خصائص الأسلوب في الشوقيات: 102.

تقريباً- الجزء الضئيل من المساحة المتبقية. ولقد جاءت المقابلة السياقية بوصفها نوعاً تقابلياً له حضوره المميز في النصوص الحسينية.

1= الخطبة والطباق والمقابلة السياقية: تقدّم الخطبة في هذا الصدد يأتي متساوفاً مع طبيعة عملها وطريقة أدائها؛ فالخطبة تنشأ من خلال مواجهة مباشرة مع حشد من المتلقين، ولذا فهي تحرز في أخبثها عدداً فنية متنوعة تستعين بها في التوصيل كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن أمثلة الطباق في خطب الإمام (ع) ما ورد في إحداها: "يا ابن آدم تفكر، وقل: أين ملوك الدنيا وأربابها، الذين عمّروا خرابها واحتفروا أنهارها [...] فارقوها وهم كارهون، وورثها قوم آخرون" (1).

فالنص أحدث توتراً من حيث احتفاظ كل من المتقابلين بمنزلته من ضده (2)، بفعل المقابلة بين الفعلين (فارقوها، وورثها) إذ "يزداد التوتر عادة بازدياد النزعة إلى التباعد وينقص بنقصانها" (3)، ومن شأن هذا التباعد بين المعنيين الذي يدور حول تجسيد مفهوم بقاء الحياة وفناء الإنسان، أن يضخ للمتلقى شحنات دلالية توحى إليه بالعمل الصالح من أجل الآخرة؛ لأن الحياة بطبيعتها الكونية تتطلع دائماً إلى التعاطي مع الجديد وتتخلى عن القديم.

ومما جاء أيضاً من الطباق في خطبه (ع) قوله: "أهؤلاء تعضدون وعناً تتخاذلون" (4).

وواضح أن التباعد والتناقض يتجليان في إحدى صورتها، من خلال (التعاضد والتخاذل) اللذين وردا في النص، إلا أن ورودهما مقروناً بـ (هؤلاء/ الأعداء) و (عناً/ أهل البيت) مسبوقاً بأداة استفهامية (الهمزة) ملؤها العجب، يوسع مديات فضاء النص إلى أبعد مدى، بفعل التفاوت بين (هؤلاء) و (نحن) المضمرة في (عناً)، مما يغري القارئ المنتج بالعمل الدؤوب لإملاء وحدات النص دلالياً من خلال ما يمتلكه من خزين ثقافي لأدب الإمام (ع) والخبرة في رصد تجليات هذا التباين، وما يوحيه هذا التعبير من تدفق شعوري وكظم نفسي تناخى لأجله مخرجاً الهواء لتفريغ شحناته ولفظ كلماته.

وهذا الأمر أجده نافياً لما ذهب إليه أحد الدارسين المهتمين بهذا الشأن، إذ ذكر في معرض تناوله لهذا النوع من التقابل (الطباق) أن المبدع "في هذا النوع من المقابلة، يستسلم لضغط المعجم المشترك على إمكانيات التصرف الخاصة وإرسال الكلام فيصغر بذلك حظه من التفنن فيه ويعظم شأنه في استغلال الرصيد اللغوي العام" (5).

وباعتماد النتيجة السابقة – على فرض صحتها- يمكننا القول: إن فنية الطباق في النص الأدبي تتأثر بفنية الناص وخياله الشعري وعمق تجربته الشعرية ودقة توظيفه للمفردة من خلال السياق.

(1) إرشاد القلوب: 74/2.

(2) ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات: 123.

(3) صورة بخيل الجاحظ الفنية، أحمد بن محمد بن أمبيريك: 79.

(4) الملهوف على قتلى الطفوف: 156.

(5) خصائص الأسلوب في الشوقيات: 98.

ومن النصوص التي اشتملت على مقابلات سياقية، ما ورد في إحدى خطبه (ع) الوعظية: "كأنكم ببغيات طوارقه فتنقلكم من ظهر الأرض إلى بطنها ومن علوها إلى أسفلها ومن أنسها إلى وحشتها ومن روحها وضوئها إلى ظلمتها ومن سعتها إلى ضيقها"⁽¹⁾.

ولا ريب في أن المتلقي يلحظ أن العلاقة في هذا النوع من التقابل هي علاقة توزيعية. وبتعبير آخر، إن ملكة المبدع وسعة أفق المتلقي يتجليان أكثر ما يكون في هذا النوع من التقابل. ويمكن تجسيد ذلك بالخطاطة الآتية:

فالموت الذي يتخطف الأرواح وإن تعددت طرائقه، يستقر على صورة واحدة بناء على نتيجة فعله، وكذلك الأرض فهي مستقرة على صورتها الأزلية وهي

(1) تحف العقول: 171.

بطبيعتها لها وجهان: الأول، ظاهر جميل يتمتع به الإنسان، والآخر خفي مؤلم، والنص إنما يسعى لكشف هذا الوجه، الوجه المسكوت عنه، الذي يحاول الإنسان - ولأسباب دنيوية- أن ينساه أو يتناساه، ولذلك استحضر النص تلك الصور المتقابلة المتعددة (أ) و (ب) من خلال دفعه إلى أجواء التجربة وتمثل معانيها الموحشة، لتسهل تهيئته للعمل الصالح وبث روح الاستعداد للأخرة فيه وبقلب مطمئن.

ومن أمثلة المقابلات السياقية-أيضا- ما جاء في إحدى خطبه: "وإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برما"⁽¹⁾.

إن هذه الفقرة التي ألقاها (ع) قبل واقعة كربلاء مبنية على ثنائية منشؤها طلب الحرية بكل ثمن، فثنائية الحرية والتمن عند الحسين (ع) تعني أن الموت يساوي السعادة، ولكن مع الله، وأن الحياة تكون برما حينما تكون مع الظالمين، فدقة موقع لفظة (الظالمين) في السياق التركيبي أوحى بموقع لفظة (الله) سبحانه غير المذكورة؛ ومثل هذا يتطلب مشاركة المتلقي وتفاعله مع النص بصورة كبيرة.

ولا شك في أن اكتناز العبارة جماليا ودلاليا يعود في أولا إلى المقدرة الأدبية للإمام الحسين (ع) بوصفه منتجا للنص ومسؤولا عن سننها، ومن ثم فهو مسهم رئيس في تفتق أبعادها الجمالية على اختلاف مستوياتها المنتظمة أدبيا.

2= الدعاء والطباق والمقابلة السياقية: مما ورد في أدعيته (ع) من طباق، ما جاء في أحد نصوصه: "اللهم إنك تكفيني من كل أحد ولا يكفيني أحد منك"⁽²⁾.

فستان بين كفاية الله سبحانه وكفاية البشر، وهذا البون الشاسع وظفه الإمام في النص لأجل تحفيز المتلقي لهضم العبارة وترسيخ دلالاتها.

ومما جاء في النصوص الدعائية لهذا النوع من المقابلة قوله (ع): "وأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني [...] وما أقلت الأرض مني ونومي ويقظتي وسكوني وحركتي وحركات ركوعي وسجودي"⁽³⁾.

فيبدو واضحا أن المقابلة السياقية تجسدت من خلال ما قدمته من صور حركية متقابلة أفصحت عن يقين الداعي بأن الله يعلم منه كل شيء؛ يعلم حركاته وسكناته ونومه ويقظته... وهذا الأمر يتطلب أن يستحيي العبد من ربه الذي يراه في كل حال وأن لا يفارق العمل الصالح.

3= الرسالة والطباق والمقابلة السياقية: ومما جاء في رسائله (ع) من طباق، ما كتبه إلى أهل البصرة: "وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت"⁽⁴⁾.

إن لفظتي (أميتت) و (أحييت)، وما بينهما من اصطراع دلالي، ولاسيما أن "المقابلة نوع من التحدي بين المعاني والمنافسة في الظهور"⁽⁵⁾، تبعثان - مع لفظتي (السنة) و (البدعة) - على وخز المتلقي وحمله على رد فعل معاكس لواقع الحال

(1) ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 214، وينظر: الملهوف على قتلى الطفوف: 138.

(2) مهج الدعوات: 199.

(3) إقبال الأعمال: 626.

(4) وقعة الطف: 107.

(5) الأسلوب: 197.

الخطير. بمعنى آخر، العمل على إحياء ما مات من السنة، وإماتة ما أحيى من البدعة.

ومما ورد في إحدى رسائله (ع) التي اشتملت على المقابلة السياقية: "مَنْ حَاولَ أمراً بمعصية الله تعالى، كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر" (1).

لفظة (أفوت) قابلت لفظة (أسرع) ولفظة (يرجو) قابلت (يحذر)، إذ جسدت هذه المقابلة التضاد بين توقع العاصي لنتائج عمله والواقع الذي أتى على ذلك التوقع. 4= الحديث الفني والطباق والمقابلة السياقية: ومن أمثلة ما ورد من طباق في الأحاديث الفنية، قوله (ع): "شكرك لنعمة سائلة يقتضي نعمة آنفة" (2).

نلاحظ من خلال النص ارتقاء حالة الشد والتنافر بين المعنيين المتقابلين (نعمة سائلة) و(نعمة آنفة)؛ لأن المعنيين قيد الترادف، والتقابل عندما يأتي مشابهاً للترادف، إنما يأتي "للتأكيد المعنى [بوساطة] التكرار" (3). وبذا يكون التقابل موجهاً إلى "العقل وإلى المنطق أكثر مما هو موجه إلى العاطفة" (4).

ومما جاء في أحاديثه الفنية مشتملاً على المقابلة السياقية، حديثه الفني (ع) الذي ودع به أبا ذر عندما سُير إلى الربرة، إذ ورد فيه: "رحمك الله يا أبا ذر إن القوم إنما امتهنوك بالبلاء لأنك منعهم دينك فمنعوك دنياهم، فما أحوجهم غداً إلى ما منعهم وأغناك عما منعوك" (5).

يكشف النص عن أن المقابلة السياقية فيه قد أخذت بعداً (زمكانياً)؛ فزمن الدنيا (زمن فعل الإبعاد) هو غير زمن الآخرة (زمن رد الفعل)، وهكذا بالنسبة للمكان، فمعادلة المنع والمنع المضاد في الدنيا يأخذ صورة مقابلة في الآخرة. بمعنى آخر، إن قراءة معادلة المنع في الدنيا تستبطن قراءة معاكسة في الآخرة، وأرى أن هذا التوسع الزمني في التقابل الضدي حالة شعورية تضافرت مع الطاقة التعبيرية للدلالة على حالة الفقد التي كان يعيشها الإمام (ع).

بقي لنا أن نذكر أن هناك نوعاً من التقابل بين المقاطع أو الوحدات الكبيرة في النصوص الحسينية، وقد انمازت بقلتها في الأدب الحسيني، ومن هذا القليل ما جاء في دعاء عرفة: "أنت الذي أنعمت، أنت الذي أحسنت، أنت الذي أجملت، أنت الذي مننت، أنت الذي أكملت" (6)، وهكذا يستمر تدفق الفقرات حتى تصل إلى ست وعشرين فقرة، بعدها ينتقل الإمام من المخاطبة إلى التعبير عن نفسه، ليرد في الفقرات الأولى بفقرات مقابلة، جاء فيها: "أنا الذي أخطأت، أنا الذي أغفلت، أنا الذي جهلت، أنا الذي هممت، أنا الذي سهرت، أنا الذي اعتمدت" (7)، وتستمر هذه الفقرات إلى إحدى عشرة فقرة، لتنتج إحدى عشرة مقابلة سياقية ليس في المعنى فحسب بل في التركيب والأدوات أيضاً.

(1) أصول الكافي: 319/2.

(2) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 80.

(3) صورة بخيل الجاحظ الفنية: 80.

(4) م. ن: 8.

(5) مكارم الأخلاق: 239..

(6) إقبال الأعمال: 629.

(7) م. ن: 629.

وأحسب أن هذا النوع من المقابلة قد حقق في هذا النص ما نسميها مراجعة مع النفس وبيان سيرتها من جانب ومراجعة أنعم الله من جانب آخر، فهذا النوع يمنح المتلقي قدرا من التوازن والاستقراء في التفكير وإعادة شريط الأعمال من دون الحاجة إلى التنقل المتكرر بين طرفي معادلة المقابلة كما في المقابلة السياقية. ونتيجة ما تقدم تُبيّن لنا أن التقابل بأنواعه هو من مستويات التعبير الرئيسة في مباني كلمات الأدب الحسيني ومعانيها.

خاتمة: كشف البحث في أبرز التراكيب اللغوية التعبيرية في النصوص الحسينية عن رقي جمالية لغتها وغناها الدلالي؛ إذ وظف الإمام(ع) في تلك النصوص تراكيبه التعبيرية بشكل ساعد في إضفاء روح المعرفة الشاعرية للنص، كما أن السياق إلى جانب تحديده لنوع التركيب اللغوي المعتمد في بناء النص، غالبا ما أنبأ عن حضور التجربة الشعورية في نصوصه(ع) بوصفها بنت اللحظة التأملية للناص إذ استطاعت أن تخلق جوا يشيع فيه التألق التعبيري الفني من خلال تلامس جمال الأداء وجمال الحقيقة.

المبحث الثاني

قضية الشاعرية

مدخل: لأجل الكشف عن العناصر الشاعرية في أدب الإمام الحسين (ع) ومدى أثرها في أدبية نصوصه، نزعنا إلى بيان مفهوم الشاعرية في نظرية الأدب، وأهميته، تأسيساً لقاعدة ينطلق البحت منها.

إن النص الأدبي خطاب "تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام"⁽¹⁾، مما يعني أن الوظيفة الشعرية ليست حكراً على الشعر فقط بل مرتبطة ببقية الأنواع الأدبية الأخرى⁽²⁾، إذ "يعتمد النص الأدبي في وجوده- كنص أدبي- على شاعريته، على الرغم من أن النص يتضمن عناصر أخرى ولكن (الشاعرية) هي أبرز سماته وأخطرهما"⁽³⁾. وتلك الوظيفة الشعرية تسمى حينما تهيم في النص، (الشاعرية)⁽⁴⁾.

ولا يكف المتتبع كثيراً حين يتغنياً تلمس روافد الشاعرية ومنبعها حتى يجد أنها "تنبع من اللغة لتصف هذه اللغة فهي: لغة عن لغة"⁽⁵⁾، و"هي حدود الأسلوب لهذا النوع من اللغة"⁽⁶⁾، فلذا صارت الشاعرية تستوعب اللغة وما وراء اللغة مما تحدثه الإشارات من موحيات لا تظهر في الكلمات ولكنها تختبئ في مساربها⁽⁷⁾.

من هنا ندرك مائز الشاعرية عن اللغة العادية، فالشاعرية- أو كما يسميها عدد من النقاد (الشعرية) على طريقة كمال أبو ديب⁽⁸⁾، لا على طريقة ياكوبسن وتودوروف⁽⁹⁾ وغيرهما- تتجلى في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة وليست مجرد بديل عن الشيء المقصود ولا كانبثاق عن الأفعال⁽¹⁰⁾، فضلاً عن أن الشاعرية لا تنحبس دائماً في فضاء الكلمة الواحدة أو في جزء من أجزاء النص "بل هي فوق ذلك في كليته، وجلوس كل جزئية في مكانها من الكلية أيضاً"⁽¹¹⁾، فغالبا "ما تكون المفردات أو الصور الجزئية غير مثيرة أو مؤثرة بذاتها، ولكننا حين نتمثلها في الوحدة الشاملة، والصورة الكلية تستكشف منها الأعاجيب"⁽¹²⁾.

وتأسيساً على ما سبق غدت اللغة كوة الشاعرية في الأدب ومتنفسها "غير أن هذه الوظيفة لا تستطيع أن تنقل الإحياء الوظيفي إلا من خلال أطر تركيبية

(1) الأسلوب والأسلوبية، د. عبد السلام المسدي: 88.

(2) ينظر: قضايا الشعرية: 27، والشعرية، تودوروف: 4، ونظرية البنائية في النقد الأدبي: 389.

(3) الخطيئة والتكفير: 22.

(4) ينظر: قضايا الشعرية: 19.

(5) الخطيئة والتكفير: 20.

(6) ظواهر فنية في لغة الشعر العربي الحديث، علاء الدين رمضان السيد: 15.

(7) ينظر: الخطيئة والتكفير: 20.

(8) في الشعرية، كمال أبو ديب: 14. أفدت هذا التدقيق في الرأي من الأستاذ المشرف.

(9) ينظر: قضايا الشعرية: 27، 31، 35 وغيرها، والشعرية: 40، 64، 84 وغيرها.

(10) ينظر: الشعرية العربية: 58.

(11) شعرية النثر في صدر الإسلام: 109.

(3) الشعر العربي المعاصر، د. عز الدين إسماعيل: 145.

مختلفة"⁽¹⁾، قادرة على حمل ما يتفاعل والقدرة التأويلية للمتلقي، بوصفها جزءا مهما من الفضاء المنتج للقيم الجمالية والفنية. ولقد كان الإيقاع والصورة الفنية، من أهم الأطر التركيبية التي تمكنت من نقل القيم الجمالية في أدب الإمام الحسين(ع) والتأثير في المتلقي.

(1) الصورة الشعرية في شعر عبيد الأبرص:12.

أولاً/ = الإيقاع:

مدخل: يشكل الإيقاع سمة جلية من سمات أدبية النص، وهو "وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام"⁽¹⁾، والتي تصدر "عن اندفاع التأثيرات الصوتية للألفاظ وتتابع النبرات"⁽²⁾، و"النبر عامل مهم من عوامل التوصيل والتأثير"⁽³⁾، فهو "أحد العوامل المكونة للشعرية"⁽⁴⁾، بوصفه تلونياً صوتياً يصدر عن الألفاظ المستعملة ذاتها⁽⁵⁾.

والإيقاع ظاهرة مألوفة شائعة في حياة الإنسان "فهناك إيقاع للطبيعة وآخر للعمل وإيقاع للإشارات الضوئية"⁽⁶⁾، والإيقاع يؤدي فيما سبق – وفي غير ما سبق- مهمة مزدوجة؛ فهو نظام جمالي ذو معطيات حياتية، وكذلك الإيقاع في اللغة فهو يحمل وظيفتين في آن واحد؛ أولاهما ربط مكونات النص بعضها ببعض، والأخرى التأثير في المتلقي⁽⁷⁾، إذ يمكن استثمار الوظيفة الصوتية للإيقاع في الكشف عن علاقة الصوت بدلالة اللفظ الموقَّع، حالما يتحقق التوافق بينهما بفعل التطويع الحاصل بين اللفظ والمعنى (بين الدال والمدلول)⁽⁸⁾.

وتتكشف أهمية الجانب الإيقاعي، بإبراز أهمية تلك القضايا الجوهرية التي تنتقل من خطاب الباث إلى المتلقي؛ وهي طبيعة تشكل الخطاب أو التركيب الصوتي وعلاقته بالدلالات التي يسعى الخطاب إلى تكريسها⁽⁹⁾، مع التشديد على أنه ليس هناك معانٍ جوهرية للأصوات ما لم تبين على التراكم وعلى السياق العام أو الخاص⁽¹⁰⁾.

وليس هناك أدل على درجة خطورة الإيقاع وأثره المدهش في النفس من أن جاءت جمل القرآن الكريم (موسقة) ومتفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه⁽¹¹⁾.

ولم تغب أهمية الإيقاع عن عناية الأدب الحسيني الذي انطوى على أغلب عناصر الإيقاع؛ ومن أبرزها- بحسب مساحة العنصر المتحققة:

أ. السجع: وهو ظاهرة أسلوبية تؤلف ركناً أثيلاً في التشكيل الإيقاعي للنصوص الأدبية. وقد حُدَّ بأنه: "تواطؤ الفواصل في الكلام المنشور على حرف واحد"⁽¹²⁾،

(1) النقد الأدبي الحديث: 461.

(2) لغة الشعر الحديث في العراق، د. عدنان حسين العوادي: 27.

(3) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي، محمد رضا مبارك: 192- 193.

(4) م. ن: 193.

(5) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي: 374.

(6) نظرية الأدب: 212.

(7) ينظر: مفهوم الأدبية في التراث النقدي: 139.

(8) ينظر: تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي: 41.

(9) ينظر: منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري، د. قاسم البريسم: 10 (في المقدمة).

(10) ينظر: دينامية النص، د. محمد مفتاح: 63.

(11) ينظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب: 74- 75، وعصر القرآن، محمد مهدي البصير: 19.

(12) المثل السائر: 190/1.

ولذلك نُظر إليه على أنه "صورة نغمية يراد بها جعل الكلام بصيغة متوافقة"⁽¹⁾. وللسجع جذور تغور في أعماق التراث الأدبي. والسجع لا يقف عند جرس الجملة بل يتخطى بناها الصوتية ومعانيها الجزئية لينتج معاني يتأثر تدفقها بدرجة اكتناز النص وسياقه وبراعة متلقيه، من حيث إنه يُستعمل - كما هو مفترض- لدواعٍ دلالية، وقد تنبّه عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٠٠هـ أو ٤٠١هـ) على ذلك، إذ قال: "إنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه"⁽²⁾. فالمائز الفني المهم في السجع أن لا يكون متكلفاً، وما يستتبع ذلك من قهر المعاني على متابعة الألفاظ⁽³⁾.

وقد وظف الإمام الحسين (ع) عنصر السجع في عدد كبير من نصوصه بوصفه عنصراً إيقاعياً في صورته الصوتية، وقد تقدمت الأدعية لتشغل المساحة الأوسع، تتبعها الخطب، فيما قاربت الرسائل والأحاديث الفنية أن يختفياً من تلك المساحة. ويبدو أن لهذا التباين الكبير في مساحات السجع المستعمل في الأنواع الأدبية عند الإمام الحسين (ع)، ما يسوغه من أسباب؛ فرسائله غالباً ما كانت في قضايا محددة اعتمد لأجلها اللغة المباشرة ذات العبارة المشرقة لتوصيل ما يصبو إليه بدقة ووضوح. فيما حدثت - وإلى أمد بعيد - طبيعة بنية الأحاديث الفنية من أن يضطلع السجع فيها بمساحة ملحوظة.

وأما تصدّر الأدعية في المساحة، فيأتي - كما أرى - "استجابة للموسيقا الوجدانية في قلوب المتبتلين"⁽⁴⁾، فالدعاء يقترن بعنصر التلاوة التي تتطلب إيقاعاً يتناسب مع وحداته الصوتية⁽⁵⁾.

ولا يخفى في أن الخطب تتكئ في نهجها على استقطاب المتلقي عن طريق الإثارة والمتعة والإقناع، مستعملة الصوت الذي يبرز فيه السجع بروزاً كبيراً. وقد أخذ السجع في النصوص الحسينية أكثر من صورة اعتمد البحث على أكثرها شيوعاً، ومنها:

السجع المتوازي: السجع المتوازي من أشهر صور السجع، وفيه تتفق الفاصلتان أو الفواصل في الوزن والتقفية⁽⁶⁾. ودلالة التعريف تشير إلى ما يتطلبه هذا النوع من السجع من مهارة في الانتقاء، ومن تفنن في التركيب، وإلى ما يستلزمه من متانة الرصيد اللغوي لصاحبه⁽⁷⁾.

الدعاء والسجع المتوازي: ومن أمثلة هذا اللون من السجع، ما نجده في دعاء عرفة: "الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع، فطر أجناس البدائع، وأتقن بحكمه الصنائع، ولا يخفى

(1) جرس الألفاظ، ماهر مهدي هلال: 232.

(2) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 11.

(3) ينظر على سبيل المثال، كتاب الصناعتين: 267، ومفتاح العلوم، السكاكي: 432.

(4) النثر الفني في القرن الرابع الهجري: 66/1.

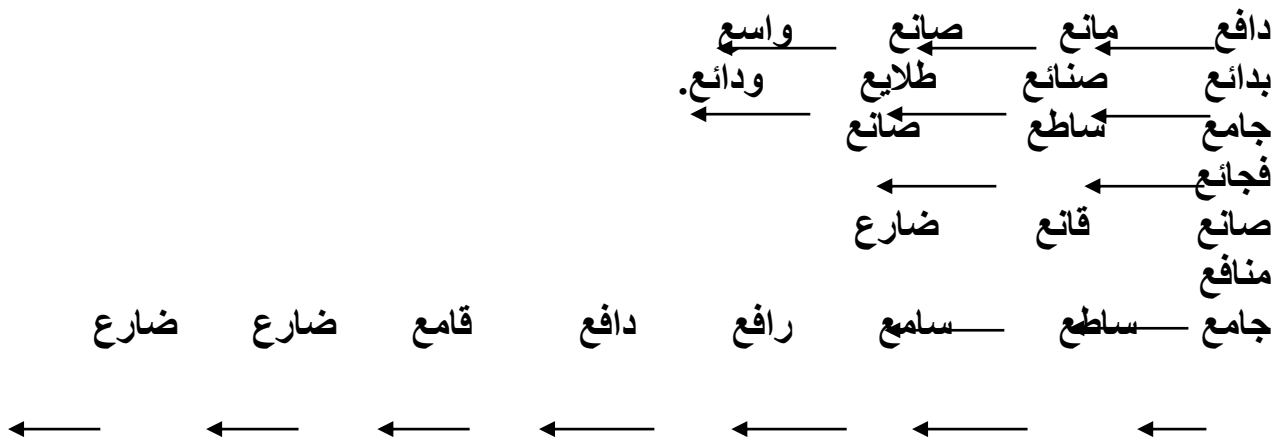
(5) ينظر: تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 37.

(6) ينظر: حسن التوسل في صناعة التوسل: 209.

(7) ينظر: المناجيات وأدعية الأيام عند زين العابدين (ع) (رسالة ماجستير)، إدريس طارق: 44.

عليه الطلائع، ولا تضيع عنده الودائع، أتى بالكتاب الجامع، وبشرع الإسلام النور الساطع، وهو للخليقة صانع، وهو المستعان على الفجائع، جازي كل صانع، ورأى كل قانع، وراحم كل ضارع، ومنزل المنافع، والكتاب الجامع، بالنور الساطع، وهو للدعوات سامع، وللدرجات رافع، وللكربات دافع، وللجبابرة قانع، وراحم عبدة كل ضارع، ودافع ضرعة كل ضارع، فلا إله غيره، ولا شيء يعدله⁽¹⁾.

ولتسليط الضوء على الأبعاد العلائقية لموسيقى النص بغية معرفة ما يتيسر من دلالات الامتداد الإيقاعي للنص، نعرض الألفاظ بطريقة أخرى:



ومن الواضح أن المتلقي أمام فضاء إيقاعي، شكل صوت العين فيه بؤرته الصوتية، وهو من الأصوات المجهورة التي تحتاج إلى جهد عضلي أقل⁽²⁾. والجهر من خصائص الأصوات التي يمتدحها العرب في الخطيب⁽³⁾، إذ يأتي متساوقاً ومعاني القوة والشدة⁽⁴⁾، زيادة على ما انطوى عليه هذا الصوت في النص من دلالات العز والعلو والمنعة إلى جانب العطف والعون والعطاء وصولاً إلى عدله (سبحانه)، وقد عمقت تلك المعاني التناوب بين النفي والإثبات التي جرت عليها مقاطع النص.

(1) مهج الدعوات: 624- 625.
(2) ينظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس: 32.
(3) ينظر: البيان والتبيين: 120/1 - 121.
(4) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: 198.

وتلك السمات جميعها تأتي متماهية وسياق النص، فدعاء عرفة لما فيه من مناسبة دينية لها قدسيته وأجوائها الروحية التي يُحييها جمع حاشد من المسلمين، قد تطلب هذا المستوى الجمالي والإيقاعي.

وبمعينة عبارات النص، نلاحظ ما حققه من تناغم تركيبى استتبع تناغما إيقاعيا نتيجة تماثل أصوات نهايات المقاطع، إذ شكل مقاطع موسيقية تطول وتقصّر بحسب ما تتطلبه سياقات النص الداخلية محققة تلويها تركيبيا وتنوعا صوتيا يتناغم مع الإيقاع العام للنص.

وقد حرص (ع) على إحداث هذا التلوين بكسر رتابته بمقطع مختلف إيقاعيا تارة، ويكمّله تارة أخرى، طلبا للتنويع الموسيقي الذي شكل رافدا مهما من روافد شاعرية النص، فضلا عن أثره الجلي في نفس المتلقي. وربما تلمس النص- من أجل الإبقاء على النمط الصوتي لمدة أطول- أن كرّر بعض مفرداته كلفظة (صانع) بشكل متناوب مبرزاً أثراً دلالياً يفضي إلى جميل صنعه تعالى.

ويبدو أن فاعلية الجرس الموسيقي وحلاوته في النص قد طغت على التباين الحاصل في أطوال فقراته وأوزانها. وهكذا تضافر الإيقاع التركيبى والصوتي في الناتج الدلالي، مع التنبيه على أن النص لو عرض بطريقة عمودية لتجلى شكله الذي يشبه مقطوعة شعرية موحدة القافية مما يجعل ارتباطها بالموسيقى أو الشكل الموسيقي ارتباطاً عضوياً.

ومع اليقين بأن النصوص الحسينية، قد نأت بنفسها عن تكلف السجع- وهذا ما تؤكدّه أغلب تلك النصوص- نجد أن السياق الذي ينبه على إبراز الأفعال الإلهية من خلال تقديم المتعلق على المتعلق به، قد أسهم في أن يتلمس الإمام (ع) السجع في هذا النص، وآية ذلك أن قدم النص أجزاء الجمل التي تستحق التأخير طلباً للسجع كما هو واضح من النص (وهو للخلقة صانع...) وهو للدعوات سامع وللدرجات رافع). وبعد ذلك يصل النص إلى إيقاع جديد وبتكوين مختلف: (فلا إله غيره ولا شيء يعدله)، لتشعرنا موسيقاه بنهاية المقطع السابق، وتنبهنا على انتقاله إلى مقطع آخر له خصوصياته المستقلة في هذا الدعاء الطويل.

ومن أدعيته (ع) التي حفلت بهذا النوع من السجع، قوله: "يا من شأنه الكفاية، وسراذه الرعاية، يا من هو الغاية والنهاية"⁽¹⁾.

ب= الخطبة والسجع المتوازي: ونجد (موسقة) السجع المتوازي فقرات عديدة، في خطبه (ع) كذلك. جاء في إحداها: "يا نافع، إن من وضع دينه على القياس لم يزل الدهر في الالتباس، سائلاً ناكباً عن المنهاج ظاعناً بالاعوجاج، مائلاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل..." لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس"⁽²⁾.

إن توقيع الفقرات وتلوينها موسيقياً في النص- فضلاً عن التلاؤم النغمي الناتج عن تساوق ألفاظ كلمة الفاصلة- أسهما في تكثيف المعنى وإيضاح الدلالة إذ "تعد

(1) مهج الدعوات: 356.

(2) ترجمة ربحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق: 157-158.

الصورة للكلمات من بين أكثر الأحداث الذهنية وضوحاً⁽¹⁾. والصورة التي كان يتغيا (ع) توصيلها إلى ذهن المتلقي هي تنزيهه لله تعالى عن صفات البشر. وعلى الرغم من أن الإمام في خطبته هذه كان بصدد عرض ظاهرة عقائدية تستلزم المنطق الذي يحرص على التعريف والشرح، تطلب السياق أن يُصاغ النص على الفواصل المقفاة؛ لأنه (ع) أمام خطيب معروف (نافع)، والخطابة آنذاك – ولاسيما الدينية- تقتزن بالعناية في أحد عناصرها (بالإيقاع) ومنه السجع⁽²⁾. ((**السجع المطرف:** وهناك نوع آخر من السجع تخلل النصوص الحسينية، إلا أن حضوره كان قليلاً، يعرف هذا النوع بالسجع المطرف.

وفيه تكون نهاية الفواصل ملتزمة بحرف واحد دون التقيد بزنة عروضية⁽³⁾. ومن أمثلة هذا النمط، ما جاء في أحد أدعيته: "اللهم إني أسألك توفيق أهل الهدى [...] وأهل الجزع حتى أخافك، اللهم مخافة تحجزني عن معاصيك، وحتى أعمل بطاعتك عملاً استحق به كرامتك، وحتى أناصحك في التوبة خوفاً لك"⁽⁴⁾، ففي هذا النص نلاحظ ضعف التلاؤم الصوتي بين الألفاظ الموقعة بسبب إيقاعية هذا النمط السجعي، إذ اعتمد على الاتحاد في حرف واحد مما ينتج نغماً ضئيلاً⁽⁵⁾، وتكرار حرف المخاطبة (الكاف) يوحي بشدة الإلحاح في الدعاء، إذ تمحور حول طلب الصفح والرضا، والإلحاح بالدعاء من أهم شروطه.

((**السجع المرصع:** وهناك نوع آخر من السجع في أدب الإمام (ع) يعرف بالسجع المرصع، وهو "اتفاق القرينتين أو أكثر وزناً وتقفية"⁽⁶⁾، إلا أنه كان الأقل مساحة من بين الصور الأخر للسجع.

ومن ذلك ما ورد في أحد نصوصه (ع): "أيها الناس، نافسوا في المكارم وسارعوا في المغام"⁽⁷⁾.

ومع ما يوفره هذا النوع السجعي من كثافة إيقاعية، إلا أن في استعماله زيادة في التكلف كما يرى ابن الأثير⁽⁸⁾.

ب. الجناس: تجمع المصادر على مفهوم مشترك للجناس بوصفه معنى مختلف للفظتين متشابهتين في التلفظ⁽⁹⁾، فجوهر التجنيس يقوم أساساً على الاشتراك

(1) تشريح النقد، نورثروب فراي: 117.

(2) ينظر: تطور الأساليب النثرية، أنيس المقدسي: 7، والرسائل الفنية في عصر صدر الإسلام حتى نهاية العصر الأموي: 309، وتاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 316.

(3) ينظر: حسن التوصل إلى صناعة الترسل: 209، والتلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الخطيب، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي: 398.

(4) مهج الدعوات: 198.

(5) ينظر: جرس الألفاظ: 223، وتكوين البلاغة: 244.

(6) ينظر: كتاب الصناعتين: 263.

(7) كشف الغمة: 222/2.

(8) المثل السائر: 255/1.

(9) ينظر: مفتاح العلوم: 426، والمثل السائر: 239/1، والمعجم المفصل في علوم البلاغة، إعداد: د. إنعام نوال عكاوي، مراجعة: أحمد شمس الدين: 466.

اللفظي⁽¹⁾. بمعنى آخر، إن بنية الجنس تعتمد مبدأ التوافق على مستوى السطح ومبدأ
التخالف على مستوى العمق⁽²⁾.

والجناس أحد الصياغات الشعرية التي يتوصلها الباث لإغناء نصه موسيقياً⁽³⁾،
والباث بهذا "يستعين بأقوى الطرق الإيحائية؛ لأن الموسيقى طريق السمو بالأرواح،
والتعبير عما يعجز التعبير عنه"⁽⁴⁾، فبين دقائق النظام الصوتي تختبئ الدلالات التي
يروم المبدع توصيلها بتلك الصياغة الشاعرية. وكان حظ مساحة تلك الصياغة
الشاعرية (الجناس) وطريقة توزيعها بين مساحات الأنواع الأدبية الحسينية مشابها
لما كان عليه السجع وللمسوغات ذاتها التي أسلفنا ذكرها.

أولاً: الجنس الاشتقاقي: وفيه "يجمع اللفظين الاشتقاق"⁽⁵⁾، وقد برز في الأدب
الحسيني بروزاً واضحاً بما يشير إشارة جلية إلى الأثر الذي يحدثه رنين الألفاظ
وجرسها عند الإمام (ع)، مما يدفعه إلى إيراد مشتقات – في أثناء خطاباته – من هذه
اللفظة أو تلك؛ وذلك لأن من طبيعة الكلمات التي تستعمل في سياق تعبير معين،
أن تحمل معها "هالة من المفردات والمتجانسات، والكلمات لا تكتفي بأن يكون لها
معنى فقط بل توحى بمعاني كلمات تتصل معها بالصوت أو بالمعنى وبلاشتقاق"⁽⁶⁾،
مما هو مرتبط بتداعي الألفاظ وتداعي المعاني⁽⁷⁾.

كما أن عمق معاني أغلب النصوص الحسينية وتعددتها حول الأصل يجعل
اللجوء إلى الجنس الاشتقاقي وسيلة لتحديد مراتب المعنى أو الحال الذي يعبر عن
تجربة شعورية معينة.

ملاحظة/الدعاء والجناس الاشتقاقي: ومن أمثلة الجنس الاشتقاقي، ما جاء في قنوته
(ع): "وإني لأعلم مما علمتني مما أنت المشكور على ما منه آويتني وإليه أوبتني،
اللهم وإني مع ذلك كله عائد بك لأنذ بحولك وقوتك راض بحكمك الذي سقته إلي في
علمك جارٍ بحيث أجريتني قاصداً ما أممتني غير ضنين بنفس في ما يرضيك عني
إذ به قد رضيتني ولا قاصر بجهد عني إليه ندبتني مسارح لما عرفتني شارع فيما
أشرعتني مستبصر في ما بصرتني مراعٍ ما أروعيتني فلا تخلني من رعايتك ولا
تخرجني من عنايتك ولا تقعدني عن حولك ولا تخرجني عن مقصد أنال به إرادتك
واجعل على البصيرة مدرجتي وعلى الهداية محجتي وعلى الرشاد مسلكي حتى
تنيلني وتنيل بي أمني، وتحل بي على ما به أردتني"⁽⁸⁾. وتفحص النص يفصح
عن كثافة تجنيسية (اشتقاقية) موزعة بعناية وقصدية في فضاء النص، فمن حيث
النظرة الشمولية للنص، نرى انشطار بنيته إلى جزئين تركيبين متباينين؛ الأول وهو

(1) ينظر: جرس الألفاظ: 270.

(2) ينظر: البلاغة العربية - قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب: 273.

(3) ينظر: دبر الملاك، محسن أطيمش: 342.

(4) النقد الأدبي الحديث: 38.

(5) الإيضاح: 542، وينظر: الطراز، العلوي: 562.

(6) نظرية الأدب: 220، وينظر: النثر الصوفي – دراسة فنية تحليلية، د. فائز طه عمر: 282.

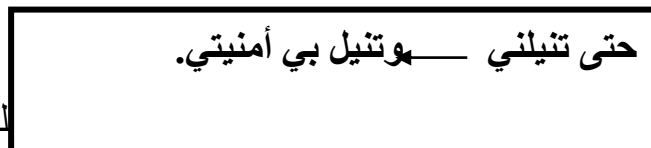
(7) ينظر: جرس الألفاظ: 273، وينظر: النثر الصوفي – دراسة فنية تحليلية: 283.

(8) مهج الدعوات: 68.

الطاغي، يمكن أن نسميه مقدمات تمثل الطاعات ثيمته، ولتقريب الصورة نعرض تراكيب الجنس الاشتقائي في النص (الجزء التركيبي الأول):



وهكذا نلاحظ أن هذا الجزء ^{المتضمن أيضا على بنية داخلية، وهذه واحدة من سمات} النصوص المحققة لأدبيتها "فانص ^{مرباع} شمولية ^{البنية الداخلية}" (1)، جسدتها تراكيب متعددة تضافر فيها الجنس الاشتقائي وأنواع من السجع ولاسيما (المطرف) فضلا عن تداعي أغلب حروف كلمات النص الآخر، لتفعيل الإيقاع وإثرائه موسيقيا إذ يستشعر المتلقي أن التغير النسبي في نوع النغمة مقرون بتغير نوع النغمة التي حرص الناص على إبرازها امتنانا لله تعالى وعرفانا بفضلها، كما يوحي النص ولاسيما من خلال تراكيبه التجنيسية، بحالة من الاستقرار النفسي والتوازن الروحي، كما هو واضح من نزوع الإيقاعات إلى التوازن، ومرد ذلك- كما أحسب- امتثال الداعي وبنحو عالٍ لأوامر الله تعالى ونواهيه، وهذا يمثل أبرز آثار الدعاء (2). وإجمالا، نذكر أن معاني التجنيس على يمين المخطط معان جزئية تخص الداعي (الإمام) مستمدة من معاني كلية تقع إلى شمال المخطط تفرد بها الله تعالى. بعد ذلك ينتقل النص إلى الجزء التركيبي التجنيسي الأصغر، الذي يمكن أن نسميه الجزاء أو نتائج المقدمات، وهذا الانتقال نلمسه أيضا من خلال تبدل النمط الموسيقي للمقطع:



ولم يذكر (ع) تلك انسيابية المقطع إيقاعيا وحرصا على إسهام الآخر في كشف الدلالة وإغرائه بالمشاركة في إنتاج الدلالات المحمولة صوتيا.

(1) الخطيئة والتكفير: 90.

(2) ينظر: في ظلال الدعاء: 150.

ونجد في نموذج آخر من أدعيته (ع) أنه اشتمل أيضا على تجنيس اشتقاقي، جاء فيه: "إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيرا في فقري؟ إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولا في جهلي" (1).

وواضح أن توازن فواصل التركيبين قد ساعد في إنتاج توازن ذي قيمة إيقاعية تعززت معانيها بفعل اعتماده تضادا لفظيا: (الجهل والعلم- الغنى والفقر) فضلا عن توظيف صيغ المبالغة: (جهولا- فقيرا).

ص/الخطبة والجناس الاشتقاقي: ومن خطبه (ع) التي انطوت على هذا النوع من التجنيس، قوله: "خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة" (2).

وبفعل استقرائنا لنصوص الأدب الحسيني ومنها مقطع الخطبة المتقدم، ظهر لنا أن التجنيس الاشتقاقي من غير إسناد عناصر إيقاعية آخر من شأنه أن يجعل فاعليته الموسيقية محدودة لفقدانه وزنا موحدا.

ثانيا: الجنس اللاحق: وردت أنواع أخرى من الجنس في الأدب الحسيني إلا أنها انمازت بحضور قارب الغياب في أغلبها. ومن تلك الأنواع التي كان لها حضور مقبول نسبيا، ما يعرف بالجناس اللاحق، وفيه تختلف الكلمتان المتجانستان في نوع الأحرف مع تباعد مخرجيهما، ويشتترط ألا يقع الاختلاف في أكثر من حرف واحد (3).

ص/الدعاء والجناس اللاحق: من أمثله ما جاء في أحد أدعيته (ع): "اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تذر على الأرض منهم أحدا" (4).

لا يخفى ما في النص من تواشج إيقاعي واتفاق نغمي نتج بفعل تعاضد الجنس اللاحق بالسجع المتوازي، زد على ذلك قوة حرف الروي المجهور (الـ)، ولعل كثافة الإيقاع تشي بدلالات عميقة مركزة مستمدة من السياق التاريخي العصيب الذي عاشه (ع) يوم كربلاء (5).

ص/الخطبة والجناس اللاحق: جاء في إحدى خطبه (ع): "ألا إن العدو، قدر ركز بين اثنتين بين السلة والذلة" (6).

إن المقطع المتقدم: (السلة والذلة) على الرغم من قصره إلا أنه تمكن من إنتاج صورة صوتية فنية، فالجانب الصوتي للصورة حصل بفعل تضافر التجنيس اللاحق مع السجع المتوازي، وأما الجانب الصوري فقد نجم عن تَكْنِيَّتِهِ (ع) لبيعة يزيد بن معاوية بـ(الذلة)، واكتناز النص فنيا دليل شاعريته.

ج. التقسيم: هو تعادل الفقرات (الجملة) على نحو السجع، شرط أن تكون الفاصلتان على زنة واحدة وبغير التقفية (1)، والتقسيم تعادل جملتين أو جملة تعادلا موسيقيا مع اختلاف الحرف الأخير، وهو مصدر من مصادر تكون الصور الصوتية (2).

(1) إقبال الأعمال: 632.

(2) الملهوف: 126.

(3) ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة: 489.

(4) تاريخ الطبري: 449/5.

(5) ينظر: نشر الإمام الحسين (ع): 64.

(6) الملهوف: 156.

وفي هذا الصدد يكون التأثير للكلمات المفردة أقل، والتأثير الأكبر إنما هو للعبارات⁽³⁾، وتقسيم العبارات من شأنه أن يساعد الباحث على "عملية التنويع في الأفكار والأخيلة"⁽⁴⁾، و"هذا التنويع هو الازدواج نفسه"⁽⁵⁾، الذي يستتبع تلويها صوتيا، فكأن الأفكار تسير على الأوتار التي تبعث الأنغام لحظة التحرك. كما أن التقسيم يمنح الباحث فرصة الاستراحة⁽⁶⁾، فيشكل الصمت نظاما متناوبا مع صوت الفقرات الموزونة لـ "يحدث في السامع ميلا وإصغاء لسماع ما هو مطلوب"⁽⁷⁾.

وفي جمل الأدب الحسيني ورد التقسيم في مواضع عدة، محققا أغراضا جمالية صوتية ودلالية، اقتطعت الخطب فيها المساحة الأبرز، فيما ضارعت الرسائل الأدعية في امتلاك المساحة الكبيرة المتبقية، في الوقت الذي ودّعت - أو كادت - الأحاديث الفنية فناء مساحة التقسيم تلك.

الخطبة والتقسيم: من تلك النماذج ما ورد في إحدى خطبه (ع): "لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد"⁽⁸⁾.

فهذا التقسيم يبيث في النص تنغيما إيقاعيا جليا ناتجا عن تضافر التقسيم والسجع الاشتقاقي، زيادة على مكوث حرف المد: (ي) بتماس مع نهاية الفاصلتين وما له من أثر في استطالة الصوت التي توحى لنا بأهمية القرار التاريخي وعمقه الشعوري في ذات الإمام، وحرصه على إسماع أكبر عدد من المتلقين بنحو موسيقي منظم يمتلك سمة الخلود في الأذهان لتغدو شعارا للثائرين، مع الالتفات إلى أن الإمام لم يرد بلفظة الفاصلة: (العبيد) بعنوان لونه أو عمله ولكن بوصفه مسلوب الإرادة وفاقد حرية الاختيار، وآية ذلك أن هناك من العبيد ممن استشهدوا معه، فضلا عن اقتران لفظة (العبيد) بلفظ الفاصلة الأخرى (الذليل).

وجاء التقسيم في نص آخر، حين خطب (ع) في أعدائه: "فكنتم أخبث شجا للناظر، وأكلة للغاصب"⁽⁹⁾.

وغير خاف أن تفرد التقسيم في إحداث الأثر الموسيقي جعل الإيقاع أقل نغما من النموذج السابق مع أنه حمل دلالة هوان أمر الأعداء وضياهم لضياح إرادتهم.

الرسالة والتقسيم: من أمثلة التقسيم الوارد في رسائله (ع) ما كتبه من جواب وعظي، جاء فيه: "من حاول أمرا بمعصية الله تعالى، كان أفوت لما يرجو وأسرع لمجيء ما يحذر"⁽¹⁰⁾.

(1) ينظر: كتاب الصناعتين: 263، وتطور الأساليب النثرية: 138. ويعرف التقسيم أيضا: (بالازدواج والتوازن والتعادل والتكافؤ).

(2) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي: 223.

(3) ينظر: النقد الأدبي: 125.

(4) لغة الشعر عند الجواهري، د. علي ناصر غالب: 13.

(5) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: 464.

(6) ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبدالله الطيب المجذوب: 272/2.

(7) دراسة لغوية في نهج البلاغة: 29.

(8) تاريخ الطبري: 425/5.

(9) الملهوف: 156.

(10) أصول الكافي: 319/2.

وما قيل عن إيقاع النموذج السابق يمكن أن يقال عن هذا النموذج، وقد كشف النص عن كسر توقع العاصي لله تعالى في ضياع ما يأمل من المعصية وخيبته أيضا في سرعته وعقوبته.

الدعاء والتقسيم: ومما جاء في أدعيته من تقسيم، قوله (ع): "وعطفت عليّ قلوب الحواضن وكفلتني الأمهات الرحائم" (1).

فمن الواضح أن حسن التقسيم في هذا النص وانسجام حروف الألفاظ في ما بينها وتقارب نهاية الفاصلتين: (ن) و(م) في مخرج الصوت وسلاستهما في طرف اللسان (2)، زيادة على وضوحهما السمعي (3) ذلك كله أسهم في إنتاج بنية موسيقية مكثفة بذاتها لتحقيق شاعريتها في هذا التقسيم. ولكن ما حملته التشكيل الإيقاعي من تدفق عاطفي وصدق إحساس في التعبير عن مكامن الذات والشعور من خلال مسرحية تلك العواطف وعرضها بنحو بالغ التأثير والتوصيل، جعل له أثرا مضاعفا في تحقيق شاعرية النص وأدبيته، ولاسيما أن العاطفة من أهم عناصر الأدب وسمه رفيعة في صدق نقل التجربة الشعورية (4)، وذلك كله كان ماثلا في النص حتى أن المتلقي يكاد لا يجد لفظا إلا وهو ينبض بالعاطفة والدفء.

والنماذج المتقدمة جميعها التي اعتمدت الموازنات الصوتية، تشير إلى نزوع الإمام (ع) إلى عدم تأدية الفكرة أداء بسيطاً في عبارة واحدة، بل كان يشكلها في عبارتين أو أكثر لتكتسب ضرباً من التوقيع الموسيقي يسهم في تمتين التواصل مع المتلقي.

د. التكرار: عنصر مائز من عناصر الإيقاع الموسيقي ناتج عن "دلالة اللفظ على المعنى مردداً" (5)، والتكرار "تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغما موسيقيا يتقصده الناظم في شعره أو نثره" (6)، وتلك الأنغام تعمل على إثارة المتلقي وجذب انتباهه إلى دلالة أو دلالات متعددة عن طريق ترديد اللفظ وإعادته في مواقع (تمفصلية) مقصودة. "فالتكرار يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة ويكشف عن اهتمام المتكلم بها" (7)، إذ "يعكس جانباً من الموقف الشعوري والانفعالي" (8) للمبدع ويضفي سمات "إيحائية موضوعية تنتج دلالات مختلفة في النص" (9)، وبهذا يحافظ التكرار على المستوى الصوتي والمستوى الدلالي للنص في الآن ذاته (10)، شريطة أن يستمد توجيه معانيه من خلال السياق الذي يرد فيه وإلا

(1) إقبال الأعمال: 625.

(2) ينظر: الأصوات اللغوية/79.

(3) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، خليل إبراهيم العطية: 53.

(4) ينظر: النقد الأدبي: 38-39، ودراسات في النقد الأدبي: 13-14.

(5) المثل السائر: 137/2.

(6) جرس الألفاظ: 239.

(7) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة: 276.

(8) التكرار في الشعر الجاهلي (بحث)، موسى ربيعة: 160.

(9) التكوين التكراري في شعر جميل بن معمر، فايز القرعان: 80.

(10) ينظر: البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب: 223.

وإلى جانب اللفظة المفردة في التكرار، كانت العبارة المكررة في عدد من نصوصه (ع)، من ذلك ما جاء في دعاء عرفة: "صلّ على محمد وآل محمد وأتمم علينا نعمتك، وأسعدنا بطاعتك [...] صلّ على محمد وآل محمد وأعطني في هذه العشية أفضل ما أعطيت وأنت أحدنا من عبادك [...] صلّ على محمد وآل محمد وأسألك اللهم حاجتي التي إن أعطيتنيها لم يضرني ما منعتني وإن منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني أسألك فكاك رقبتني من النار لا إله إلا أنت" (1).

يبدو أن المقارنة جلية بين تكرار العبارة وتكرار اللفظ المفرد، في النصين المتقدمين، فتكرار العبارة انماز بطول تركيبه مما استتبع طول نمطه الإيقاعي، حتى يظهر وكأنه أقل حاجة مع تكرار المفردة إلى تجانس بقية ألفاظ المقطع وتماثلها الصوتي؛ لكونه وحدة إيقاعية بارزة. وطول تكرار العبارة- زيادة على ذلك- يمنح فسحة أوسع للقارئ في تأمل المقطع السابق والتهيو للانتقال إلى المقطع اللاحق، مما يؤثر في قوة التواصل وديمومته (2)، مع الله تعالى من جهة ومع النص ذاته من جهة أخرى.

إن انتقال النص من الدعاء شبه العام: (أتمم علينا نعمتك) إلى دعاء نوعي رفيع: (أفضل ما أعطيت) إلى التصريح بهذا المطلب: (فكاك رقبتني من النار)، شكل تناميا عضويا للنص، أمنت مفاصله تكرار عبارة (صلّ على محمد وآل محمد)، التي شكلت سمة أسلوبية ذات وظائف إيقاعية وتركيبية ودلالية مع أدائها وظيفتها التأسيسية للأدعية بوصفها مطلبا رئيسا في كل دعاء.

ولعل التضاد الصوتي الذي انمازت به العبارة- (صلّ على محمد وآل محمد)- المتمثل بـ(الصاد) لرخاوته (3)، و(الذال) لشدته، ما يحقق "لهجة إيقاعية عالية ونبرة حادة" (4)، أثري صدهما العبارة موسيقيا (5).

الخُطبة والتكرار: من نماذج التكرار في خطبه، ما جاء في إحداها: "أنشدكم الله، أتعلمون أن علي بن أبي طالب كان أبا رسول الله صلى الله عليه وآله حين آخى بين أصحابه [...] أنشدكم الله، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله نصبه يوم غدیر خم [...] أنشدكم الله، أتعلمون أنه دفع إليه اللواء يوم خيبر" (6).

ولا ريب في أن كل تكرار في النص يمثل مفتاحا لوحدة تاريخية يراد لها جلي وإيضاح (7)، وهذه الوحدة تتضافر مع بقية الوحدات لتؤلف فضاء تاريخيا يتمحور حول إبراز مظلومية أهل البيت (ع).

(1) إقبال الأعمال: 630-632.

(2) عن أثر التكرار في الدعاء والنداء وغيرهما، ينظر: الأسلوبية والأسلوب: 156.

(3) ينظر: الأصوات اللغوية: 25.

(4) تحولات النص- بحوث ومقالات في النص الأدبي، د. إبراهيم خليل: 12.

(5) ينظر: المناجيات وأدعية الأيام عند الإمام زين العابدين (ع) (رسالة ماجستير): 40.

(6) كتاب سليم بن قيس الهلالي: 790/2-791.

(7) وهذه من وظائف التكرار، ينظر: العمدة: 74/2-77، وجرس الألفاظ: 24.

والملاحظ في هذا النص أن فقراته جميعها التي دخل عليها التكرار: (أنشدكم الله) اعتمدت لغة تقريرية مباشرة تماهيا مع السياق الذي اضطلع ببيان حقائق خطيرة.

(ع). الحديث الفني والتكرار: من أمثلة ما جاء من تكرار في أحاديثه الفنية، قوله (ع): "إن قوما عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوما عبدوا الله شكرا فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة"⁽¹⁾.

في النص تكرار ان وردا في عبارتين: (إن قوما عبدوا الله)، و(وتلك عبادة) وتلك العبارات التكرارية أفادت تقرير حالة أو إعلان حكم⁽²⁾، ومرد اضطلاع النص بقيم صوتية متواضعة، إلى وجود التقسيم الذي تكررت فيه الألفاظ ذاتها تقريبا، ومن دون مشاركة صوتية من باقي كلمات النص، وربما أفاد التكرير في بيان حرص الإمام (ع) وعدله في الحكم من خلال اعتماد اللفظ ذاته في إصدار حكمه انسجاما مع العدالة.

(ع). الرسالة والتكرار: ومما ورد من تكرار في رسائله (ع) ما جاء في أحد كتبه: "أما بعد، فإنه من طلب رضى الله بسخط الناس كفاه الله أمور الناس، ومن طلب رضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس"⁽³⁾.

وما قيل في النص السابق لا يبتعد عما يمكن أن يقال في هذا النص الذي جمع بين اللفظة المكررة المفردة: (الله)، و(الناس) والعبارة المكررة: (من طلب رضا).
خاتمة: وبعد استقراء الأدب الحسيني إيقاعيا ظهر جليا أن الإمام (ع) يدرك عاليا أثر (موسقة) الخطاب في تحقيق أدبية أغلب نصوصه وفاعليته في الجانب التوصيلي بوصف الإيقاع الموسيقي الحامل النوعي المحفز للشاعرية والإحياءات النفسية المختلفة، وقد كان السياق في ذلك كله مرجعا ثقافيا محددا لكثافة الإيقاع ونوعه في ردف النصوص الأدبية، مع تألق مساحة الأدعية تكراريا على بقية الأنواع الأدبية لما يتطلبه هذا النوع من إلحاح وتضرع لله تعالى.

(1) تحف العقول: 175.

(2) وهي من وظائف التكرار، ينظر: جرس الألفاظ: 24.

(3) الأمالي: 167، وينظر: بحار الأنوار: 371/71.

ثانياً/ = الصورة الفنية:

مدخل: تعد الصورة الفنية عموداً رئيساً من أعمدة البيان العربي، والذي هو "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته"⁽¹⁾، فالصورة إطار تتعاقب فيه الفكرة والعاطفة لتتلمس مساراً سالكا إلى المتلقي، ووسيلتها إلى ذلك أحد أشكال اللغة الجمالية، فـ"سبيل الكلام سبيل الصورة والصياغة"⁽²⁾، وكثيراً ما يتم الاهتمام بالمتباعدات من الصور؛ لأن "التقريب بين تصورين متباعدين كل التباعد يعطي الصورة كل قيمتها وكل حيويتها"⁽³⁾.

والصورة تشغل جانباً كبيراً من الظاهرة الأسلوبية⁽⁴⁾، فهي "انبثاق عن اللغة"⁽⁵⁾ أي "اللغة الفنية"⁽⁶⁾ التي غالباً ما تكون "كلماتها محددة"⁽⁷⁾، تسير "في غير الاتجاه الطبيعي للغة"⁽⁸⁾، ليتجلى عنها "كشف نفسي لشيء جديد بمساعدة شيء آخر"⁽⁹⁾. والصورة نتاج مهارة المبدع في التكيف الجمالي والمعنوي بين شكلين مستقلين أو شبيهين، فهي "نسخة جمالية تستحضر فيها لغة الإبداع الهيئتين الحسية والشعورية للأجسام أو المعاني بصياغة جديدة تملئها موهبة المبدع وتجربته وفق تعادلية فنية بين طرفين هما المجاز والحقيقة"⁽¹⁰⁾.

وقد كان حظ الصور الفنية في الأدب الحسيني وافراً، فتلونت بين تشبيه واستعارة وكناية في ترتيب تنازلي بمراعاة نسبة الشيوخ.

أ. الصورة التشبيهية: يشكل التشبيه مادة بناء الصورة سواء أكان مستقلاً بذاته أم معاراً من جهة وسائل الصور الأخرى، من استعارة، أو كناية وغيرهما؛ ولهذا تبوأ التشبيه منزلة رفيعة في تراثنا الأدبي⁽¹¹⁾.

وقد حقق البلاغيون النظر في بنية الصورة التشبيهية وأثرها وفاعليتها في أداء الوظيفة التوصيلية للصورة، وفي طرفها الآخر (المشبه به) وما له من أثر في أداء وظيفته الجمالية الدلالية⁽¹²⁾. ومن هنا، يتضح أن "التشبيه يقدم لنا تحولاً دلالياً على أساس المقارنة"⁽¹³⁾، ليشكل أسلوباً من أساليب الصور الفنية الرئيسة التي من شأنها أن ترفع من شاعرية النصوص⁽¹⁴⁾.

(1) البيان والتبيين: 76/1.

(2) دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر: 254.

(3) دليل الدراسات الأسلوبية، د. جوزيف ميشال: 70.

(4) ينظر: اللغة والإبداع، شكري محمد عباد: 70.

(5) جماليات المكان، باشلار: 29.

(6) ظواهر الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، موسى ربابعة: 45.

(7) نظرية البنائية في النقد الأدبي: 357.

(8) تكوين البلاغة: 220.

(9) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل: 96.

(10) الصورة الفنية معياراً نقدياً، د. عبد الإله الصانع: 159.

(11) ينظر: البرهان في وجوه البيان: 58، والطراز: 125.

(12) ينظر: أسرار البلاغة: 106، 118 على سبيل المثال.

(13) مفهوم الأدبية في التراث النقدي: 119.

(14) ينظر: لغة شعر الشريف الرضي (رسالة ماجستير)، أحمد عبيس: 96.

وقد استثمر الإمام الحسين(ع) الصورة التشبيهية بوصفها أداة حيوية مهمة في بناء صورته، وقد نالت خطب الإمام الحظ الأوفر في إشغال مساحة بيّنة من مجموع مساحة نصوصه التي تخللتها تلك الصورة، تتبعها الأحاديث الفنية بمساحة مقبولة، فيما تخلفت الرسائل والأدعية- أو كادت- عن الحضور والمشاركة.

إن انحسار الصورة التشبيهية في الرسائل والأدعية لحد التلاشي شكل ظاهرة في أدب الإمام(ع)، مردّها- كما أرى- طبيعة السياق الذي يرد فيه هذا النوع الأدبي، فالرسائل في الأدب الحسيني غالباً ما تكون في قضية محددة لا تحتمل التأويل والتأمل، فضلاً عن أن المتلقي غالباً ما يكون شخصاً واحداً، وهذا لا يستدعي تصعيداً عاطفياً- إلا في سياقات خاصة.

وكذلك الأدعية، فإن الموقف فيها يتحقق عبر انثيالات وجدانية تصطبغ بالتضرع والرجاء والبكاء، بنحو مكشوف وصريح مع أنه عميق، ولا سيما أن "الدعاء ثورة عارمة، تبدأ بجذوة من التحنن والاستعطاف"⁽¹⁾.

وأما الخطب فإنها غالباً ما تتطلب خلق أجواء شاعرية مشحونة بالعاطفة، بوصفها وسيلة اتصال جمعي، وهكذا الحال بالنسبة للأحاديث الفنية التي تُولف الصورة الفنية أهم مميزاتها.

(1) ((الخطبة والصورة التشبيهية: من صورته(ع) التشبيهية، ما ورد في إحدى خطبه التي أخبر الأعداء عما ينتظرهم من صروف الدهر ونوازل الحداث: "أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريت ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحي وتقلق بكم قلق المحور، عهد عهده إلي أبي عن جدي"⁽²⁾.

في هذا النص عدة صور تشبيهية، الصورة الأولى: (لا تلبثون بعدها إلا كريت ما يركب الفرس)، وهي صورة تشبيهية زمنية استشرافية؛ وهذا الاستشراف مسبوق بقسم: (أما والله) بناء على علوم جده المصطفى(ص) عن أبيه(ع): (عهد عهده إلي أبي عن جدي)، إذ جسّد النص زمن آجالهم ونعيمهم في الدنيا بعد استشهاد(ع): (لا تلبثون بعدها).

وكان هذا التوقيت بدلالة المدة (المشبه به) وهي: (كريت ما يركب الفرس)، ويبدو أنها المدة المحصورة بين ولادة المهر وإمكانية ركوبه، وهذه المدة - كما هو معروف- ثلاث سنوات. وهي ذات المدة الزمنية الفاصلة بين موت يزيد بن معاوية وانتهيار نظامه، وواقعة كربلاء، ومن ثم ظهور المختار بن عبيدة الثقفي واقتصاصه من قتله الحسين⁽³⁾.

إن النص الخطابي- هنا- اعتمد على التشبيه (المجمل) الذي يفتقر إلى وجه الشبه، والذي يجعل من أسلوب الكلام يسمو "إلى مستوى يقتضي من المتقبل إماماً خاصاً بإطار الحديث أو ثقافة واسعة تمكنه من الوقوف على الهدف المقصود"⁽⁴⁾، بمعنى

(1) دعاء الإمام علي(ع) - دراسة لغوية أسلوبية(رسالة ماجستير): 34.

(2) الملهوف على قتلى الطفوف: 157، وينظر: مطالب السؤل: 60، و(ريث) مصدر بمعنى الزمان. ينظر: معاني النحر، د.فاضل السامرائي: 184/2.

(3) حادثة كربلاء سنة 61هـ - وفاة يزيد وإعلان ثورة المختار سنة 64هـ. تنظر تفاصيل ذلك في: تاريخ الطبري: 499/5- 570 على سبيل المثال، والكامل في التاريخ: 567/3، 602- 603.

(4) خصائص الأسلوب في الشوقيات: 147.

آخر: إن تعرف المتقبل على دلالات الصورة والوصول إليها يتطلب معرفة السياق الذي ولد في كنفه النص فضلا عن معرفة المحاضن الثقافية للناص.

ثم يردف(ع) هذه الصورة بصورة تشبيهية أخرى مبنية على التشبيه بالمصدر:(حتى تدور بكم دور الرحي)، إذ يصور النص حال الأعداء بعد تلك المدة الزمنية وما يعترهم من خطوب نازلة وأهوال مرعبة، فتدور بهم الدنيا من حال إلى حال، من نعيم إلى جحيم، ومن عز إلى ذل، كما تدور آلة الرحي التي تطحن الدقيق، وهذا الدوران يوحي بديمومة عذاب الأعداء(المشبه) الذي لا ينفك عنهم ولا يفتر إلا حين ينقلبون عن الدنيا وهم بغير حال، كما ينقلب حال الحبوب حين تدقه الرحي فيصير طحيناً؛ لأن الرحي من شأنها أن تدق ما يلقي فيها⁽¹⁾.

وتجسد الصورة الثالثة حالة(اللاستقرار) للأعداء حين يصف النص الحسيني حالهم، بوساطة التشبيه بالمصدر أيضاً:(وتقلق بكم قلق المحور). والمحور هو العمود الذي يرتكز وسط الجزء السفلي الدائري من الرحي ليدور حوله الجزء العلوي الدائري من الرحي، وهذا المحور(العمود) وبفعل طبيعة عمل الرحي فإنه يتلقى ضربات متلاحقة ومن اتجاهات مختلفة إلى جانب الاحتكاك المتقطع، وهذا وصف دقيق لحال الأعداء المضطرب الذي ما فتئ يتقلب على جمرات القصاص.

إن اعتماد الصورتين الثانية والثالثة على التشبيه بالمصدر يتطلب، كما يتطلب التشبيه البليغ "إعمال الفكر أكثر، والاعتماد على الذهن أوسع لغياب الأداة مرة والوجه أخرى"⁽²⁾، و"الصورة كلما احتفظت بأسرارها لحين، ونزعت إلى الغموض الفني الموحى وألجأت القارئ إلى التأمل كانت أقرب إلى الشعر وألصق بمفهوم الشعرية"⁽³⁾؛ لأن "المعادلة ما بين وضوح الصورة وجلائها وما بين تأثيرها تظل عكسية دائماً"⁽⁴⁾.

وقد تضافرت الصور التشبيهية الثلاث آنفة الذكر في تقرير حال المشبه، إذ اتكأت تلك الصور على العنصر الحسي البصري من خلال المثير الحركي، بدلالة الأفعال(يركب، وتدور، وتقلق)، ومثل هذا يكون سببا آخر في قوة إحياءاتها وما تنثيره من مشاعر⁽⁵⁾.

وفي مشهد آخر من مشاهد الصورة التشبيهية التي صور بها الإمام(ع) حال أهل الكوفة، فاحصا عن كذب طبيعة سلوكهم حينما بايعوه، يقول:"ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا، وتداعيتم إليها كتهافت الفراش"⁽⁶⁾.

في الصورة الأولى:(أسرعتم إليها كطيرة الدبا) تجسيد لسرعة أهل الكوفة(المشبه) وإقبالهم علىبيعة الإمام(ع)، فطير الدبا- كما أسلفنا- صغار الجراد التي لما تطير لعدم اكتمال نضجها، وهي تتميز بسرعة شديدة، ولعل المراد أيضا بهيئة الجراد- التي لا تقوى على الطيران- إشارة إلى قهر النظام الحاكم لأهل الكوفة.

(1) ينظر: نثر الإمام الحسين(ع):25.

(2) البلاغة في ضوء الأسلوبية والسياق:101.

(3) الاغتراب في الشعر العراقي:100.

(4) تطور الشعر العربي الحديث في العراق، د.علي عباس علوان:48.

(5) ينظر: الصورة الشعرية، سي.دي. لويس، تر: أحمد نصيف الجنابي وآخرين، مراجعة:د.عناد غزوان:46.

(6) الملهوف:157، وينظر:مثير الأحزان:97/1.

ويقترّب معنى الصورة المتقدمة من الصورة الأخرى: (وتهاقتم إليها كتهافت الفراش)، فالفراش يجتمع بكثرة حول السراج ويتهالك عليه، لضعف بصره⁽¹⁾، ولعل السراج إشارة إلى نور الحق والهداية المتمثلة بشخصه (ع)، وهكذا صار حال الفراش (المشبه به) يجسد حال أهل الكوفة (المشبه) في زحفهم إلى مصدر الضياء والإشعاع الذي يطرد ظلامهم.

ونلاحظ أن الصورتين قد اتكأتا على العنصر الحسي البصري، الأولى بفعل مثير حركي (أسرعتم)، والأخرى بفعل مثير حركي ضوئي (تهاقتم)، وقد تعاضدت الصورتان معا للكشف عن مدى إقبال أهل الكوفة لبيعته (ع)، وهذا ما تؤيده كثرة الرسائل والرسائل التي أشار البحث إليها في موضع متقدم.

(2) الحديث الفني والصورة التشبيهية: في لوحة صورية أخرى ألفيناه (ع) يوسع في صورته التشبيهية لتشمل كثيرا من الناس، إذ جاء في أحد أحاديثه الفنية: "الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درت معاشهم، فإذا حصوا بالبلاء قلّ الديانون"⁽²⁾.

يقدم الإمام من خلال هذا المشهد الصوري تجربة مريرة بإزاء مجتمعه الذي طبعته سمات النفاق والنفعية والسطحية وغياب الوازع الديني والمنطق العقلي، ولاسيما أن النص جاء في سياق تاريخي عصيب؛ وذلك حينما استشعر (ع) خذلان الناس وهم يتسللون لوإذا من تحت رايته في مسيرة كربلاء. فكلامه إدانة لمجتمعه؛ تلك الإدانة التي توصلت بأبعد مستويات اللغة الجمالية.

يبدأ النص بحكم قيمة مفاجئ (الناس عبيد الدنيا)، والمقطع صورة استعارية، وفيه يخلع النص صفة العبودية للدنيا على كثير من البشر، وهذا الأسلوب قد يثير دهشة المتلقي، وبالنتيجة يزيد من القوة الضاغطة للنص وتزداد شاعريته وتتكاثر ردود الفعل⁽³⁾، ولعل أول مظاهر هذه الردود رغبة المتقبل في المزيد من التلقي نتيجة إلحاح السؤال الذي قفز إلى ذهنه مستفهما عن مصير الدين! ولاسيما أن العبودية الحقّة هي لله تعالى، وهي ثمرة الحرية كما أن الحرية الحقّة ثمرة العبودية المطلقة لله تعالى⁽⁴⁾.

وبعد ذلك يستشعر الإمام (ع) قتامة المشهد الصوري، فيتحنّنا بصورة تشبيهية بليغة، تومئ إلى مصير الدين: (والدين لعق على ألسنتهم). واللغة بطبيعتها لا تغني ولا تسمن من جوع، فالناس لم تتخذ من الدين غذاء روحيا متكاملا وإنما اكتفت منه بتلك اللعقة التي لا تتعدى اللسان، فهم يعانون من الجوع الروحي، وربما قصد (ع) أن الدين لقلقة لسان⁽⁵⁾، لا يغور أثره إلى أعماق الضمير والوجدان.

(1) ينظر: حياة الحيوان الكبرى: 36/2.

(2) كشف الغمة: 224/2، وينظر: خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة: 167. و(لَعَقَ): أَلْعَقَ الشَّيْءَ لَعَقًا: لَحَسَهُ. ينظر: لسان العرب: مادة (ل ع ق).

(3) عن أثر الدهشة في شاعرية النص، ينظر: البلاغة والأسلوبية: 174.

(4) ينظر: في رحاب الدعاء: 5 (المقدمة).

(5) جاء في: كتاب الصناعتين: 8: (والدين لغو على ألسنتهم).

وأيا كان، فإن المعنى يومئ إلى مغادرة الناس للدين، وبالذقة غادروا جوهره واكتفوا بمظهره، تماماً كما غادروا الإمام(ع) وحيداً، ومالوا إلى قشور الدين الأموية التي تضمن- كما يتصورون- سلامتهم مكتفين بتلك اللعقة.

وقد أسهم المدرك الحسي في تشكيل بنية التشبيه عن طريق اشتراك العنصر الذوقي بدلالة الأسماء(لعق) و(لسان).

ثم تتكشف دلالة الصورتين السابقتين شيئاً فشيئاً، إذ نلمح سير اتجاه النص إلى حلقات أبعد وأضيق حين يفصح النص عن علاقة الناس بالدين، فهم(يحوطونه ما درّت معائشهم)، فالإقبال على الدين وإحاطته مقرونان بـ(ما) الظرفية التوقيفية، بمعنى أن عملهم هذا – الإقبال والإحاطة- مشروط بضمان رخائهم وسلامة أرزاقهم، فسلامة دينهم من سلامة دنياهم لا أن تكون سلامة دنياهم بسلامة دينهم.

ويختم(ع) هذا المشهد بمقطعه الأخير:(فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون) وهنا أصبح جلياً أن الإمام(ع) أدرك أبعد حلقة في العمق؛ وهي نقطة التبئير أو الذروة الدلالية حين أوضح أن الناس إذا ما تعرضوا إلى اختبار حقيقي أو محك عصيب، فإنه كفيل بفضح مدى يقينهم وإيمانهم، وعندها تنتقل تلك الإحاطة من دينهم إلى دنياهم، تماماً كما انتقلوا من ساحة الحسين(ع) إلى ساحة منافعهم، وعندها يـ(قلّ الديانون)، أي يقلّ أهل الدين الحقيقيون، وفي هذا رمز إلى قلة أتباعه وأقرانهم في الأزمنة المختلفة.

وقد اشتركت مدركات حسية حركية في صياغة المقطعين المتقدمين بدلالة الأفعال(يحوطونه، ودرّت، ومحّصوا، وقلّ).

والحق أن جملة:(قلّ الديانون) لا تمثل جواب شرط إذا فحسب، بل إنها تشكل جواباً شاملاً للنص يمتص دهشة المتلقي ويبعث الهدوء والتراخي في شعوره، حينما يرى أن الإمام(ع) قد بيّن كيفية تكشف حقيقة(الديانين) وانفصال المدّعين عنهم، وهذا التبیین يحمل المتلقي على أن يغوص إلى أبعد مدى ليستخرج جوهر المعنى؛ وبذا تنتقل تجربة المنشئ إلى ذهنه فيستقر باستقرارها.

وتفحص بنية الصور التشبيهية، يرينا أن هذه الصور الكلية تولدت من صور جزئية عدة تختلف في النوع وتأتلف في الوظيفة، فلولاها ما كانت لكلية الصور شرعية ولا كان للكلام نفحة شعرية⁽¹⁾، فالجمع بين اللوحات المتعددة يؤلّد أشرطة طويلة، تحوج الدارس- إلى جانب النظر في فن إخراج كل لوحة على حدة- إلى التأمل في حقيقة تعايش الصور المتنوعة ومدى تأثير بعضها في بعض، وأثرها مجتمعة في خلق الجو الشعري⁽²⁾، وكيف لا والصورة "بنية تتشابك فيها العلاقات وتتفاعل لتنتج الأثر الكلي الذي يفتح على العمل الفني ويضيء أبعاده"⁽³⁾.

(1) للاطلاع على علاقة الصورة الجزئية بالصورة الكلية، ينظر: تحاليل أسلوبية: 18.

(2) ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات: 158.

(3) جدلية الخفاء والتجلي، كمال أبو ديب: 21.

وواضح أن الإمام(ع) استعان بأكثر من حاسة في إدراك الصورة وأكثر من أسلوب في البيان، فهذه الصورة التشبيهية "تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر في غير ما وجب"(1).
نخلص مما تقدم إلى أن الصورة التشبيهية حققت مساحة فنية رحبة في أدب الإمام الحسين(ع)(2). وكادت صورته التشبيهية تخلو من وجه الشبه، مما زاد في إحياءات نصوصه وارتفاع نسبة الشاعرية فيها، الأمر الذي يحمل المتلقي على التأمل، زيادة على اشتراك المدركات الحسية في صياغة تراكيب صورته(ع) التي (شعرنت) كلامه كما(شعرنت) حواس متلقيه.

ب. الصورة الاستعارية: حظيت الاستعارة باهتمام أساطين الفكر البلاغي، بوصفها مجازاً قائماً على علاقة مشابهة في استعمال اللفظ في غير ما وضع له في الأصل مع وجود قرينة أو سياق يمنع من إرادة المعنى الحقيقي(3)، فالاستعارة تشبيه بليغ حُذِفَ أحد طرفيه(4)، ويكمن سر منزلة الاستعارة في البيان العربي في طبيعته عملها ونتائجها، فهي تجمع بين المتخالفين وتوفق بين الأضداد وتكشف عن صور إيحائية جديدة في التعبير لا يحس بها السامع في الاستعمال الحقيقي(5).
ويتأتى لها ذلك من خلال "تجاوز اللغة الدلالية إلى اللغة الإيحائية"(6)، وهذا يحصل "عن طريق الالتفاف خلف كلمة تفقد معناها على مستوى لغوي أول لتكسبه على مستوى آخر"(7)، لتتكون "صور جديدة وغريبة وصادمة"(8)، على أن الرصيد الإمتاعى لتلك الصور مقرون بالجانب الإقناعي الذي ينطوي على "دفع المتلقي على إعادة التأمل في واقعه من خلال رؤية شعرية لا تستمد قيمتها من مجرد الجدة أو الطرافة، وإنما من قدرتها على إثراء الحساسية وتعميق الوعي"(9)، و"لذا عدت اللغة في بعدها الشعري مقياساً نقدياً مهماً في الموازنة بين قدرات الشاعرية على التوصيل"(10).

وبذلك يمكننا القول إن الاستعارة تهدف إلى "أن يكون التعدد مكنونا أساسيا لرؤيتها للأشياء المتفاعلة في العالم الحسي، وهذه هي الخاصية الجوهرية للاستعارة حين تقديمها للواقع كمجال حيوي للعبة الصراعات الدينامية المولدة للتوتر الذي

- (1) أبو الشهداء، الحسين بن علي: 125.
- (2) للاستزادة، ينظر: أنساب الأشراف: 185، 188، على سبيل المثال، وتاريخ الطبري: 418/3، والاحتجاج: 190/2.
- (3) ينظر: البيان والتبيين: 153/1، وتأويل مشكل القرآن: 106، والوساطة، علي بن عبد العزيز الجرجاني: 428، والعمدة: 268/1، وأسرار البلاغة: 321، ومفتاح العلوم: 175، والطراز: 98، والإيضاح في علوم البلاغة: 248-249.
- (4) ينظر: التلخيص في علوم البلاغة: 330، وأساليب البيان في القرآن، جعفر الحسيني: 46.
- (5) ينظر: أصول البيان العربي- رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير: 93.
- (6) نظرية البنائية في النقد الأدبي: 359، وينظر: الخطاب الشعري الحداثي والصورة الفنية: 101.
- (7) نظرية البنائية في النقد الأدبي: 359.
- (8) اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي: 65.
- (9) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر أحمد عصفور: 18.
- (10) مستقبل الشعر وقضايا نقدية: 43.

يتمثل في الخطاب الاستعاري⁽¹⁾، ومثل هذا المعنى أفضى بأحد الباحثين إلى أن يُقرر باطمئنان، بأن طبيعة التفكير الإنساني لا يمكن أن تتخلى تماما عن العمليات الاستعارية التي تبدو صنيع العقل الغريزي في ارتياد الواقع وتنظيم التجربة وتمثل المجهول⁽²⁾.

ولذا فإن النصوص الأدبية بوصفها نتاجا فكريا إبداعيا لا يمكن لها أن تهجر الاستعارة لأمد بعيد أو أن تحتل جفوتها طويلا؛ لأنها بذلك ستعادر رافدا خصبا من روافد الشاعرية والخيال، وقد تتوغل نتيجة لذلك الإخبارية والسردية في فضاءها. ومن خلال استقراء نصوص الأدب الحسيني تجلى لنا أن الصورة الاستعارية تعقب الصورة التشبيهية وبفارق ملحوظ من حيث حجم المشاركة.

امتلك الخطاب في هذا النوع الصوري جل مساحة ذلك الأدب تتلوها الأحاديث الفنية في مساحة متواضعة، فيما تخلفت – أو كادت- الرسائل والأدعية عن الحضور الصوري. وهذا يعني أن طبيعة الحضور الاستعاري وكثافة مشاركته-هنا- تشابهان مماثلتيهما في طبيعة الحضور التشبيهي وللمسوغات ذاتها التي ذُكرت في الصورة التشبيهية، مع التنبيه على أن تراجع مساحة الاستعارة في العصر الأموي شكل ظاهرة أدبية لرسائل ذلك العصر عموما⁽³⁾.

ولما كانت الاستعارة أشد توغلا من التشبيه في باحة الخيال صار الداعي لعدم توافرها في الأدعية- إلا ما مرّ خاطفا وبسيطا- أكثر إلحاحا، بمعنى أن هذا الأمر تم بقصدية من الإمام لشد الداعين إلى الدعاء وتأمين عملية التواصل من خلال تغليب الجانب العاطفي على الجانب الذهني الذي يستلزم قدرة تحليلية وتخيلية قد لا تتوافر عند جميع من يتلقون الدعاء، بغية التوجه به إلى الله سبحانه وتعالى، وعلى فرض توافرها فإنها تكون متباينة بين الأفراد مما يجعل مسيرة التواصل متعثرة ونتاج الشحنات الروحية متقطعة وبذا تنتشت الغاية ويتلاشى القصد.

1= الخطبة والصورة الاستعارية: كانت حصيلة تتبع استعارات النصوص الحسينية هي ظفر الاستعارة المكنية⁽⁴⁾، بالمساحة الأوسع لتلك النصوص؛ إذ طغت على نظيرتها الاستعارة التصريحية⁽⁵⁾، ويرجح الباحث سبب ذلك إلى "أن السياق أو ما تتطلبه التجربة ذاتها، هو المحدد لإيثار وانتقاء هذه التركيبية الصورية أو تلك"⁽⁶⁾. ومن الخطب التي تضمنت صورا استعارية (مكنية) ما ألفيناه في رثائه^(ع)، إذ جاء فيه: "ولا غرو وأنت ابن سلالة النبوة ورضيع لبان الحكمة"⁽⁷⁾.

(1) أسس ميتافيزيقيا البلاغة (بحث)، عبد العزيز بو سمهولي: 123.

(2) ينظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم: 129، 124.

(3) ينظر: تاريخ الترسل النثري عند العرب: 426.

(4) وفيها يختفي المشبه به ويكتفي بذكر شيء من لوازمه دليلا عليه، ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة: 95.

(5) وفيها يصرح بلفظ المشبه به دون المشبه، ينظر: المعجم المفصل في علوم البلاغة: 101.

(6) الإسلام والأدب: 152.

(7) عيون الأخبار: 338/2، وينظر: جمهرة خطب العرب: 139/2. و(السلالة): ومنها السليل بمعنى الولد، وسلالة الشيء: ما استل منه، والنطفة سلالة الإنسان، وهي ما سُل من صلب الإنسان وترائب المرأة، ينظر: كتاب العين: مادة (س ل ل)، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ المؤمنون/ ص ١٠٠.

يقدم النص صورتين فياضتين بمعان موحية، محملتين بسمات عمق التجربة الشعورية للإمام(ع)، فقد أضفى النص في الصورة الأولى سمة من سمات الرجولة وهي السلالة؛ تلك السلالة التي خُتمت بالمصطفى(ص) جد الحسين(ع)، وبهذا يُراد من(سلالة النبوة) خلق النبي(ص) وعلمه وحكمته، فقد شبه النبوة برجل ثم حذف المشبه به(الرجل) وأبقى لازمة من لوازمه وهي(السلالة). ثم جعل هذه الصورة الاستعارية كلها صورة كنائية رامزة. ويمكن أن تحمل الصورة مباشرة على أنها صورة كنائية من حيث إن النبوة صفة ملازمة للنبي(ص) بعد اتصافه بها، وإن الإمام الحسن(ع) هو ابن النبي(ص)، ولكن من صلب علي بن أبي طالب(ع) وترائب الزهراء(ع).

ثم نجد في الصورة الأخرى عضدا دلاليا لمنزلة الحسن(ع)، حين صور الإمام الحسين(ع) الحكمة بهيئة امرأة مُرضع، والحسن رضيعها، فحذف المرأة وجاء بأحد لوازمها وهي الرضاعة، ثم جعلها هذه الصورة كلها أيضا صورة كنائية رامزة، مكتسبة سمة ذوقية لدلالة اللفظيتين(رضيع لبان) زادت من حيويتها وشاعريتها ولاسيما من خلال بث الشعور بالحنان والدفع في نفس المتلقي.

وتوحي الصورتان إحياء أقرب إلى اليقين أنه(ع) كان موافقا لما صنعه أخوه الحسن(ع) في أمر الصلح مع معاوية بدلالة ألفاظ(الحكمة) و(النبوة) زيادة على ألفاظ آخر في مقاطع متقدمة من النص(مواطن التقية) و(حُسن الروية)⁽¹⁾. ولعله عمد إلى دفع التهمة عن نفسه في مخالفة أخيه في صلح معاوية المشهود، عن طريق تأكيد صحة رأي أخيه⁽²⁾؛ و"كل منهما يرى المصلحة بحسب حاله ومقتضى زمانه، وكلاهما مصيبان في ما اعتمدا، وهما إمامان سيدان قاما أو قعدا"⁽³⁾، وهكذا نلاحظ حقيقة أن الاستعارة تعطي كثيرا من المعاني بقليل من اللفظ⁽⁴⁾.

ومن أمثلة ما جاء على سبيل الاستعارة التصريحية قوله(ع) في إحدى خطبه التي ودّع بها مكة متوجها إلى العراق: "كأنني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن مني أكراشا جوفاً وأجربة سغباً"⁽⁵⁾.

فلا شك في أن هذه الصورة التي تتمحور حول إبراز مظلوميته(ع)، بوصفها أهم مراحل الجذب لثورته⁽⁶⁾، تكشف عن معادن قادة الجيش وأفراده حين استعار إليهم صفة الذئاب البرية بجامع الوحشية والشراسة؛ "فالوحشية التي شهدتها كربلاء ليس لها شبيه حتى بين أشد الوحوش ضراوة"⁽⁷⁾. وإضافة الذئاب إلى الصحراء لإضفاء دلالة افتراضية أبلغ، تبرز مدى ضراوة هذه الذئاب البشرية وشدة جوعها،

(1) ينظر: تكملة النص في عيون الأخبار: 338/2.

(2) ينظر: أدب الحسين وحماسه: 31.

(3) كشف الغمة: 225/2 - 226.

(4) ينظر: دلائل الإعجاز: 33.

(5) الملهوف: 126، وينظر: مثير الأحزان: 47.

(6) ينظر: الإمام الحسين ومحورية الجذب(مقال في شبكة المعلومات).

(7) الحسين في الفكر المسيحي: 118.

ولاسيما أن لفظة (عسلان) - كما أسلفنا - تتطوي على معاني الاهتزاز والاضطراب التي تعتري هذه الذئاب في أثناء عملية الافتراس⁽¹⁾.

وهذا الوصف يأتي متماهيا مع طبيعة عمل الفعل (تقطع) بتشديد الطاء وما يشتمل عليه من معاني الشدة والوحشية التي يتسم بها أفراد الجيش المعادي، كما تجلت - مثلا - في تصرف شمر بن الجوشن⁽²⁾، فضلا عما يختزنه هذا الفعل من مثير بصري صادم يتجلى حركيا خلال تقطع الأوصال بالاتجاهات جميعها بغية تمزيقها. وربما كان ذلك كافيا لإصعاق المتلقي وإدهاشه، وبهذا يظهر أثر العنصر الحسي وقوة إحياءاته وما يثيره من مشاعر. والفعل (تقطعها) فعل مضارع يتمتع بفاعلية واستمرارية لا تتوقف حتى يملأ من الحسين (ع) أكراسا جوفيا.

ثم يردف النص باستعارة تصريحية أخرى: (وأجربة سغبا)، بمعنى أكياس جائعة، إذ خلع النص صفة الجوع وهي من صفات الأحياء على الكيس بجامع الفراغ والجوع إلى جوائز ملكهم وأتباعه.

وإذا ما سئل: كيف يمكن لجسم إنسان واحد أن يملأ البطون الجائعة لذلك الجيش من الذئاب؟ وهنا يتجلى أثر الضبابية المخففة للنص في قوة التوصيل، فقارئ النص إن لم يصطدم بحاجز الانتظار الخائب، فإن النص سيغدو - في أحيان كثيرة - أداء إبلاغيا فحسب، ولن يقوم - في أحيان كثيرة أيضا - أسلوبيا، لفقدانه حساسية الوظيفة الأسلوبية التي تعدل من كثافة المدرك الإيصالي⁽³⁾، وعليه فإن جواب السؤال المتقدم يسهل إذا علمنا أن "العسلان لا تتسلط على أوصال صفوة الله لطفا من الله وإيثارا له"⁽⁴⁾.

من هنا، يتجلى أن الجوع المقصود هو الجوع الدنيوي، فالجيش المعادي زاحف نحو الحسين (ع) ليملاً حاجاته الدنيوية والنفسية منه⁽⁵⁾.

وتجلى مصداق كلامه (ع) في قول أحد قتلته منشدا [من بحر الرجز]:

أوفر ركابي فضة وذهباً أنا قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم إذ ينسبون نسباً⁽⁶⁾

إن المستقبل لهذا النص لا بد أن يستشعر بأنامل الإمام (ع) وهي تحرك فرشاة الرسم التي ارتوت من اللون الأحمر لترسم لوحة دموية كابوسية كاملة الافتراس، إذ تجسد ما عرف (ع) أنه سيحدث، جورا وقتلا وانتقاما.

ولوحة الرسم هذه هي صورة مأساوية وشاعرية أيضا؛ لأن الصورة الشعرية "رسم قوامه الكلمات"⁽⁷⁾.

(1) ينظر: لسان العرب: مادة (ع س ل).

(2) ينظر: كتاب الحيوان: 271/1.

(3) ينظر: الأسلوبية والنقد الأدبي - منتخبات عن تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب، اختيار وترجمة: عبد السلام المسدي: 38.

(4) إِبصار العين: 43.

(5) ينظر: منبر الصدر: 86.

(6) ينظر: تاريخ الطبري: 454/5.

(7) الصورة الشعرية: 21.

(2)= الحديث الفني والصورة الاستعارية: حمل لنا نوع آخر من النصوص الحسينية صورة استعارية أخرى، إذ جاء في أحد أحاديثه (ع) الفنية: "دراسة العلم لقاح المعرفة" (1). فالنص يشدد على أهمية العلم ونفاسته والأهمية القصوى لديمومته وتنميته وتطويره، إذ صوّر (ع) المعرفة شجرة قابلة للإثمار، فحذف المشبه به؛ وهو (الشجرة) وجاء بواحدة من لوازمه؛ وهي اللقاح.

وعلى الرغم من الاختزال التركيبي للحديث الفني- وهذه أبرز سماته- تمكن (ع) من استثمار التوسع الدلالي الذي وفرته الاستعارة بوصفها وسيلة مميزة في خلق الصور (2)، إذ توحى كلمة (لقاح) بأمرين؛ الأول: إن إثمار الشجرة من دون تلقيح من شأنه أن يفسد ويضمحل، وهي النتيجة ذاتها التي تكون عليها المعرفة حينما تُهمش. والأمر الآخر والأخطر المترتب على عدم التلقيح هو انقطاع نسل تلك الأشجار أصلاً لتوقفها عن التكاثر، وهذا يشبه حال المعرفة حينما يفضي بها الهجران إلى العقم.

وهكذا نلاحظ أن الاستعارة بنوعيهما (التصريحي والمكني) غدت مغذية للحقول الاجتماعية والسياسية والمعرفية المختلفة في أدب الإمام الحسين (ع)، بنحو مؤسلب يستدعي مشاركة مكثفة من المتلقي لإنتاج صور دلالية جمالية للنص، يحدد غزارتها رصيد خبرة المتلقي وثقافته، فضلاً عن السياق الذي يرد فيه النص. وقد انطوت الصور الاستعارية الموظفة في السياق السياسي على قدر عالٍ من الانزياحات في نقل التجربة مصحوبة بانفعال نفسي ومشاعر ملتعبة اتكأت أغلبها على مدركات حسية، بما يمكن أن يسمح لنا بالقول: إن استعارات الإمام (ع) كانت من أطيّب أعذاق أدبه.

ج. الصورة الكنائية: الكناية من الأساليب الفنية التي تمتاز بقدرتها على الإيحاء وتعدد الدلالات وغناها في النص الأدبي عن طريق التكثيف المعنوي الذي تختزنه، والموسوم بالمفاجأة والعمق وإصابة الهدف بأقصر الطرق، من حيث إنها تعني "ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك" (3). وبنية "الكناية ثنائية الإنتاج إذ إنها تحتضن في عمقها المعنى المطابق لبنية السطح مع غيره" (4)، فهي "بنية متوسطة في دلالاتها بين الحقيقة والمجاز" (5). ويكفي دليلاً على أهمية الكناية أن وظفها القرآن الكريم في سور عدة (6)، لكيلا تخمش وجه الأدب، ولتبرز بوصفها لونا تربوياً وأدبياً قرآنياً (7)، ولا سيما أن لها القابلية على "التلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من خلف الستار" (8).

(1) بحار الأنوار: 128/78، وينظر: نزهة الناظر وتنبية خاطر: 88، وموسوعة الإمام الحسين (ع): 887/2.

(2) ينظر: دليل الدراسات الأسلوبية: 73.

(3) مفتاح العلوم: 402، وينظر: الطراز: 177.

(4) تكوين البلاغة: 288.

(5) م.ن: 288.

(6) ومنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَسْتُمْ النِّسَاءَ﴾. النساء/ من رَجُلٍ وَاحِدٍ، وينظر أيضاً: البقرة/ رَبِّكَ يُخَوِّلُ مَخْرَجًا، وفصلت/ مَخْرَجًا يُخَوِّلُ.

(7) ينظر: الكامل في اللغة والأدب: 290/2-291، والصورة الأدبية: 68.

(8) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: 230.

والإيحاء الصوري مكون أساس للصورة الكنائية؛ لأنه لا بد للمتذوق الفني أن يجتاز المعنى أو الدلالة المباشرة الحقيقية ليصل إلى معنى المعنى أي الدلالة المتصلة بالمعنى المطروح في النص، وهي الدلالة الأبعد غورا والأقرب فيما يتصل بسياق التجربة الشعرية أو الموقف⁽¹⁾.

وقد أسهمت الكناية في بناء صور الأدب الحسيني ولكن بمساحة محدودة، طالت الخطب السهم الأوفر تتلوها الأحاديث الفنية، فيما لم تشارك الأدعية والرسائل بشيء يعتد به للمسوغات ذاتها التي ذكرت في التشبيه والاستعارة.

1/ الخطبة والصورة الكنائية: من صور (ع) الكنائية ما ألفيناه في إحدى خطبه، إذ ورد فيها: "تبا لكم أيتها الجماعة وترحاً حين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفين، سلّتم علينا سيفاً لنا في أيماكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم"⁽²⁾.

لا شك في أن حمل معنى الجملة: (سلّتم علينا سيفاً لنا في أيماكم) على مستواها المعجمي لا يعطي الدلالة المتوخاة من الجملة، والجيش المعادي ليس لديه سيف بالمعنى الحرفي، تسلموه من الحسين (ع) أو أصحابه، ولذلك إذا ما عمدنا إلى المعنى (الماورائي) للغة، نجد أن من معاني السيف عند العرب هي القوة، وتلك القوة يقصد بها أهل الكوفة الذين انخرطوا صاغرين إلى جانب السلطة الأموية ليشكلوا جيشاً عملاقاً، والجيش قوة والسيف رمز للقوة التي كان من المفترض على وفق الرسائل المرسلة إلى الحسين (ع) أن يكون أصحابها إلى جانبه.

فالإمام يوجه كلامه للجيش المعادي ولاسيما قواده الذين كانوا يرسلونه ويستحثونه للقدوم عليهم وأخذ البيعة، حتى بايعوا مسلم بن عقيل، وعندها اتحدوا بعد فرقة، حتى صاروا جيشاً عظيماً وقوة كبيرة، ولكن بعد حين تغيرت الأحداث، فثبط زعماءهم همة ذلك الجيش، وبثوا فيه الرعب لدوافع دنيوية، ثم جمعه مرة أخرى ولكن لمقاتلة الإمام (ع) كما هو معروف.

من هنا، نلاحظ كيف أن الكناية استطاعت أن تختزل تلك الأحداث، وهذا دليل شاعريتها في الأدب الحسيني، كما نلاحظ أيضاً أن استتال السيف باليد اليمنى ينطوي على معاني العزم والثبات إلى جانب أن الصورة استعانت بمثير حركي سمعي من جرّاء سلّ السيف فضلاً عن التطابق الصوتي والدلالي (سلّ).

وما قيل عن كلامه (ع) المذكور آنفاً يمكن أن يقال عن كلامه: (وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم)، فالنار كناية عن الحرب الضروس في واحدة من أشهر معانيها، وأهل الكوفة جمعوا تلك الحرب على الإمام (ع)، بعد أن كان عدوهم وعدو الإمام واحداً؛ وهو السلطة الأموية.

وهذه الصورة في الوقت الذي توحى بالحركة والاستحضارات العسكرية الدؤوبة، فإنها تشي أيضاً بتفاهة البنية الاجتماعية والرؤى الضيقة إلى كبلت أهل الكوفة.

(1) ينظر: جماليات الأسلوب، فايز الداية: 141.

(2) الملهوف: 155-156، وينظر: المجالس السنية: 110/1-111، و(حششتم) بمعنى جمعتم. لسان العرب: مادة (ح ش ش).

2/ الحديث الفني والصورة الكنائية: وفي الحديث الفني عند الإمام (ع) صور كنائية آخر؛ منها ما جاءت في قوله: "لا تصفّن لملك دواء، فإنه إن نفعه لم يحمذك، وإن ضره اتهمك"⁽¹⁾. فمن الجلي أن حمل النص على ظاهر معناه، مؤداه أنها نصيحة وعظة مؤكدة بنون التوكيد، للأطباء للعزوف عن مداواة الملوك حين يمرضون؛ لأنهم لا يجازون، وهذا الحمل لا يعطي إلا وجها ضيق المساحة من الدلالة ولا سيما أننا نتعامل مع نص لأحد أمراء الكلام⁽²⁾، ولذا فعلى المستقبل أن يتعب ويكدّ في أعمال الحدس والفكر لبلوغ المقاصد العميقة، ولا سيما أن الظاهرة الأدبية ليست عند الناص ولا في النص ولكن في علاقة النص بالقارئ⁽³⁾. أي أنه إذا ما حققنا انزلاقا خلف المعنى الظاهر بحثا عن دلالة خفية، وخرقنا القانون اللغوي فعندها ستنمظهر تلك الدلالة، في كون (الدواء) كناية عن النصيحة.

فالملك أو أي عنوان رسمي آخر حينما تقدم إليه النصيحة وينتفع بها فإنه سيسترها عن الناصح والآخرين تغطرسا وتكبيرا من أن يعمل بنصيحة أحد رعاياه، وأما إن وقع المحذور من تلك النصيحة فإن الملك سيفضح الأمر ولن يتردد باتهامك بالخيانة والدسيسة وما ينجم عن ذلك من مخاطرة بالنفس. وبهذا بدت حيوية الصورة الكنائية وقيمتها.

وواضح أن النص حينما اعتمد لفظة (الملك) اعتمدها بعنوانها (الارستقراطي) وليس بعنوانها الإسلامي؛ لأن المفروض بالحاكم الإسلامي أن يعمل بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾⁽⁵⁾.

والذي يترأى لي أنها دعوة إلى الناس بقطع وشائج العلاقة والوصال مع مراكز القرار في السلطة الأموية من خلال التعريض الخفي، وهذا المعنى يشكل أهم مسوغات استعمال الكناية التي "تمكنك من أن تشفي الغليل من الخصم من غير أن تجعل له إليك سبلا"⁽⁶⁾، فالإمام- فيما يبدو- تصدى للسلطة الأموية في الخفاء والعلن، وبهذا حققت لفظة (دواء) من خلال النص انزياحا بلاغيا جنبنا الوقوع في اللبس، عن طريق مغادرة المعنى الموضوع عرفيا والغوص في المعنى المجازي⁽⁷⁾.

والانزياح دونما تردد سمة جوهرية من سمات الشاعرية المتأتية بفعل المفاجأة التي يحدثها في المتلقي نتيجة وقوع غير المعتاد، ولما كانت الخطب والأحاديث الفنية ليست (شعرا) بطبيعة الحال، إلا أنها قد ضخت ما لمسناه من شاعرية وإيحاء، صار لزاما علينا أن نفترق عن الرأي الذي يذهب بحصر الشاعرية (أو الشعرية على وفق تعبير عدد من النقاد) بالشعر خاصة⁽⁸⁾.

(1) نزهة الناظر وتنبيه الخاطر: 84، وينظر: بحار الأنوار: 382/75.

(2) قال الإمام علي (ع): "وإنّا لأمراء الكلام". شرح نهج البلاغة: 12/13.

(3) ينظر: القراءة وتوليد الدلالة، د. أحمد لحمداني: 105.

(4) الرحمن/60.

(5) آل عمران/من 134.

(6) الصورة الأدبية: 68.

(7) لبيان العلاقة بين الكناية والانزياح، ينظر: الانزياح في التراث النقدي والبلاغي: 157-158.

(8) ينظر: م.ن: 58-59، 62 على سبيل المثال.

ومما يحسن الالتفات إليه أن ورود الحديث الفني في أدب الإمام الحسين (ع) من غير صفة السياق- كما هو حال الكناية غالباً- يجعل الاستدلال على المعنى المراد أمراً لا يخلو من صعوبة، وما يستتبعه من تداعيات خطيرة قد تسهم في رسم صورة فنية لا تستجيب لأية قراءة للنص؛ مما يجعل العودة إلى المرجعية الثقافية للإمام (ع) إجراء ملحقاً في التلقي والتحليل فـ"الوظيفة المرجعية قاعدة لكل اتصال. إنها تحدد العلاقات بين الرسالة والموضوع الذي تحيل عليه"⁽¹⁾، مع التنبيه على أن الباحث لا يشير بخفاء أو يكتفي عن نفسه بالإمام بالمحاضن الثقافية للإمام الحسين (ع) التي لما يصل إلى عتباتها.

وصفة القول: إن الكناية استطاعت أن تطعم صور الإمام (ع) دلاليًا وفنياً تطعيماً شاعرياً.

د. الصورة الافتراضية: بقي لنا أن نذكر في مجال الصورة الفنية أن هناك نوعاً من الصور الفنية في عدد من نصوص الأدب الحسيني، يعتمد في شكله على افتراض صورة أو ما يسمى (بالصورة الفرضية) التي تعتمد على (لو) الافتراضية، وتعريف موجز: هي "إحداث علاقة بين طرفين من خلال جعل أحدهما (يفترض) حصول شيء لم يحدث واقعياً"⁽²⁾، كما جاء في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾⁽³⁾.

فمن تلك الصور الفنية الفرضية ما تضمنته إحدى رسائله الجوابية لمعاوية، التي ورد فيها: "أولست بقاتل عمرو بن الحمق، الذي أخلقت وأبليت وجهه العبادة، فقتلته من بعد ما أعطيته من العهود ما لو فهمته العصم نزلت من شغف الجبال"⁽⁴⁾.

فالصورة الفنية التي انبثقت عن المقطع: (ما لو فهمته العصم نزلت من شغف الجبال) توصلت بعلاقة وعول الجبل الغريزية المتينة بالجبل في تشكيل فضاء الصورة، وعلى الرغم من وجود تلك العلاقة (التوأمية)، فإن الوعول-على فرض (عقلنتها)- ما لو فهمت تلك الموائيق وخطورتها التي أبرمها معاوية لعمر بن الحمق لما تأخرت في مغادرة قمم الجبال والنزول منها "إنكاراً لهذا النقض للعهد"⁽⁵⁾.

وهناك رأي آخر مؤداه أن تلك العهود والوعود الغليظة بالأمان التي قطعها معاوية لعمر بن الحمق، ما لو أعطيت لوعول الجبل- على تقدير أنها تمتلك وعياً- لشعرت بالأمان ونزلت، فما كانت تجده من أمان وغيره في قمم الجبال ستجده-على وفق تلك العهود- في الأرض البسيطة^(*).

ويرى الباحث أن كلا الرأيين راجح، ولا سيما أن الخيط العضوي المشترك بينهما هو قوة علاقة الوعول بالجبال، ويبدو أن مسير عمرو بن الحمق إلى مقر معاوية بالشام من المدينة- بعد وعود خطيرة وطويلة من الأخير- قد كثفتها الصورة

(1) علم الإشارة السيميولوجيا: 30.

(2) الإسلام والأدب: 171.

(3) الحشر/ من 21.

(4) الإمامة والسياسة: 146/1.

(5) تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي: 315.

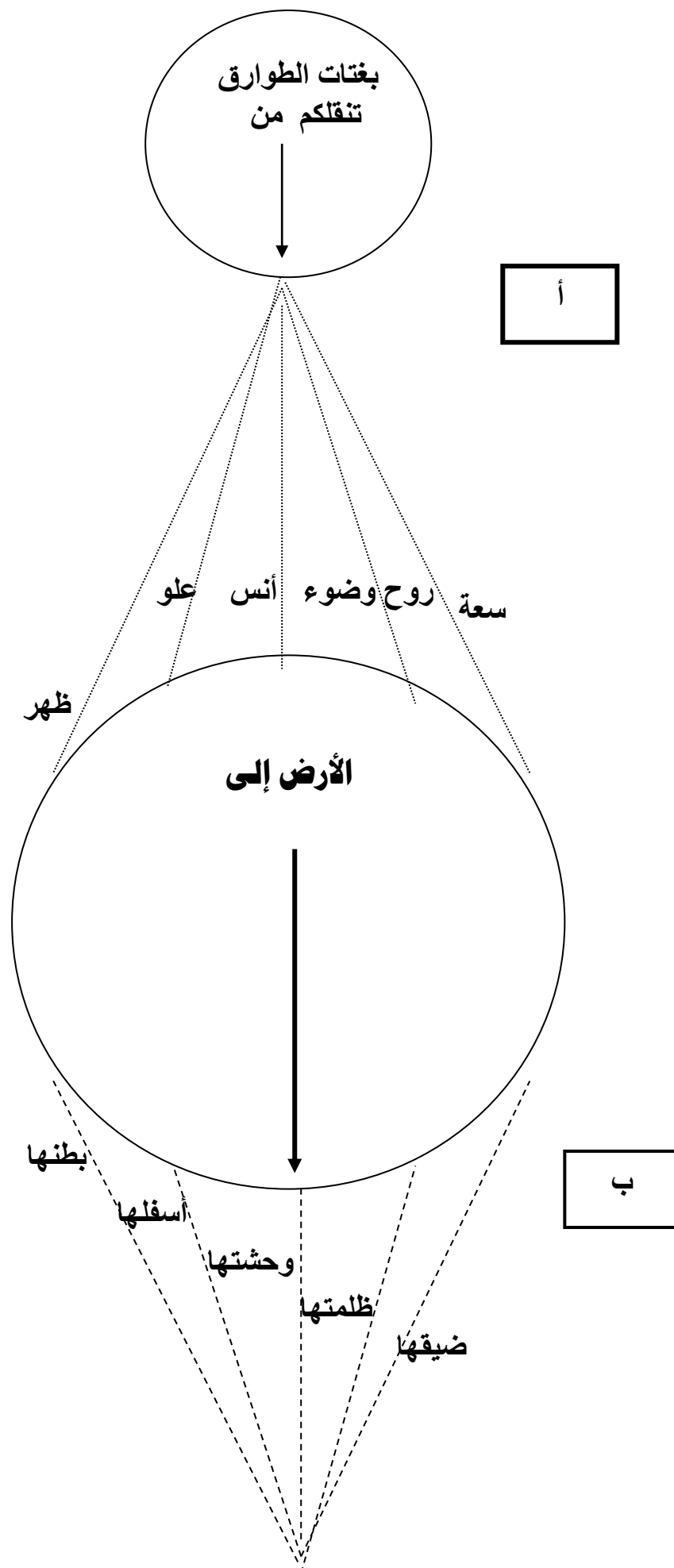
(*) هذا الرأي للأستاذ المشرف.

الفرضية بشكل مركز موح تمثلت بنزول الوعول من قمم الجبال إلى السهل. ومع أن وجود (لو) في العبارة موسوم سلفا بعدم التحقق- وهذا ألصق بالواقع- فقد تمكنت من نقل الذهن إلى واحة الخيال وتصعيده شعوريا لتضطلع بمهمة فنية هي تعميق الدلالة المستهدفة من خلال قناع لغوي خاص.

خاتمة: نختم مبحث الصورة الفنية بالحديث الموجز عن مصادر الصورة في الأدب الحسيني، إذ استقى صورته من مظاهر الطبيعة الفسيحة، التي لها حضور مميز في حياة الإنسان وبخاصة في ذلك الزمن، مثل (فرس، والرحى، والدبا، والفراش، وعسلان، وسيف، ونار، والعصم،...)، فإذا ما استعملها الإمام (ع) في صورته كانت صورا قارة في الأذهان ماثلة في الوجدان، ومن ثم يكون التأثير والتوصيل المقصود، وهذا الجانب من دون شك يشكل أبرز أسرار خلود نصوصه (ع).

والصورة في الأدب الحسيني لم تقف عند مجرد تسجيل وجوه الشبه المادية بين الأشياء، بل تجاوزتها إلى المماثلة النفسية وإلى العمق حتى أضفت عليها حياة شاخصة وحركة متجددة، لينقلب المعنى الذهني إلى هيئة أو حركة تجسمها الحالة النفسية الشعورية في لوحة أو مشهد.

ولعل ما يميز الصورة عند الإمام (ع)، فضلا عن مائز الدقة والجمال، استنادها إلى الجانب النفسي الشعري والحسي والجانب الاستشراقي المستقى من علوم جده المصطفى (ص) تماما كما يستند إلى الواقع أيضا، مع اعتماد عنصر التشبيه بنحو شكل نسبة كبيرة بالقياس إلى العناصر الصورية الأخرى؛ والسبب- فيما أرى- أن التشبيه هو أشد وضوحا من غيره في إبراز المعاني التي يستهدف الأدب الحسيني بثها وتوصيلها للمتلقين ولأزمنة مختلفة.



بعد أن خاض البحث في حقول فنية وموضوعية متنوعة في أدب الإمام الحسين(ع)، توصل إلى نتائج كثيرة عامة وتفصيلية تشكل - على وفق ما نرى - سمات رئيسية فيه، وكان من أهمها ما يأتي:

- انماز الإمام الحسين(ع) أدبيا بقوة التلقي والإرسال معا.
- كان(ع) بليغ اللسان والقلم.
- كان الاحتجاج سمة بارزة في خطبه(ع).
- تقدم القرآن الكريم مرجعيات الإمام(ع) فهيمن ألفاظا ومعاني على كثير من نصوصه، بطريقة تكشف عن وعي وقصدية في التعامل وعمق ومواصلة في كيفية الأخذ.
- إن خطابات الإمام الحسين(ع) زادت رقيا عند اصطكاك الأسنة في ساحة الوغى واستشهاد جل أهل بيته وأصحابه.
- كانت القيمة الأدبية والموضوعية لخطبه(ع) وراء امتياح عدد من الخطباء من كلمات خطبه، ولاسيما عندما يمرون بمحنة أو بمخاض عسير يرددونها بالمعنى ذاته مرة، وأخرى باللفظ ذاته.
- تبوأ خطبه(ع) المساحة الأوسع في نتاجه الأدبي، محققة حضورا نوعيا وفنيا.
- تميز أسلوب الاستفهام من بين أساليب التعبير في أدبه(ع) لما يمتلكه من دلالات ضمنية ثرية.
- كانت موضوعات خطبه وأدعيته ورسائله وأحاديثه الفنية على ثلاثة أنواع: السياسي، والديني، والاجتماعي.
- تنوعت الأنواع الأدبية في أدب الإمام الحسين(ع) وتعددت نصوصها، ولم تتفق المصادر على عدد محدد لنصوص كل نوع، وبعد متابعة إحصائية توصل البحث إلى أعداد اطمأن إليها من غير أن يجزم بها بصورة قاطعة. فبلغ عدد خطب الإمام(ع) التي اشتغل عليها البحث إحدى وثلاثين خطبة. كان عدد الخطب القصيرة منها اثنتي عشرة خطبة، وعدد الخطب المتوسطة ثمانين خطبة، وعدد الخطب الطويلة إحدى عشرة خطبة. وبلغ عدد أدعيته ثلاثين دعاء. كان عدد الأدعية القصيرة منها خمسة عشر دعاء، وعدد الأدعية المتوسطة تسعة أدعية، وعدد الأدعية الطويلة ستة أدعية، إلى جانب دعاء عرفة الطويل جدا قياسا إلى بقية الأدعية الطويلة. وبلغ عدد رسائله إحدى وعشرين رسالة. كان عدد الرسائل القصيرة منها إحدى عشرة رسالة، وعدد الرسائل متوسطة الطول سبع رسائل، وعدد الرسائل الطويلة رسالتين فقط. وبلغ عدد أحاديثه الفنية سبعة وثلاثين حديثا فنيا. كان عدد الأحاديث القصيرة منها سبعة عشر حديثا، وعدد الأحاديث المتوسطة أربعة عشر حديثا، وعدد الأحاديث الطويلة ستة أحاديث.
- تمثل(ع) البنية الإسلامية في الأنواع الأدبية كلها، والانطلاق منها.
- تعددت أنواع المخاطبين الذين خطبهم الإمام(ع)، ولكنهم في الغالب كانوا على ثلاثة أنواع: أهله وخاصته، وعامة الناس، والأعداء.

- توظيفه(ع) لنصوص من أنواع آخر في أثناء اشتغاله في نوع أدبي ما، حينما يستدعي الموقف المشتغل عليه ذلك.
- مثل الدعاء عند الإمام الحسين(ع) ركنا مهما ونوعا فنيا مميزا في أدبه، وأن يشغل مساحة واسعة في أدبه تلي مساحة الخطابة.
- تميزت أدعيته(ع) على اختلاف أنواعها، بتوافرها على العاطفة، ملؤها الإيمان والرضا بأمر الله(تعالى)، يفوح منها عبق الحب الإلهي.
- إن اختلاف الأطوال في نصوص الإمام(ع) إنما كانت تقتضيه الحاجة، ويتطلبه المقام.
- شغل الحديث الفني المرتبة الأعلى في أدب الإمام(ع) من حيث الكيفية الفنية في التعبير؛ على الرغم من قلة مساحته الكمية، ولعل هذا المائز هو أهم ما تميز به الحديث الفني عن سائر الأنواع الأدبية الأخر له(ع).
- ولما كان قصر الطول في الأحاديث الفنية عموما، يتطلب تكثيفا في اللفظ والفكرة وبعبارات مضغوطة موجهة – وهذا ما اتسمت به أحاديث الإمام(ع)- فإن ذلك جعل عملية الفصل بين أنواع أحاديثه، أيسر من بقية الأنواع الأدبية السابقة.
- في موضوع الصراع السياسي مع الدولة الأموية شغلت رسائله وخطبه(ع) مساحة هذا النوع من المعاني السياسية في أدبه مع ميل نسبي في زيادة مساحة الرسائل على الخطب.
- حققت الرسائل والخطب حضورا متميزا في دعوته للجهاد، مع تفوق بَيِّن في مساحة الرسائل، وهذا ما تقتضيه طبيعة الدعوة الجهادية وحاجتها لبعث الرسائل إلى أمصار مختلفة، بينما كانت مشاركة بقية الأنواع الأدبية مشاركة خجولة في هذا الميدان.
- فجرت ملحمة الطف العديد من الخطب، حتى غدت لسانها الناطق وقلبها النابض الحافظ، ثم جاءت أدعيته(ع) – بفارق ملحوظ- تستتلي خطبه في مساحة هذا المضمار السياسي، فيما انتحت بقية أنواعه الأدبية عن سابقتيهما مكانا قصيا.
- تقدمت خطبه(ع) في موضوع(توحيد الله(تعالى) وصفاته) بقية الأنواع الأدبية تلك، تردفها الرسائل، ثم الأدعية، فيما جاءت الأحاديث الفنية بأقل المساحات.
- تقدمت خطبه(ع) على بقية الأنواع الأدبية في شغل حيّز كبير من مساحة(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من الموضوع الديني، تلتها الرسائل وبفارق ملحوظ، فيما جاءت أحاديثه الفنية متقدمة على أدعيته التي امتلكت المساحة الصغيرة المتبقية.
- أولى الإمام(ع) اهتماما خاصا بالسياق وبالتوصيل.
- تجلّى الأدب الحسيني بثرائه اللغوي وبخاصة على مستوى تراكيب الجمل وتنوعها، تبعا لتنوع طرائق التعبير المقرونة بتنوع السياق وتعدد غايتها وطرائق توصيلها.

- تميزت ألفاظه(ع) بالجزالة والانسياوية، وبوضوح أثر السياق في أن تكون تعبيراته إيحائية أو مباشرة.
- كشفت المتابعة الصوتية عن تميز عنصر السجع في أدبه(ع) وعن توافره في الأدعية بصورة مكثفة لما يتطلبه هذا النوع من تلاوة ومدّ صوتي.
- أظهرت المتابعة الفنية الصورية عن تألق عنصر التشبيه ولاسيما في إبراز المعاني وتجسيم الدلالات. وقد شكلت الصور الحسية النمط الأوفر حظا من غيرها في تشبيهاته.
- انماز الأدب الحسيني باهتمامه على الجانب الاستشراقي الغيبي، مفيدا من علوم جده المصطفى(ص).
- أدب الإمام الحسين(ع) أدب الإباء والكبرياء والرفض.
- تجلت المزاوجة والممازجة بين الجانبين الإمتاعي والإقناعي في الأدب الحسيني، بشكل أبرز السمة الأدبية في شخصية الإمام الحسين(ع).

وَأَخِرُ دَعْوَانَا ﴿أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

Literature of Al-Imam Al- Hussein (Peace be upon him)
His Artistic and Incorporeal Cases

A Thesis Submitted by :
Mousa Khabit Aboud

To the Council of College of Education
Babylon University

As partial fulfillment of the requirements to get Master Degree in
Arabic Language Literatures

Supervised by
Assis. T. Dr. Qyas Hamzah Al-Khafaji

2008 A.D.

1429 H.

القرآن الكريم. 

المصادر والمراجع

(أ)

- إبصار العين في أنصار الحسين (عليه وعليهم السلام)، محمد طاهر السماوي، منشورات المكتبة الحيدرية، ط1، 1423هـ. 
- الأبعاد المستوحاة من ثورة الحسين، محمد علي جواد، مطبعة المؤلف، قم، ط1، 1416هـ. 
- ابن باجة وفلسفة الاغتراب، محمد إبراهيم الفيومي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988م. 
- أبو الشهداء- الحسين بن علي، عباس محمود العقاد، منشورات الشريف الرضي، ط2، د.ت. 
- الاتجاه العقلي في التفسير- دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط5، 2003م. 
- الاتجاهات والحركات في الشعر العربي، د.سلي الخضراء الجبوسي، تر: د.عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م. 
- الاتصال والتغير الثقافي، د.هادي نعمان الهيتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1978م. 
- أثر القرآن في الأدب العربي في القرن الأول الهجري، د.إبتسام مرهون الصفار، دار الرسالة للطباعة، بغداد، العراق، ط1، 1947م. 
- أثر اللسانيات في النقد الأدبي الحديث، توفيق الزبيدي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1984م. 
- الاحتجاج، الطبرسي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، د.ت. 
- إحقاق الحق وإزهاق الباطل، نور الله الحسيني المرعشي التستري، مكتبة المرعشي النجفي، قم، إيران، د.ت. 
- الأخبار الطوال، أبو حنيفة الدينوري، قدم له ووثق نصوصه ووضع حواشيه: د.عصام محمد الحاج علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م. 
- الأدب الإسلامي- المفهوم والقضية، د.علي علي صبح وآخران، دار الجيل، بيروت- كويت، ط1، 1992م. 
- أدب الحسين وحماسه، أحمد صابري الهمداني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ط3، 1415هـ. 
- أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، د.عبد الحسيب طه حميد، مطبعة السعادة، مصر، ط2، 1968م. 

- الأدب العربي في كربلاء من إعلان الدستور العثماني إلى ثورة تموز 1958م- اتجاهاته وخصائصه الفنية، د.عبود جودي الحلي، مكتبة أهل البيت، كربلاء، العراق، 2005م.
- الأدب العربي من ظهور الإسلام إلى نهاية العصر الراشدي، حبيب يوسف مغنية، دار الهلال، بيروت، 2002م.
- الأدب في ظل التشيع، عبد الله نعمة، دار التوجيه الإسلامي، بيروت-كويت، ط2، 1980م.
- الأدب في عصر النبوة والراشدين، صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1987م.
- أدب الكاتب، ابن قتيبة، تح:محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، د.ت.
- الأدب والأنواع الأدبية، نخبة من الأساتذة، قدم له: د.محمود الربدائي، تر: طاهر حجار، طلاس، دمشق، ط1، 1985م.
- أدعية الإمام الحسين، علي محمد علي دخيل، دار المرتضى، بيروت، ط1، 2006م.
- الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشيخ المفيد، منشورات محبين، قم، إيران، ط1، 2005م.
- إرشاد القلوب المنجي من عمل به من أليم العقاب، الحسن بن أبي الحسن محمد الديلمي، تح: هاشم الميلاني، دار الأسوة، إيران، ط2، 1424هـ.
- أساليب البيان في القرآن، جعفر الحسيني، مؤسسة الطباعة والنشر، طهران، إيران، ط1، 2002م.
- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، د.قيس إسماعيل الأوسي، بيت الحكمة، بغداد، 1988م.
- أساليب النثر الفني، لطيف محمد العكام، مطبعة الآداب، النجف، ط1، 1974م.
- استقبال النص عند العرب، د.محمد رضا مبارك، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1999م.
- أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني(ت 471هـ أو 474هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط1، 1991م.
- أسرار الشهادة، الفاضل الدربندي(ت1286هـ)، منشورات الأعلمي، طهران، د.ت.
- الأسس الجمالية في النقد العربي-عرض وتفسير ومقارنة، د.عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986م.
- الأسس العلمية لنظريات الإعلام، أحمد زكي بدوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.

- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، د. مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 1984.
- أسطورة الأدب الرفيع، د. علي الوردي، دار كوفان للنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1994م.
- الإسلام والأدب، د. محمود البستاني، ستارة، قم، ط1، 1422هـ.ق.
- الأسلوب- دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، أحمد الشايب، مطبعة السعادة، القاهرة، ط5، د.ت.
- الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، د. عبد السلام المسدي، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس، 1977م.
- الاسم الأعظم أو معارف البسملة، محمد الغروي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1982م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- اصطلاحات الصوفية، كمال الدين القاشاني، ضبطه وعلق عليه: موفق فوزي الجبر، الحكمة، دمشق، سورية، ط1، 1995م.
- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الإنجلو المصرية، ط5، 1986.
- أصول البيان العربي- رؤية بلاغية معاصرة، د. محمد حسين علي الصغير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.
- أصول الكافي، الكليني، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، 2005م.
- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، دار الشروق، عمان، ط1، 1997م.
- أضواء على ثورة الإمام الحسين (ع)، السيد محمد محمد صادق الصدر، مؤسسة العارف، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق- دراسة قرآنية لغوية وبيانية، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف القاهرة، ط3، 2004م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط16، 2005م.
- أعلام الدين في صفات المؤمنين، الحسن بن محمد الديلمي، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام)، قم، ط1، 1408هـ.
- أعلام الهداية- الإمام الحسين (سيد الشهداء)، لجنة التأليف، المجمع العلمي لأهل البيت (عليهم السلام)، قم، إيران، ط2، 1425هـ.
- إعلام الوري بأعلام الهدى، الطبرسي، قدم له: محمد مهدي الخرسان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ط3، 1970م.
- أعيان الشيعة، محسن الأمين، تح: حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، د.ت.
- الاغتراب، محمود رجب، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1978.

- الاغتراب- سيرة ومصطلح، محمود رجب، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، ط3، 1988.
- الاغتراب في تراث صوفية الإسلام- دراسة معاصرة، عبد القادر موسى المحمدي، بيت الحكمة، بغداد، العراق، ط2001، 1.
- الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1987.
- الاغتراب في الشعر العراقي، د.محمد راضي جعفر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ت.
- إقبال الأعمال، العلامة ابن طاووس، مؤسسة التاريخ العربي، ط1، 2005م.
- إكمال الدين وإتمام النعمة في إثبات الرجعة، الشيخ الصدوق، قدّم له: محمد مهدي الخرسان، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف، 1970م.
- أمالى الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسن بن بابويه القمي (ت381هـ)، تقديم: محمد مهدي حسن الموسوي الخرسان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 1970م.
- الإمام الحسين بن علي(عليه السلام) سيد الشهداء، السيد زهير الأعرجي، منشورات لسان الصدق، قم المقدسة، ط1، 2005م.
- الإمام الحسين سمو المعنى في سمو الذات، د.عبد الله العلي، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، ط1، 1415هـ.
- الإمام الحسين(ع) شمس لن تغيب، جميل الربيعي، دار الاعتصام، قم، إيران، ط1، 2005م.
- الإمام الحسين(ع) قبس من نور، د.عباس حسن نصر الله، الغدير، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- الإمام الحسين(عليه السلام) كما رأيته، ناصر الكرمي، مطبعة محمد، ط1، 2005م.
- الإمام الحسين عملاق الفكر الثوري- دراسة في المنهج والمسار، د. محمد حسين علي الصغير، مؤسسة المعارف للطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- الإمامة والسياسة، أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (ت276هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، د. محمد أحمد ويس، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002م.
- أنساب الأشراف، البلاذري(ت279هـ)، حققه وعلق عليه: محمد باقر المحمودي، دار التعارف، بيروت، د.ت.
- الأنواع الأدبية- مذاهب ومدارس(في الأدب المقارن)، شفيق البقاعي، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.

- أهل البيت تنوع أدوار ووحددة الهدف، السيد محمد باقر الصدر، دار التعارف، بيروت، لبنان، د.ت.
- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني (ت739هـ)، قدم له وبوب شرحه: د.علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط3، 2000م.

(ب)

- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت1111هـ)، المكتبة الإسلامية، طهران، د.ت.
- البحث عن معنى، د. عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2 1983م.
- البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي (ت774هـ)، خرج أحاديثه: محمد بيومي وآخرون، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
- البرهان في وجوه البيان، ابن وهب الكاتب (ت337هـ)، تح: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1967م.
- بلاغة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) - دراسة وتحليل، حسين أبو سعيدة الموسوي، كوثر، ط1، 2004م.
- البلاغة العربية - قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، مصر، ط1، 1997.
- البلاغة في ضوء الأسلوبية والسياق، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل، عمان، الأردن، 2003م.
- البلاغة والأسلوبية، د. محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984م.
- بنية الخطاب النقدي - دراسة نقدية، د.حسين خمري، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1990م.
- البنوية التكوينية والنقد الأدبي، لوسيان غولدمان وآخرون، راجع الترجمة: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.
- البيان والتبيين، الجاحظ (ت255هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط7، 1998م.

(ت)

- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، دار ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.
- تاريخ الأدب العربي (أدب صدر الإسلام) - نقد وتحليل، جعفر باقر الحسيني، دار الاعتصام، ط1، 1416هـ.
- تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط20، د.ت.

- تاريخ الأدب العربي- العصر الأموي، د.قصي الحسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2002م.
- تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د.محمود البستاني، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، لبنان، 1990م.
- تاريخ الترسل النثري عند العرب في العصر الأموي، د.محمود المقداد، دار عرب، الجهاء، الكويت، ط1، 1997م.
- تاريخ الطبري، الطبري (ت310هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1985م.
- تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي (ت292هـ)، علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصوري، شريعت، قم، ط2، 1425هـ.
- تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة (ت276هـ)، تح: أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1973م.
- تحاليل أسلوبية، محمد الهادي الطرابلسي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1992.
- تحف العقول، ابن شعبة الحراني، قدم له وعلق عليه: حسن الأعلمي، شريعت، طهران، ط1، 1384هـ.
- التحليل النقدي والجمالي للأدب، د.عناد غزوان، دار آفاق عربية، بغداد، 1985.
- تحولات النص- بحوث ومقالات في النقد الأدبي، د. إبراهيم خليل، منشورات وزارة الثقافة، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط1، 1999.
- تذكرة الخواص، سبط ابن الجوزي (ت654هـ)، مؤسسة أهل البيت، بيروت، لبنان، 1401هـ.
- ترتيب كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، منشورات دار الأسوة، إيران، 1414هـ.
- ترجمة ريحانة رسول الله الإمام الشهيد الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) من تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (ت571هـ)، تح: محمد باقر المحمودي، مؤسسة المحمودي، بيروت، لبنان، ط1، 1978م.
- التسهيل لعلوم التنزيل، أحمد بن جزي الغرناطي (ت741هـ)، اعتنى بتنقيحه وضبط كلماته وخرج آياته وأحاديثه وعرف بأعلامه د.عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، لبنان، د.ت.
- تشریح النقد، نورثروب فراي، ترجمة وتقديم: محيي الدين صبحي، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ط2، 2005م.
- التشكيلا الإيقاعي والمكاني في القصيدة العربية الحديثة، د.كريم الوائلي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 2006م.

- التصوف الإسلامي، تور آنديريه، تر: عدنان عباس علي، منشورات
الجمال، ألمانيا، ط1، 2003م.
- التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، د.زكي مبارك، دار الجيل،
بيروت، لبنان، د.ت.
- تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، أنيس المقدسي، الدائرة
العربية، بيروت، د.ت.
- تطور الشعر العربي الحديث في العراق- اتجاهات الرؤيا وجماليات
النسيج، علي عباس علوان، منشورات وزارة الأعلام العراقية، بغداد،
1975.
- التعرف لمذهب التصوف، أبو بكر محمد بن إسحق الكلاباذي
(ت380هـ)، تح:د.عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1،
2004م.
- تفسير الإمام العسكري(ع)، أبو محمد الحسن بن علي العسكري(عليه
السلام)، مدرسة الإمام المهدي، قم، إيران، 1409هـ.
- تفسير الطبري، الطبري، ضبط وتعليق: محمود شاکر الحارستاني،
تصحيح: علي عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1،
2001م.
- تفسير القرآن الكريم، عبد الله شبر (ت1242هـ)، الدار الإسلامية، بيروت،
لبنان، ط10، 1999م.
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل،
الزمخشري(ت583هـ)، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون
شبحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعرفة، القاهرة،
1963م.
- التكامل في الإسلام، د.أحمد أمين، آثار، دم، ط1، 2006م.
- تكوين البلاغة- قراءة جديدة ومنهج جديد، علي الفرج، أمين، قم، إيران،
ط1، د.ت.
- التلخيص في علوم البلاغة، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني
الخطيب(ت739هـ)، ضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب
العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
- التوجيه الأدبي، طه حسين وآخرون، وزارة المعارف، مصر، 1951م.
- التوحيد، الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه
القمي(ت381هـ)، صححه وعلق عليه: هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة
النشر الإسلامي، قم، ط8، 1423هـ.

(ث)

- 📖 ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الصدوق (ت 381هـ)، قدم له: محمد مهدي الخرسان، أمير، قم، ط2، 1368هـ.
- 📖 ثورة الحسين (عليه السلام) - ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية، محمد مهدي شمس الدين، وثق أصوله وحققه وعلق عليه: سامر الغديري، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ط1، 2006م.

(ج)

- 📖 جامع الأخبار، تاج الدين محمد بن محمد الشعيري (من أعلام القرن السادس الهجري)، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.
- 📖 جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979م.
- 📖 جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، د. ماهر مهدي هلال، دار الحرية، بغداد، الجمهورية العراقية، 1980م.
- 📖 جماليات الأسلوب، فايز الداية، الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1990م.
- 📖 جماليات المكان، غاستون باشلار، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط2، 1984م.
- 📖 الجمالية عبر العصور، آتيان سوريو، تر: د. ميشال عاصي، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ط1، 1974م.
- 📖 جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.
- 📖 جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- 📖 جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، د.ت.
- 📖 جواهر المطالب في مناقب الإمام الجليل علي بن أبي طالب (عليه السلام)، محمد بن أحمد الدمشقي الباعوني (871هـ)، تح: محمد باقر المحمودي، مطبعة دانش، قم، ط1، 1415هـ.

(ح)

- 📖 حسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي (725هـ)، تح: أكرم عثمان، دار الرشيد، بغداد، 1980.
- 📖 الحسين (ع) سماته وسيرته، محمد رضا الجالي، دار المعروف، قم، إيران، ط2، 2005م.
- 📖 الحسين في الفكر المسيحي، انطون بارا، مطبعة سرور، قم، إيران، ط1، 2004.
- 📖 الحوارات الكاملة، أدونيس، دار الطليعة، دمشق، سوريا، ط1، 2005م.
- 📖 الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980م.

- حياة الإمام الحسين (ع) - دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي، باقري، إيران، ط4، 1992م.
- حياة الحيوان الكبرى، الدميري، (ت 808هـ)، اعتنى بتصحيحها: عبد اللطيف سامر، بقيق، قم، ط1، 1425هـ.
- الحيوان، الجاحظ (ت 255هـ)، تح: عبد السلام محمد هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1969م.
- (خ)
- خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين بن حجة الحموي، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2004م.
- خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981.
- الخصال، ابن بابويه القمي (ت 381هـ)، حققه: علي أكبر الغفاري، مؤسسة العلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
- الخطاب الشعري الحداثي والصورة الفنية- الحداثة وتحليل النص، عبد الإله الصائغ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1999م.
- الخطاب والقارئ، د.حامد أبو أحمد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط3، 2003م.
- الخطابة، أرسطوطاليس، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979م.
- الخطابة العربية في عصرها الذهبي، إحسان النص، دار المعارف، القاهرة، 1963م.
- الخطابة في صدر الإسلام، د.محمود طاهر درويش، دار المعارف، مصر، ط2، 1968م.
- خطب الإمام الحسين (ع) على طريق الشهادة، لبيب بيضون، مطابع ابن زيدون، دمشق، سوريا، 1974م.
- الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريرية- مقدمة نظرية، دراسة تطبيقية، د.عبدالله محمد الغدامي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط3، 1993م.
- (د)
- دراسات في النقد الأدبي، رشيد العبيدي، مطبعة المعارف، بغداد، ط1، 1969م.
- الدعاء، عبد الحسين الحسيني، تر: دار الهدى، دار البلاغة، ط1، 1991م.
- الدعاء: حقيقته- آدابه- آثاره، مركز الرسالة، قم، إيران، ط1، 1419هـ.
- الدعاء عند أهل البيت (عليهم السلام)، الشيخ محمد مهدي الأصفي، نكّين، قم، ط2، 1416هـ.
- الدعاء في القرآن الكريم، محمود بن شريف، د.مط، مصر، 1966م.

المدعو، قطب الدين أبو الحسين سعيد بن هبة الله الراوندي (ت573هـ)، تح: عبد الحليم عوض الحلي، مطبعة دليل ما، قم، إيران، ط1، 1427هـ.

دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.

دلائل الإمامة، أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري (من أعلام القرن الخامس الهجري)، أمير، قم، ط3، 1363هـ.

دلالة الألفاظ، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م.

دليل الدراسات الأسلوبية، د. جوزيف ميشال شريم، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط1، 1984م.

الدوافع الذاتية لأنصار الحسين، محمد علي عابدين، دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران، ط3، 1983م.

دور المنبر الحسيني في التوعية الإسلامية، محمد باقر المقدسي، دار الفقه، قم، ط1، 1424هـ.

دير الملاك- دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر، د. محسن أطيّمش، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2، 1986.

دينامية النص- تنظير وإنجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، والدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.

(ر)

ربيع الأئمة في أدعية خير الأئمة، عبد الحسين الطالعي، ميقات، طهران، ط1، 1419هـ.

رسائل الجاحظ، الجاحظ (ت255هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر، د.ت.

الرسائل الفنية في العصر الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، غانم جواد رضا، دار التربية، بغداد، العراق، 1978م.

الرسالية في الثورة الحسينية، د. حسين الحاج حسن، دار الكرام، بيروت، لبنان، ط1، 1993م.

رماد الشعر- دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق، د. عبد الكريم راضي جعفر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1998م.

(ز)

زهر الآداب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي المصري القيرواني، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم الدكتور زكي مبارك، حققه وزاد في تفصيله وضبطه وشرحه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، 1972م.

(س)

- سلطة النص- قراءة في توظيف النص الديني، عبد الهادي عبد الرحمن، سينا للنشر، 1988م.
- سيرة الأئمة الإثني عشر، هاشم معروف الحسيني، شريعت، قم، ط1، 1425هـ.
- السيرة النبوية، ابن هشام(ت213هـ)، تح:أحمد جار، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، ط1، 2003م.
- سيكولوجية الإبداع والفن والأدب، يوسف ميخائيل أسعد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986.
- (ش)
- شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي(ت656هـ)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بغداد، العراق، ط1، 2005م.
- شعر الزهد في العصر العباسي- من قيام دولة بني بويه سنة 334هـ حتى سقوط بغداد سنة 656هـ، د.عبد الستار محمد ضيف، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2005م.
- الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي، د.عدنان حسين العوادي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986م.
- الشعر العربي المعاصر، د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1980م.
- الشعر العربي المعاصر- قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، د.عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2، 1973م.
- الشعراء والتلقي- دراسة نقدية، د.علي جعفر العلاق، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 2002م.
- الشعرية، تزفيتان تودوروف، تر: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1987م.
- الشهيد مسلم بن عقيل، عبد الرزاق المقرم، أمير، قم، ط1، 1413هـ.
- (ص)
- الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا(ت395هـ)، شرح وتحقيق:أحمد صقر، دار الفيصلية، مكة المكرمة، السعودية، د.ط، د.ت.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي(ت821هـ)، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه:محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.
- الصباح في اللغة والعلوم، الجوهري، تقديم:عبدالله العلايلي، إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1975م.
- صحيح البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري(ت256هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2001.

- صحیح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ)، دار دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
- الصحيفة السجادية الكاملة للإمام علي بن الحسين (ع)، تقديم وتحقيق: سلمان جاسم، مطبعة الديواني، بغداد، العراق، ط1، 1988م.
- صدمة الحداثة، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط1، 1978.
- صفوة الصفوة، ابن الجوزي، د. مط، حيدرآباد، 1355هـ.
- الصلة بين التصوف والتشيع، د. كامل مصطفى الشبيبي، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط3، 1982م.
- الصورة الأدبية في القرآن الكريم، د. صلاح الدين عبد التواب، الشركة المصرية العالمية، مصر، ط1، 1995م.
- صورة بخیل الجاحظ الفنية من خلال خصائص الأسلوب في كتاب البخلاء، أحمد بن محمد بن أمبيريك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، 1986م.
- الصورة الشعرية، سي. دي لويس، تر: أحمد نصيف الجنابي وآخرين، مراجعة: د. عناد غزوان، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، د. جابر عصفور، دار الثقافة، القاهرة، 1974.
- الصورة الفنية معياراً نقدياً، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1978.

(ط)

- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت231هـ)، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974م.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد (ت230هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت745هـ)، مراجعة وضبط وتدقيق: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

(ظ)

- ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقارنة بنيوية تكوينية، محمد بنيس، دار التنوير، بيروت، ط2، 1985.

(ع)

- عصر القرآن، محمد مهدي البصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط3، 1987م.
- العقائد الإسلامية، محمد الحسيني الشيرازي، دار صادق، كربلاء، العراق، د.ت.

- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، تقديم: خليل شرف الدين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1986م.
- علم الإشارة السيميولوجيا، بيير جيرو، تر: منذر عياشي، دار طلاس، سوريا، 1992م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق- دراسة تطبيقية على السور المكية، د. صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000م.
- علم النفس الديني، رشاد علي عبد العزيز، دار المعرفة، مصر الجديدة، 1996م.
- عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، جمال الدين أحمد بن علي الحسيني المعروف بابن عتبة (ت828هـ)، مؤسسة أنصاريان، قم، إيران، ط2، 2004م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق (ت456هـ)، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط4، 1972م.
- العمل الأدبي، حسن الشيرازي، دار سلوني، دمشق، سوريا، ط1، 2005م.
- العوالم، عبد الله البحراني الأصفهاني، مدرسة الإمام المهدي، قم، إيران، 1407هـ.
- عيون الأخبار، ابن قتيبة (ت276هـ)، شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له ورتب فهارسه: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- عيون أخبار الرضا (ع)، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه الشيخ الصدوق (ت381هـ)، أمير، قم، ط1، 1378هـ.
- عيون المعجزات، حسين بن عبد الوهاب (ت5هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، 1414هـ.
- (غ)
- الغربة في شعر محمود درويش، أحمد جواد مغنية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- (ف)
- الفتاوى الميسرة- العبادات والمعاملات، السيد السيستاني، مطبعة ستارة، قم، إيران، ط1، 1416هـ.
- الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، 1966م.
- الفتوح، ابن أعثم الكوفي (ت314هـ)، دار الكتب الإسلامية، بيروت، لبنان، 1406هـ.
- فجر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.

- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت429هـ)، تح: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا (ع)، المؤتمر العالمي للإمام الرضا، تح: مؤسسة أهل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم، إيران، ط1، 1406هـ.
- فلاح السائل، العلامة ابن طاووس (ت664هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، 1372هـ.
- الفلسفة الصوفية في الإسلام، د. عبد القادر محمود، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1966م.
- فن الخطابة، انطوان القوال، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- فن الخطابة وتطوره عند العرب، إيليا حاوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1992م.
- الفن ومذاهبه في النثر العربي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، د.ت.
- في الأدب وفنونه، علي بو ملحم، المطبعة المصرية، صيدا، لبنان، د.ت.
- في البحث الصوتي عند العرب، خليل إبراهيم العطية، دار الحرية، بغداد، 1984م.
- في رحاب الدعاء، الشيخ محمد حسين فضل الله، دار الملاك، ط3، 2002م.
- في ظلال دعاء الافتتاح، منير الخباز القطيفي، دار المحجة البيضاء، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
- في ظلال الطف- بحوث تحليلية ليوم عاشوراء، محاضرات محمد مهدي الأصفي، بقلم: حسين الربيعي، دار الكرم، بيروت، ط1، 1996م.
- في النقد الأدبي والتحليل النفسي، د.خريستو نجم، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.

(ق)

- القاموس المحيط، الفيروز آبادي (ت817هـ)، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ.
- القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزالد ديكر و جان ماري سشايفر، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2007م.
- القراءة وتوليد الدلالة- تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، د. حميد لحداني، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003.

قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

قضايا الشعرية، رومان ياكبسون، تر: محمد الولي ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988.

المقام الزخار والصمصام البتار، فرهاد بن عباس القاجاري، تعريب وتحقيق: محمد شعاع فاخر، مطبعة شريعت، إيران، 1423هـ.

قواعد النقد الأدبي، لاسل أبركرومبي، تر: محمد عوض محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط2، 1986م.

(ك)

الكامل في التاريخ، ابن الأثير (ت630هـ)، تح: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

الكامل في اللغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت285هـ)، عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، دت.

كتاب سليم بن قيس، سليم بن قيس الكوفي (ت76هـ)، تح: محمد باقر الأنصاري، مطبعة نكارش، قم، إيران، ط4، 1426هـ.

كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري (ت395هـ)، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952م.

كشف الغمة في معرفة الأئمة، الإريلي (ت693هـ)، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 2005م.

كلمة الإمام الحسين (ع)، حسن الشيرازي، مركز الرسول الأعظم، بيروت، لبنان، طمحة، رمضان رمضان محترم.

(ل)

لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري (ت711هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، دت.

اللسانيات ونظرية التواصل- رومان ياكوبسن أنموذجا، عبد القادر الغزالي، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2003م.

لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية، د. عدنان حسين العوادي، دار الحرية، بغداد، العراق، 1985م.

لغة الشعر عند الجواهري، د. علي ناصر غالب، دار الصادق، بابل، العراق، ط1، 2005.

اللغة الشعرية في الخطاب النقدي العربي (تلازم التراث والمعاصرة)، محمد رضا مبارك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1993م.

اللغة في عملية الاتصال الجماهيري، هادي نعمان الهيتي، دار السامر، بغداد، العراق، ط1، 1997م.

- اللغة والإبداع- مبادئ علم الأسلوب العربي، شكري محمد عياد، أنترناشيونال، دم، ط1، 1988م.
- اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز، تر: عباس صادق الوهاب، مراجعة: يوثيل عزيز، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1987م.
- لغة الكبد إلى نصيحة الولد، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي(ت597هـ)، تح: عبد الغفار سلمان البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987م.
- لمعة من بلاغة الحسين(ع)، مصطفى المحسن آل الاعتماد، مطبعة الغري الحديثة، النجف، العراق، ط5، 1960م.
- لواعج الأشجان، محسن الأمين العاملي، تح:حسن الأمين، دار الأمير، بيروت، لبنان، ط1، 1996م.
- ليلة عاشوراء في الحديث والأدب، عبد الله الحسن، بهمن، ط1، 1418هـ.

(م)

- ما وراء الفقه، السيد محمد محمد صادق الصدر، مطبعة القضاء، النجف الأشرف، العراق، 1996م.
- مبادئ النقد الأدبي، أي. أي. ريتشاردز، تر: د. إبراهيم الشهابي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ط1، 2002م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير(ت637هـ)، حققه وعلق عليه: كامل محمد محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
- مثير الأحزان في أحوال الأئمة الأثني عشر أمناء الرحمن، شريف الجواهري، مطبعة شريعت، قم، إيران، 1423هـ.
- المجازات النبوية، الشريف الرضي(ت406هـ)، تصحيح: مهدي موشمند، مقابلة النص: مهدي إمام وآخر، مطبعة ستارة، قم، إيران، 1422هـ.
- المجالس السنوية في مناقب ومصائب العترة النبوية، محسن الأمين، شريعت، بيروت، لبنان، ط1، 1425هـ.
- مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني(ت518هـ)، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2002م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، تصحيح وتعليق: هاشم الرسولي الهلاتي وفضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر، طهران، ط1، 1986م.
- مختار الصحاح، الرازي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981م.
- مختصر تفسير الميزان لمحمد حسين الطباطبائي، إعداد: كمال مصطفى شاكر، مطبعة مهر، قم، إيران، ط3، 2005م.

- مختصر جواهر الكلام في الحكم والأحكام- معجم مفهرس للحكم النبوية، القاضي ناصح الدين الأمدي، دار العلوم، بيروت، ط1، 1400هـ.
- مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية (ت751هـ)، تح: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1956م.
- مدخل إلى علم النص مشكلات بناء النص، زتسيسلاف واورزتيك، تر: أ.د. سعيد حسن بحيري، المختار، القاهرة، ط1، 2003م.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د. عبد الله الطيب المجذوب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1955.
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2002م.
- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، حسن النوري الطبرسي (ت1320هـ)، تح: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، بيروت، لبنان، ط3، 1991م.
- مستقبل الشعر وقضايا نقدية، د. عناد غزوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1994م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت241هـ)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- مشكلة الموت عند الصوفية، د. مهدي محمد إبراهيم، تصدير: د. عاطف العراقي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2004م.
- المطابقة والاختلاف- بحث في نقد المركزية الثقافية، د. عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004م.
- مطالب السؤل، كمال الدين بن طلعة الشافعي (ت652هـ)، تح: ماجد أحمد عطية، مؤسسة أم القرى، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.
- مع الحسين في نهضته، أسد حيدر، دار التعارف، بيروت وسوريا، ط1، 1394هـ.
- مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة، عزت الله المولاني ومحمد جعفر الطبرسي، دراسات عاشوراء، قم، إيران، ط2، 1425هـ.
- معاجز الإمام الحسين (ع)، هاشم البحراني، تح: علاء الدين الأعلمي، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.
- معادن الحكمة في مكاتيب الأئمة (عليهم السلام)، محمد بن الحسن المرتضى الكاشاني، مكتبة الصدوق، طهران، إيران، 1388هـ.
- معالم أصول الدين، فخر الدين الرازي (ت606هـ)، تح: طه عبد الرؤوف، دار الكتاب العربي، لبنان، 1984م.

- معالم الدين وملاذ المجتهدين، أبو منصور جمال الدين الحسن بن زين الدين النحاريري العاملي الجباعي (ت 1011هـ)، مطبعة بهمن، قم، إيران، ط5، 1413هـ. 
- معالي السبطين، محمد مهدي الحائري، منشورات الشريف الرضي، قم، إيران، 1409هـ. 
- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، تح: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط5، 1425هـ. 
- معاني القرآن، أبو جعفر النحاس (ت 338هـ)، تح: د. يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة، 2004م. 
- معاني النحو، فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، عمان، الأردن، ط2، 2003. 
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1979. 
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبه وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984م. 
- المعجم المفصل في علوم البلاغة، إعداد: د. إنعام نوال عكاوي، مراجعة: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1996م. 
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة شريعة، 1424هـ. 
- المعجم الوسيط، إبراهيم، مصطفى وآخرون، دار الدعوة، طهران، ط5، 1426هـ. 
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي عبد الجبار، تح: توفيق الطويل وآخر، وزارة الثقافة، مصر، د.ت. 
- مفاتيح الجنان (ملحق الباقيات الصالحات)، الشيخ القمي، تر: محمد رضا النجفي، مكتبة الفرقان، بيروت، لبنان، د.ت. 
- مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي (ت 626هـ)، ضبطه وشرحه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م. 
- مفتاح الفلاح في عمل اليوم والليلة، الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين الحارث العاملي، تح: مهدي الخراساني، تح: مهدي الرجائي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ط2، 1422هـ. 
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان عدنان داوودي، مطبعة كيميا، قم، ط4، 1425هـ. 
- مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع عشر، توفيق الزبيدي، د.مط، 1985م. 

- مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2005م.
- مقاتل الطالبين، أبو الفرج الأصفهاني(ت356هـ)، شرح وتحقيق: أحمد صقر، مطبعة عترة، إيران، ط1، 1425هـ.
- مقالات في الأسلوبية، منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1990م.
- مقالة في النقد، غراهام هو، تر: محيي الدين صبحي، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1973م.
- مقتل أبي عبد الله الحسين(ع)، من موروث أهل الخلاف، زهير علي الحكيم، ظهور، ط1، 2005م.
- مقتل الإمام الحسين أو واقعة الطف، محمد تقي آل بحر العلوم، تقديم وتعليق وإضافات: نجل المؤلف الحسين بن التقي، مطبعة شريعت، إيران، ط1، 1426هـ.
- مقتل الحسين، محمد كاشف الغطاء، تح: هادي الهلالي، مطبعة أمير، قم، إيران، ط1، 1419هـ.
- مقتل الحسين عليه السلام، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي الخوارزمي(ت568هـ)، تح: محمد السماوي، دار أنوار الهدى، ط3، 2005م.
- مقتل الحسين عليه السلام، عبد الرزاق الموسوي المكرم، مؤسسة النور، بيروت، لبنان، ط1، 2002م.
- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون، اعتناء ودراسة: أحمد الزغبى، دار الأرقم، بيروت، لبنان، د.ت.
- مقدمة في نظرية الأدب، عبد المنعم تليمة، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2، 1979م.
- مقدمة في النقد الأدبي، د.علي جواد الطاهر، مطبعة سلمى الفنية الحديثة، بيروت، ط2، 1983م.
- مكارم الأخلاق، رضي الدين الطبرسي(من أعلام القرن السادس)، حققه وقدم له: حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط3، 2001م.
- الملحمة الحسينية، مرتضى المطهري، فيضية، ط1، 1425هـ.
- الملل والنحل، الشهرستاني(ت548هـ)، صححه وعلق عليه: أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط7، 2007م.
- المهوف على قتلى الطفوف، ابن طاوس(ت664هـ)، تحقيق وتقديم: فارس تبريزان، دار الأسوة، طهران، ط3، 1380هـ.
- من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1975م.

- من سيميولوجيا الاتصال- حركة الجسد، د.محمد غيلان، في ضمن كتاب السيميائية والنص الأدبي، مجموعة باحثين، منشورات جامعة عنابة باجي مختار، الجزائر، 1995م.
- مناقب آل أبي طالب، أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني(ت588هـ)، تحقيق وفهرسة: ديوسف البقاعي، دار الأضواء، بيروت، لبنان، ط2، 1991م.
- مناهج النقد المعاصر، د.صلاح فضل، دار الآفاق العربية، القاهرة، د.ت.
- منبر الصدر، السيد محمد محمد صادق الصدر، تقرير وتحقيق: محسن الموسوي، دار الباقر(ع)، بغداد، العراق، د.ت.
- منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، عباس القمي، تر: نادر التقي، محبين، قم، ط2، 2005م.
- المنطق، محمد رضا المظفر(ت1383هـ)، دار الغدير، قم، ط4، 1426هـ.
- مئة المنان في الدفاع عن القرآن، السيد محمد محمد صادق الصدر، كوثر، ط1، 1426هـ.
- منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث- دراسات، د.علي زوين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 1986م.
- منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري- الآفاق النظرية وواقعية التطبيق، د.قاسم البريسم، دار الكنوز الأدبية، 1999م.
- مهج الدعوات أو منهج العبادات، العلامة ابن طاووس(ت664هـ)، قدم له وعلق عليه الشيخ حسن الأعلمي، مطبعة فاضل، النجف، العراق، ط1، 1384م.
- موسوعة الإمام الحسين(ع)، محمد عبد الرسول البلاغي، مطبعة الوفاء، د.م، ط1، د.ت.
- موسوعة كربلاء، د.لييب بيضون، طليعة النور، قم، إيران، ط1، 1427هـ.
- موسوعة كلمات الإمام الحسين(ع)، معهد تحقيقات باقر العلوم(ع)، أسوة، طهران، إيران، ط1، 1425هـ.
- موسيقى الشعر، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1972.
- (ن)
- ناسخ التواريخ، محمد تقي السبهر، ترجمة وتحقيق: سيد علي جمال أشرف، مطبعة قلم، قم، إيران، ط1، 2007م.
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، د.حازم عبد الله، دار الحرية، بغداد، 1981م.
- النثر الصوفي- دراسة فنية تحليلية، د.فائز طه عمر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 2004م.

- النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، د. مي يوسف خليفة، دار
قباء، القاهرة، د.ت.
- النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك، دار الكتب المصرية،
القاهرة، مصر، ط1، 1934م.
- النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، عبد الحكيم بلبع، لجنة البيان العربي،
المنيرة، د.ت.
- نزهة الناظر وتنبيه الخاطر، الحسن بن محمد بن نصر الطلواني (من
أعلام القرن الخامس الهجري)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، قم،
إيران، ط1، 1408هـ.
- النص والسلطة والحقيقة- إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، نصر حامد أبو
زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2006.
- النصوص الأدبية، جامعة قطر، دار قطري بن الفجاءة، قطر، د.ت.
- نظريات الإعلام واتجاهات التأثير، د.محمد عبد الحميد، عالم الكتب،
حلوان، ط1، 1997م.
- نظرية الأدب، رينيه ويليك وأوستن وارين، تر: محيي الدين صبحي،
مصطفى خالد الطرابيشي، ط3، 1972م.
- النظرية الأدبية، جوناثان كالر، تر: رشاد عبد القادر، منشورات وزارة
الثقافة، دمشق، سوريا، 2004م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي، د.صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية
العامة، بغداد، 1987.
- نظرية التلقي- مقدمة نقدية، روبرت هولب، تر: د.عز الدين إسماعيل،
النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ط1، 1994م.
- نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، د.حسين خمري، الدار
العربية للعلوم، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط1، 2007م.
- النظرية والنقد الثقافي، محسن جاسم الموسوي، دار الفارس، بيروت،
ط1، 2005م.
- النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط4،
1967م.
- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، لبنان،
1973م.
- النقد الأدبي الحديث- قضايا ومناهج، د.صالح هويدي، منشورات جامعة
السابع من أبريل، ليبيا، ط1، د.ت.
- النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د.عبدالله الغدامي،
المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م.
- نهج البلاغة، الشيخ محمد عبدة، كيميا، قم، إيران، ط1، 1427هـ.
- نهضة الحسين، هبة الدين الشهرستاني، منشورات الرضي، قم، إيران،
ط2، 1363هـ.

- 📖 نور الأبصار، مؤمن الشبلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- (و)
- 📖 الوثائق الرسمية لثورة الإمام الحسين (ع)، عبد الكريم الحسيني القزويني، مطبعة نمونة، قم، 1986م.
- 📖 وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت 1104هـ)، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان، 1403هـ.
- 📖 الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت 392هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.
- 📖 وسيلة الدارين في أنصار الحسين، إبراهيم الزنجاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط 1، 1975م.
- 📖 وقعة الطف، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي، الغامدي الكوفي (ت 158هـ)، تح: محمد هادي اليوسفي الغروي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط 3، 1413هـ.
- (ي)
- 📖 يزيد بن معاوية، أبو جعفر أحمد المكي، د.مط، دم، ط 1، 1978م.
- 📖 يوم الحسين (عليه السلام)، د.فاضل المالكي، مؤسسة البحوث والدراسات الإسلامية، ط 2، 1424هـ.

الرسائل والأطاريح الجامعية

- (أ)
- 📖 ابن الجوزي أديبا (رسالة ماجستير)، أفراح قدوري صالح القيسي، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، 2002م.
- 📖 الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي (رسالة ماجستير)، غريب طارش الساعدي، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1996م.
- 📖 أدب الحكمة في عصر صدر الإسلام (رسالة ماجستير)، محمد سعيد حسين مرعي الجبوري، كلية التربية، جامعة بغداد، 1989م.
- 📖 الإطناب في القرآن الكريم- أنماطه ودلالاته (أطروحة دكتوراه)، وفاء فيصل اسكندر محمد، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003م.
- 📖 الاغتراب الاجتماعي في شعر صدر الإسلام (رسالة ماجستير)، حسن صالح سلطان، كلية التربية، جامعة الموصل، 2000م.
- 📖 الاغتراب في شعر أحمد الصافي النجفي (رسالة ماجستير)، وفاء عبد الأمير هادي الصافي، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، 2005م.

(د)

- دراسة لغوية في كتاب نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) (أطروحة دكتوراه)، سمير داود سلمان، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2003م. 
- دراسة موضوعية فنية في أدب الرقائق (رسالة ماجستير)، أحمد عبد الرزاق خليل، كلية الآداب، جامعة البصرة، 2002م. 
- دعاء الإمام علي (ع) - دراسة لغوية أسلوبية (رسالة ماجستير)، محمد إسماعيل عبد الله، كلية التربية، جامعة بابل، 2005م. 
- الدعاء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي (رسالة ماجستير)، غالب راشد حمد المعموري، كلية الآداب، جامعة القادسية، 2000م. 
- (ش)
- شعر صلاح عبد الصبور - دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، أنسام محمد راشد، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1997م. 
- (ص)
- الصحيفة السجادية - دراسة أسلوبية (رسالة ماجستير)، حسن غانم فضالة الجنابي، كلية الآداب، جامعة القادسية، 2002م. 
- (ع)
- عبد القادر الكيلاني أديبا (رسالة ماجستير)، إيمان كمال مصطفى المهداوي، كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد، 1995م. 
- (ل)
- لغة شعر الشريف الرضي (رسالة ماجستير)، أحمد عبيس عبيد المعموري، كلية التربية، جامعة بابل، 2005م. 
- (م)
- محمود درويش الشاعر - دراسة فنية (رسالة ماجستير)، ساري الديك، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1988م. 
- مظاهر الغربة النفسية في الشعر العربي في العصرين الإسلامي والأموي (أطروحة دكتوراه)، أحمد دواليبي، كلية الآداب، جامعة حلب، 2000م. 
- المناجيات وأدعية الأيام عند الإمام زين العابدين (عليه السلام) (رسالة ماجستير)، إدريس طارق حسين، كلية التربية، جامعة بابل، 2006م. 
- (ن)
- نثر الإمام الحسين (عليه السلام) - دراسة بلاغية (رسالة ماجستير)، ميثم قيس مطلق، كلية التربية، جامعة القادسية، 2006هـ. 
- نظرية التوصيل في النقد الأدبي العربي الحديث (رسالة ماجستير)، سحر كاظم حمزة الشجيري، كلية التربية، جامعة بابل، 2003م. 
- نهشل بن حري حياته وشعره (رسالة ماجستير)، عبد اللطيف شنشول دكمان، كلية الآداب، جامعة الكوفة، 2006م. 

الدوريات

(أ)

- أسس ميتافيزيقيا البلاغة، عبد العزيز بو سمهولي، مجلة فكر ونقد، ع25، س3، يناير 2000م. 
- الأسلوبية والنقد الأدبي- منتخبات عن تعريف الأسلوب وعلم الأسلوب، اختيار وترجمة: عبد السلام المسدي، الثقافة الأجنبية، بغداد، ع1، س2، 1982. 
- الاغتراب، د.أحمد العدوان، مجلة عالم الفكر، مج10، ع1، 1979. 
- الاغتراب في الإسلام، فتح الله خليف، عالم الفكر، الكويت، مج10، ع1، 1979. 

(ت)

- تأملات في الخطاب الحسيني، الشيخ محمد مهدي الأصفي، مجلة رسالة الثقلين، المجمع العالمي لأهل البيت، ع45، س12، المحرم الحرام- ربيع الأول 1424هـ- 2003م. 
- التكرار في الشعر الجاهلي، موسى ربايع، مجلة مؤتة، مج5، ع1، 1991م. 
- التكوين التكراري في شعر جميل بن معمر، فايز القرعان، مجلة مؤتة، مج11، ع7، 1996م. 
- التناص، د.عبد النبي اصطيف، مجلة مؤتة، جامعة مؤتة، مج2، ع2، ك1، 1993م. 

(ح)

- حقوق الإنسان عند الإمام الحسين(ع)، جريدة الأحرار، كربلاء، ع86، 4 رجب 1428هـ- 19 تموز 2007م. 

(ر)

- رسالة الحسين(عليه السلام)، مركز دراسات نهضة الإمام الحسين(ع)، مطبعة مهر، قم، ع1، س1، 1411هـ. 

(ز)

- الزمكان بين العلم والخيال(مقال)، حيدر محمد، مجلة تواصل، العراق، ع8، س1، أيلول 2006م. 

(ش)

- الشعر بين الإيصال والتلقي- ملاحظات حول الموقف الاتصالي(بحث)، إدريس الناقوري، مجلة الأقلام، بغداد، ع1، س23، 1988م. 
- شعرية النثر في صدر الإسلام- خطبة الإمام علي(عليه السلام) مثالا، د. عباس محمد رضا، مجلة اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكوفة، ع2، شباط، 2002م. 

(ص)

الصورة الشعرية في شعر عبيد الأبرص- دراسة في المنبع الحسي والعقلي، د. فايز عارف، مجلة البصائر، جامعة البنات الأردنية، مج1، ع1، أيلول 1996م.

(ظ)

ظواهر الانحراف الأسلوبي في شعر مجنون ليلى، موسى ربايعه، مجلة أبحاث اليرموك، م8، ع12، 1990م.

(غ)

الغربة والحنين في شعر السياب (بحث)، د. صالح علي حسين الجميلي، مجلة كلية المعلمين، الجامعة المستنصرية، ع164، 1996م.

(م)

مكانة المتلقي في نقد القرن الرابع الهجري، بشرى موسى، مجلة الموقف الثقافي، بغداد، ع21، س4، 1999م.

منهج التحليل اللغوي في النقد الأدبي، د. سمير شريف ستيتة، مجلة آداب المستنصرية، ع16، 1988م.

(ن)

النص حساسية ما بعد الحداثة، باقر جاسم محمد، مجلة الأعلام، بغداد، ع11-12، 1996م.

النص والتأويل، منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ع3، 1988م.

(و)

وظائف اللغة عند رومان جاكسون، أعبو أبو إسماعيل، مجلة الفيصل، السعودية، ع17، س10، 1986م.

شبكة المعلومات

(أ)

الإمام الحسين ومحورية الجذب، مصطفى الحسني.

(ت)

التصوف وحب أهل البيت (ع)، علي الكوراني العالمي.

التوازن في فكر العقاد، د. حسن بن فهد الهويمل.

(ح)

حلقة نقاشية حول أدب الطف والنزعة القبلية، ملتقى البحرين.

(م)

مسيرة الحسين في الأسلوب والهدف، السيد محمد حسين فضل الله.

مفتي حلب يفجر قضية مظلومية أهل البيت (ع) على منبر الجمعة.

(و)

وقفات فكرية مع بعض مضامين عاشوراء، السيد محمد حسين فضل الله. 

Literature of Al-Imam Al-Hussein (peace be upon him)

Artistic & incorporeal cases

Al-Imam Al-Hussein Bin Ali Bin Abi Talib (Peace be upon them) is known as a religious symbol and revolutionary leader and he is not known by the same level – or even less – as he is a litterateur .

Whenever I read a new text in this literature , I admire him so much and I have a desire to write on him , because I see my admiration and desire based on superior artistic level where this literature is coming up , my insistence grew up to deal with this subject after I have found that Arabic library is empty from a certain specialized study , although Al –Husseini literature relates to the most important Islamic Arab historic periods , It is a rich source from Arab resources and an original fountainhead of its knowledge and arts . It is very wide and variable that make the door open to various literary studies . The representation for each idea or artistic remark with a text or more is the procedure that I followed in this research without analyzing the text arithmetically analysis in order not add or take from our thoughts that it is not deserved . To cover the subject from all aspects , it is required to study it due to descriptive and analytical text represented by three chapters and a conclusion .

In first chapter , we have dealt with the most kinds of Al-Husseini literature and the most important is the talks , letters , artistic speeches . The second chapter includes the subjects of his literature , which were political , religious and social ones. The third chapter (aesthetical forming case) I have dealt in it behavioral aspects related to articulation and structure besides rhyme and illustrative aspects , the research is concluded with a conclusion that shows the most important results , some of them are :-

- 1- Al-Imam recognition of literary types forms .
- 2- His beginning from Islamic text in treating different social aspects.
- 3- Both entertaining and satisfactory styles are obvious in his texts that could show his feeling experiences.
- 4- Al-Imam (peace be upon him) was interested in discipline text and reaching the idea to receivers , and he gave this side a special care .

In whole , we assure that reading Al-Husseini texts , would carry us to admit its literary style , and that was obvious through the soft sensation of the writer and richness and the beauty of his words . So Al-Imam Al-Hussein (peace be upon him) was eloquent in tongue and pen.